في الصعود إلى الجبل من شعبٍ لم يكن أحد يظنّ أنّه يصعد منه، فلمّا صار في أعلاه، في طائفة من أصحابه، ثار إليه أهل الجبل، فصبر لهم، وقاتلهم فيمن معه أشدّ قتال، وتتابع الجيش في الصعود إليه، فانهزم أهل الجبل، وكثر القتل فيهم، ومنهم مَنْ رمى نفسه فتكسّر، ومنهم من أفلت؛ واحتمى جماعة كثيرة بقصر في الجبل، فلمّا أحاط بهم الجيش طلبوا أن يُرسل إليهم من يصلح حالهم، فأرسل إليهم جماعة من العرب والجند، فثار بهم أولئك بالسلاح، فقتلوا بعضهم، وطلع الباقون إلى أعلى القصر، ونادوا أصحابهم من الجيش، فأتوهم وقاتلوهم: بعضهم من أعلى القصر، وبعضهم من أسفله، فألقى مَن فيه من أهل الجبل أيديهم، فقُتلوا كلّهم.

ذكر الفتنة بطوس

في هذه السنة، في عاشوراء، كانت فتنة عظيمة بطُوس، في مشهد عليّ بن موسى الرضا عليه السلام.

وسببها: أنّ علويّاً خاصم، في المشهد، يوم عاشوراء، بعض فقهاء طُوس، فأدّى ذلك إلى مضاربة، وانقطعت الفتنة، ثم استعان [كلٌ] منهما بحزبه، فثارت فتنة عظيمة حضرها جميع أهل طُوس، وأحاطوا بالمشهد وخرّبوه، وقتلوا (٥٢٣/١٠)مَنْ وجدوا، فقُتل بينهم جماعة ونُهبت أموال جمّة، وافترقوا.

وترك أهل المشهد الخطبة أيّام الجمعات فيه، فبنى عليه عضد الدين فرامرز بن عليّ سوراً منيعاً يحتمي به مَن بالمشهد على من يريده بسوء، وكان بناؤه خمس عشرة وخمسمائة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وقعت النار في الحظائر المجاورة للمدرسة النظاميّة ببغداد، فاحترقت الأخشاب التي بها، واتّصل الحريق إلى درب السلسلة، وتطاير الشرر إلى باب المراتب، فاحترقت منه عدّة دور، واحترقت خزانة كتب النظاميّة، وسَلمت الكتب، لأنّ الفقهاء لمّا أحسّوا بالنار نقلوها.

وفيها توفّي عبد الله بن يحيى بن محمّد بن بهلول أبو محمّد الأندلسيُّ، السَّرَقُسْطيُّ، وكان فقيهاً، فاضلاً، ورد العراق نحو سنة خمسمائة، وسار إلى خُراسان، فسكن مَرْو الرُّوذ، فمات بها، وله شعر حسن، فمنه:

وَمُهَفْهَفٍ يَختالُ في أبرادِهِ ... مَرَحَ القَضيب اللّدْن تحتَ البارِحِ
أبصرتُ في مرآة فكري خَدَّهُ ... فحكيتُ فِعْلَ جفُونِه بجَوارِحي
ما كنتُ أحسِبُ أنّ فِعْلَ تَوَهّمي ... يَقوى تَعدّيهِ فيجرحُ جارحي
لا غروَ إن جَرحَ التّوهّمُ خَدَّهُ ... فالسِّحْرُ يَعمَلُ في البَعيدِ النّازِحِ

وفيها، في شعبان، توفّي أبو القاسم عليُّ بن محمّد بن أحمد بن بيان(٥٢٤/١٠) الرَّزّاز، ومولده في صفر سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، وهو آخر من حدّث عن أبي الحسن بن مخلد، وأبي القاسم بن بشران.

وفيها توفّي أبو بكر محمّد بن منصور بن محمّد بن عبد الجبّار السمعانيُّ، رئيس الشافعيّة، بمَرْو، ومولده سنة ستّ وأربعين وأربعمائة، وسمع الحديث الكثير وصنّف فيه، وله فيه أمال حسنة، وتكلّم على الحديث، فأحسن ما شاء.

وفيها توفّي محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذانيُّ أبو الخطّاب الفقيه الحنبليُّ، ومولده سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وتفقّه على أبي يعلى بن الفرّاء. (٥٢٥/١٠)

سنة إحدى عشرة وخمسمائة

ذكر وفاة السلطان محمّد وملك ابنه محمود

في هذه السنة، في الرابع والعشرين من ذي الحجّة، توفّي السلطان محمّد ابن ملكشاه بن ألب أرسلان، وكان ابتداء مرضه في شعبان، وانقطع عن الركوب، وتزايد مرضه، ودام، وأرجف عليه بالموت، فلمّا كان يوم عيد النحر حضر السلطان، وحضر ولده السلطان محمود على السماط، فنهبه الناس، ثم أذن لهم فدخلوا إلى السلطان محمّد، وقد تكلّف القعود لهم، وبين يدَيْه سماط كبير، فأكلوا وخرجوا. فلمّا انتصف ذو الحجّة أيس من نفسه، فأحضر ولده محموداً، وقبّله، وبكى كلّ واحد منهما، وأمره أن يخرج ويجلس على تُخْت السلطنة، وينظر في أمور الناس، وعمره إذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة، فقال لوالده :إنّه يوم غير مبارك، يعني من طريق النجوم؛ فقال: صدقتَ، ولكن على أبيك، وأمّا عليك فمبارك بالسلطنة. فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارَيْن.

وفي يوم الخميس الرابع والعشرين أُحضر الأمراء وأُعلموا بوفاته، وقُرئت وصيّته إلى ولده محمود يأمره العدل والإحسان، وفي الجمعة الخامس والعشرين منه خُطب لمحمود بالسلطنة.

وكان مولد السلطان محمّد ثامن عشر شعبان من سنة أربع وسبعين وأربعمائة، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستّة أيّام، وأوّل ما دعي له (٥٢٦/١٠)بالسلطنة، ببغداد، في ذي الحجّة سنة اثنتين وتسعين [وأربعمائة]، وقُطعت خطبته عدّة دفعات على ما ذكرناه، ولقي من المشاقّ والأخطار ما لا حدّ له.

فلمّا توفّي أخوه بركيارق صفت له السلطنة، وعظمت هيبته، وكثرت جيوشه وأمواله، وكان اجتمع الناس عليه اثنتي عشرة سنة وستّة أشهر.

ذكر بعض سيرته

كان عادلاً، حسن السيرة، شجاعاً، فمن عدله أنّه اشترى مماليك من بعض التجار، وأحالهم بالثمن على عامل خُوزستان، فأعطاهم البعض، ومطل بالباقي، فحضروا مجلس الحكم، وأخذوا معهم غلمان القاضي، فلمّا رآهم السلطان قال لحاجبه: انظر ما حال هؤلاء، فسألهم عن حالهم، فقالوا: لنا خصم يحضر معنا مجلس الحكم، فقال:من هو؟ قالوا: السلطان؛ وذكروا قصّتهم، فأعلمه ذلك، فاشتدّ عليه وأكره، وأمر بإحضار العامل، وأمره بإيصال أموالهم، والجُعْل الثقيل، ونكل به حتّى يمتنع غيره عن مثل فعله، ثم إنّه كان يقول بعد ذلك :لقد ندمتُ ندماً عظيماً حيث لم أحضر معهم مجلس الحكم، فيقتدي بي غيري، ولا يمتنع أحد عن الحضور فيه وأداء الحق.

فمن عدله : أنّه كان خازن يُعرف بأبي أحمد القزوينيّ قتله الباطنيّة، فلمّا قُتل أمر بعرض الخزانة، فعُرض عليه فيها دُرج فيه جوهر كثير نفيس، فقال: إنّ هذا الجوهر عرضه عليّ، منذ أيّام، وهو في ملك أصحابه، وسلّمه (٥٢٧/١٠)إلى خادم ليحفظه وينظر من أصحابه فيسلّم إليهم، فسأل عنهم، وكانوا تجّاراً غرباء، وقد تيقّنوا ذهابه وأيسوا منه، فسكتوا؛ فأحضرهم وسلّمه إليهم.

ومن عدله :أنّه أطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد، ولم يُعرف منه فعل قبيح، وعلم الأمراء سيرته، فلم يقدم أحد منهم على الظلم، وكفّوا عنه.

ومن محاسن أعماله ما فعله مع الباطنيّة على ما نذكره.

ذكر حال الباطنيّة أيّام السلطان محمّد

قد تقدّم ذكر ما اعتمده من حصر قلاعهم، ونحن نذكر هاهنا زيادة اهتمامه بأمرهم، فإنّه، رحمه اللّه تعالى، لمّا علم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم، وإخراب ديارهم، وملك حصونهم وقلاعهم، جعل قصدهم دأبَهُ.

وكان، في أيّامه، المقدّم عليهم، والقيّم بأمرهم الحسن بن الصبّاح الرازيّ، صاحب قلعة ألَمُوت، وكانت أيّامه قد طالت، وله منذ ملك قلعة ألَمُوت ما يقارب ستّاً وعشرين سنة، وكان المجاورون له في أقبح صورة من كثرة غزاته عليهم، وقتْله وأسْره رجالهم، وسبي نسائهم، فسيّر إليه السلطان العساكر، على ما ذكرناه، فعادت من غير بلوغ غرض، فلمّا أعضل داؤه ندب لقتاله الأمير أنوشتكين شيركير، صاحب آبة، وساوة، وغيرهما، فملك منهم عدّة قلاع منها قلعة كلام، ملكها في جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة، وكان مقدّمها يُعرف بعليّ بن موسى، فأمّنه ومن معه، وسيّرهم (٥٢٨/١٠)إلى ألَمُوت؛ وملك منهم أيضاً قلعة بيرة، وهي على سبعة فراسخ من قزوين، وأمّنهم، وسيّرهم إلى ألَمُوت أيضاً.

وسار إلى قلعة ألَمُوت فيمن معه من العساكر، وأمدّه السلطان بعدّة من الأمراء، فحصرهم، وكان هو، من بينهم، صاحب القريحة والبصيرة في قتالهم، مع جودة رأي وشجاعة، فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه، وعيّن لكلّ طائفة من الأمراء أشهراً يقيمونها، فكانوا ينيبون، ويحضرون، وهو ملازم الحصار، وكان السلطان ينقل إليه الميرة، والذخائر، والرجال، فضاق الأمر على الباطنيّة، وعُدمت عندهم الأقوات وغيرها، فلمّا اشتدّ عليهم الأمر نزّلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين، وسألوا أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق، ويُؤمّنوا، فلم يجابوا إلى ذلك، وأعادهم إلى القلعة، قصداً، ليموت الجميع جوعاً.

وكان ابن الصبّاح يُجري لكلّ رجل منهم، في اليوم، رغيفاً، وثلاث حوزات، فلمّا بلغ بهم الأمر إلى الحدّ الذي لا مزيد عليه، بلغهم موت السلطان محمّد، فقويت نفوسهم، وطابت قلوبهم، ووصل الخبر إلى العسكر المحاصر لهم بعدهم بيوم، وعزموا على الرحيل، فقال شيركير : إن رحلنا عنهم، وشاع الأمر، نزلوا إلينا، وأخذوا ما أعددناه من الأقوات والذخائر، والرأي أن نقيم على قلعتهم حتّى نفتحها، وإن لم يكن المقام، فلا بدّ من مقام ثلاثة أيّام، حتّى ينفد منّا ثَقَلنا وما أعددناه، ونحرق ما نعجز عن حمله لئلاّ يأخذه العدوّ.

فلمّا سمعوا قوله علموا صدقه، فتعاهدوا على الاتّفاق والاجتماع، فلمّا (٥٢٩/١٠)أمسوا رحلوا من غير مشاورة، ولم يبق غير شيركير، ونزل إليه الباطنيّة من القلعة، فدافعهم وقاتلهم وحمى مَن تخلّف من سوقة العسكر وأتباعه، ولحق بالعسكر، فلمّا فارق القلعة غنم الباطنيّة ما تخلّف عندهم.

ذكر حصار قابس والمهديّة

في هذه السنة جهّز عليُّ بن يحيى، صاحب إفريقية، أسطولاً في البحر إلى مدينة قابس، وحصرها.

وسبب ذلك أنّ صاحبها رافع بن مكّن الدهمانيّ أنشأ مركباً بساحلها ليحمل التجّار في البحر، وكان ذلك آخر أيّام الأمير يحيى، فلم ينكر يحيى ذلك، جرياً على عادته في المداراة، فلمّا وليَ عليّ الأمر، بعد أبيه، أنف من ذلك وقال:لا يكون لأحد من أهل إفريقية أن يناوئني في إجراء المراكب في البحر بالتجار:فلمّا خاف رافع أن يمنعه عليّ التجأ إلى اللعين رجّار ملك الفرنج بصقلّية، واعتضد به، فوعده رجّار أن ينصره ويعينه على إجراء مركبه في البحر، وأنفذ في الحال أسطولاً إلى قابس، فاجتازوا بالمهديّة، فحينئذ تحقّق عليّ اتّفاقهما، وكان يكذّبه.

فلمّا جاز أُسطوله رجّار بالمهديّة أخرج عليّ أسطوله في أثره، فتوافى الجميع إلى قابس، فلمّا رأى صاحبها أسطول الفرنج والمسلمين لم يخرج مركبه، فعاد أُسطول الفرنج، وبقي أُسطول عليّ يحصر رافعاً بقابس مضيّقاً عليها. (٥٣٠/١٠)

ثم عادوا إلى المهديّة، وتمادى رافع في المخالفة لعليّ، وجمع قبائل العرب، وسار بهم، حتّى نزل على المهديّة محاصراً لها، وخادع عليّاً، وقال: إنّني إنّما جئت للدخول في الطاعة، وطلب من يسْعَى في الصُلح، وأفعالُه تكذّب أقواله، فلم يجبه عن ذلك بحرف، وأخرج العساكر، وحملوا على رافع ومَنْ معه حملة منكرة، فألحقوهم بالبيوت، ووصل العسكر إلى البيوت، فلمّا رأى ذلك النساء صِحْنَ، وولولْنَ، فغارت العرب، وعاودت القتالَ، واشتدّ حينئذ الأمر إلى المغرب، ثم افترقوا، وقد قُتل من عسكر رافع بشر كثير، ولم يُقْتَل من جند عليّ غير رجل واحد من الرَّجّالة.

ثم خرج عسكر عليّ مرّة أخرى، فاقتتلوا أشدّ من القتال الأوّل، كان الظهور فيه لعسكر عليّ، فلمّا رأى رافع أنّه لا طاقة له بهم رحل عن المهديّة ليلاً إلى القَيروان، فمنعه أهلها من دخولها، فقاتلهم أيّاماً قلائل، ثم دخلها، فأرسل عليّ إليه عسكراً من المهديّة، فحصروه فيها إلى أن خرج عنها، وعاد إلى قابس؛ ثم إنّ جماعة من أعيان إفريقية، من العرب وغيرهم، سألوا عليّاً في الصلح، فامتنع، ثم أجاب إلى ذلك، وتعاهد عليه.

ذكر الوحشة بين رجّار والأمير عليّ

كان رجّار، صاحب صقليّة، بينه وبين الأمير عليّ، صاحب إفريقية، مودّة وكيدةٌ، إلى أن أعان رافعاً كما تقدّم قبلُ، فاستوحش كلّ منهما من صاحبه، ثم بعد ذلك خاطبه رجّار بما لم تجْرِ عادتهم به، فتأكّدت الوحشة، فأرسل رجّار رسالة فيها خشونة، فاحترز عليّ منه، وأمر بتجديد الأسطول، وإعداد الأهبة للقاء العدوّ، وكاتب المرابطين بمَرّاكُش في الاجتماع معه على الدخول إلى صِقلّية، فكف رجّار عمّا كان يعتمده. (٥٣١/١٠)

ذكر قتل صاحب حلب واستيلاء إيلغازي عليها

في هذه السنة قُتل لؤلؤ الخادم، وكان قد استولى على قلعة حلب وأعمالها، بعد وفاة الملك رضوان، ووَلِيَ أتابكيّة ولده ألب أرسلان، فلمّا مات أقام بعده في الملك سلطانشاهَ بن رضوان، وحكم في دولته أكثر من حكمه في دولة أخيه، فلمّا كانت هذه السنة سار منها إلى قلعة جَعبَر ليجتمع بالأمير سالم بن مالك صاحبها، فلمّا كان عند قلعة نادر نزل يُريق الماء، فقصده جماعة من أصحابه الأتراك، وصاحوا: أرنب، أرنب! وأوهموا أنّهم يتصيّدون، ورموه بالنشّاب، فقُتل، فلمّا هلك [نهبوا] خزانته، فخرج إليهم أهل حلب، فاستعادوا ما أخذوه.

ووليَ أتابكيّةَ سلطانشاه بن رضوان شمس الخواصّ يارو قتاش، فبقي شهراً، وعزلوه، ووليَ بعده أبو المعالي بن الملحيّ الدمشقيُّ، ثم عزلوه وصادروه.

وقيل: كان سبب قتل لؤلؤ أنّه أراد قتل سلطانشاه، كما قتل أخاه ألب أرسلان قبله، ففطن به أصحاب سلطانشاه، فقتلوه؛ وقيل كان قتله سنة عشر وخمسمائة، واللّه أعلم.

ثمّ إنّ أهل حلب خافوا من الفرنج، فسلّموا البلد إلى نجم الدين إيلغازي، فلمّا تسلّمه لم يجد فيه مالاً، ولا ذخيرة، لأنّ الخادم كان قد فرّق الجميع، وكان الملك رضوان قد جمع فأكثر، فرزقه اللّه غير أولاده، فلمّا رأى إيلغازي خلوّ البلد من الأموال صادر جماعة من الخدم بمال صانع به الفرنج، وهادنهم مُدّة يسيرة تكون بمقدار مسيره إلى ماردين، وجمْع العساكر والعود، (٥٣٢/١٠)فلمّا تمّت الهدنة سار إلى ماردين، على هذا العزم، واستخلف بحلب ابنَهُ حُسام الدين تمرتاش.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في رابع عشر صفر، انخسف القمر انخسافاً كليّاً.

وفي هذه الليلة هجم الفرنج على ربض حماة من الشام، وقتلوا من أهلها ما يزيد على مائة رجل وعادوا.

وفيها، في يوم عرفة، كانت زلزلة بالعراق، والجزيرة، وكثير من البلاد، وخربت ببغداد دور كثيرة بالجانب الغربيّ.

وفيها مات أحمد العربيُّ ببغداد، وكان من عباد اللّه الصالحين، له كرامات، وقبره يزار بها.

وفي هذه السنة، في شوّال، توفّي أبو عليّ محمّد بن سعد بن إبراهيم بن نبهان الكاتب، وعُمره مائة سنة، وكان عالي الإسناد، روى عن أبي عليّ بن شاذان وغيره؛ والحسن بن أحمد بن جعفر أبو عبد اللّه الشقّاق الفرضيُّ، الحاسب، وكان واحد عصره في علم الفرائض والحساب، وسمع الحديث من أبي الحسين بن المهتدي وغيره.

وفيها مات الكزايكس ملك القسطنطينية، وملك بعده ابنه يوحنّا، وسلك سيرته.

وفيها مات دوقس أنطاكية، وكفى اللّه شرّه. (٥٣٣/١٠)

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة

ذكر ما فعله السلطان محمود بالعراق وولاية البُرسقيّ شحنكيّة

بغداد

لمّا توفّي السلطان محمّد، وملك بعده ابنه محمود، ودبّر دولته الوزير الربيب أبو منصور، أرسل إلى الخليفة المستظهر باللّه يطلب أن يخطب له ببغداد، فخُطب له في الجمعة ثالث عشر المحرّم، وكان شحنة بغداد بهروز.

ثم إنّ الأمير دُبَيْس بن صدقة كان عند السلطان محمّد، مذ قُتل والده، على ما ذكرناه، فأحسن إليه، وأقطعه إقطاعاً كثيراً، فلمّا توفّي السلطان محمّد خاطب السلطانَ محموداً في العود إلى بلده الحِلّة، فأذن له في ذلك، فعاد إليها، فاجتمع عليه خلق كثير من العرب، والأكراد، وغيرهم، وكان آقسنقر البرسقيُّ مقيماً بالرَّحبة، وهي إقطاعه، وليس بيده من الولايات شيء، فاستخلف عليها ابنه عزّ الدين مسعود، وسار إلى السلطان محمّد، قبل موته، عازماً على مخاطبته في زيادة إقطاعه، فبلغه وفاة السلطان محمّد قبل وصوله إلى بغداد.

وسمع مجاهد الدين بَهروز بقربه من بغداد، فأرسل إليه يمنعه من دخولها، فسار إلى السلطان محمود، فلقيه توقيع السلطان بولاية شحنكيّة بغداد، وهو بحُلوان، وعزل بهروز.

وكان الأمراء عند السلطان يريدون البرسقيَّ، ويتعصّبون له، ويكرهون (٥٣٤/١٠)مجاهد الدين بهروز، ويحسدونه للقرب الذي كان له عند السلطان محمّد، وخافوا أن يزداد تقدّماً عند السلطان محمود وحكماً، فلمّا وليَ البرسقيُّ شحنكيّةَ بغداد هرب بهروز إلى تكريت، وكانت له.

ثم إنّ السلطان ولّى شحنكيّة بغداد الأمير منكوبرس، وهو من أكابر الأمراء، وقد حكم في دولة السلطان محمود، فلمّا أُعطي الشحنكيّة سيّر إليها ربيبه الأمير حسين بن أزبك، أحد الأمراء الأتراك، وهو صاحب أسداباذ، لينوب عنه ببغداد والعراق، وفارق السلطان من باب هَمذان، واتّصل به جماعة الأمراء البكجيّة وغيرهم.

فلمّا سمع البرسقيُّ خاطب الخليفة المستظهر باللّه ليأمره بالتوقّف إلى أن يكاتب السلطانَ، ويفعل ما يرد به الأمر عليه، فأرسل إليه الخليفة، فأجاب: إن يرسم الخليفة بالعود عُدْتُ، وإلاّ فلا بدّ من دخول بغداد. فجمع البرسقيُّ أصحابه وسار إليه، فالتقوا واقتتلوا، فقُتل أخ لحسين، وانهزم هو ومن معه، وعادوا إلى عسكر السلطان، فكان ذلك في شهر ربيع الأوّل، قبل وفاة المستظهر باللّه بأيّام.

ذكر وفاة المستظهر باللّه

في هذه السنة، سادس عشر ربيع الآخر، توفّي المستظهر باللّه أبو العبّاس أحمد بن المقتدي بأمر اللّه، وكان مرضه التراقي، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستّة أشهر وستّة أيام، وخلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة (٥٣٥/١٠)أشهر وأحد عشر يوماً، ووزر له عميد الدولة أبو منصور بن جُهير، وسديد الملك أبو المعالي المفضّل بن عبد الرزّاق الأصبهانيُّ، وزعيم الرؤساء أبو القاسم ابن جُهير، ومجد الدين أبو المعالي هبة اللّه بن المطّلب، ونظام الدين أبو منصور الحسين بن محمّد؛ وناب عن الوزارة أمين الدولة أبو سعد بن الموصلايا، وقاضي القضاة أبو الحسن عليُّ بن الدامغانيّ، ومضى في أيّامه، ثلاثة سلاطين خُطب لهم بالحضرة، وهم : تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان، والسلطان بركيارُق، ومحمّد ابنا ملكشاه.

ومن غريب الاتّفاق أنّه لمّا توفّي السلطان ألب أرسلان توفّي بعده القائم بأمر اللّه، ولمّا توفّي السلطان ملكشاه توفّي بعده المقتدي بأمر اللّه، ولمّا توفّي السلطان محمّد توفّي بعده المستظهر باللّه.

ذكر بعض أخلاقه وسيرته

كان، رضي اللّه عنه، ليّن الجانب، كريم الأخلاق، يحبّ اصطناع الناس، ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال البرّ والمثوبات، مشكور المساعي لا يردّ مكرمة تُطلب منه.

وكان كثير الوثوق بمن يولّيه، غير مصغٍ إلى سعاية ساعٍ، ولا ملتفت إلى قوله، ولم يُعرف منه تلوّن، وانحلال عزم، بأقوال أصحاب الأغراض.

وكانت أيّامه أيّامَ سرور للرعيّة، فكأنّها من حُسنها أعياد، وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسرّه، وإذا تعرّض سلطان أو نائب له لأذى أحد بالغ في إنكار ذلك والزجر عنه. (٥٣٦/١٠)

وكان حسن الخطّ، جيّد التوقيعات، لا يقاربه فيها أحد، يدلّ على فضل غزير، وعلم واسع؛ ولمّا توفّي صلّى عليه ابنه المسترشد باللّه، وكبّر أربعاً، ودُفن في حجرة له كان يألفها، ومن شعره قوله:

أذابَ حرُّ الهوى في القلبِ ما جَمَدا ... لمّا مددتُ إلى رَسْمِ الوَداعِ يدَا

وكَيْفَ أسلُكُ نَهجَ الاصطبارِ وقد ... أرَى طرائقَ في مَهوَى الهَوى قِدَدَا

قد أخلفَ الوعدَ بدرٌ قد شُغِفتُ بهِ، ... من بعد ما قَد وفى دهري بما وعَدا

إن كنتُ أنقضُ عهدَ الحبِّ في خلَدي ... مِن بعدِ هذا، فلا عايَنتُهُ أبَدَا

ذكر خلافة الإمام المسترشد باللّه

لمّا توفّي المستظهر باللّه بويع ولده المسترشد باللّه أبو منصور الفضل بن أبي العبّاس أحمد بن المستظهر باللّه، وكان وليّ عهد قد خُطب له ثلاثاً وعشرين سنة، فبايعه أخواه ابنا المستظهر باللّه، وهما أبو عبد اللّه محمّد، وأبو طالب العبّاس، وعمومته بنو المقتدي بأمر اللّه، وغيرهم من الأمراء، والقضاة، والأئمّة،

والأعيان.

وكان المتولّي لأخذ البيعة القاضي أبو الحسن الدمغانيُّ، وكان نائباً عن الوزارة، فأقرّه المسترشد باللّه عليها، ولم يأخذ البيعة قاضٍ غير هذا، وأحمد(٥٣٧/١٠) ابن أبي داود، فإنّه أخذها للواثق باللّه، والقاضي أبو عليّ إسماعيل بن إسحاق، أخذها للمعتضد باللّه.

ثم إنّ المسترشد عزل قاضي القضاة عن نيابة الوزارة، واستوزر أبا شجاع محمّد بن الربيب أبي منصور، وزير السلطان محمود، وكان والده خطب في معنى ولده، حتّى استُوزر، وقبض على صاحب المخزن أبي طاهر يوسف بن أحمد الحُزّيّ.

ذكر هرب الأمير أبي الحسن أخي المسترشد وعوده

لمّا اشتغل الناس ببيعة المسترشد باللّه، ركب أخوه الأمير أبو الحسن بن المستظهر باللّه سفينة، ومعه ثلاثة نفر، وانحدر إلى المدائن، وسار منها إلى دُبَيْس بن صدقة بالحِلّة، فكرّمه دُبيس، وعلم منه وفاة المستظهر باللّه، وأقام له الإقامات الكثيرة، فلمّا علم المسترشد باللّه خبره أهمّه ذلك وأقلقه، وأرسل إلى دُبيس يطلب منه إعادته، فأجاب بأنّني عبد الخليفة، وواقف عند أمره، ومع هذا فقد استذمّ بي، ودخل منزلي، فلا أكرهه على أمرٍ أبداً.

وكان الرسول نقيب النقباء شرف الدين عليّ بن طراد الزينبيّ، فقصد الأمير أبا الحسن، وتحدّث معه في عوده، وضمن له عن الخليفة كلّ ما يريده، فأجاب إلى العود، وقال: إنّني لم أفارق أخي لشرّ أريده، وإنّما الخوف حملني على مفارقته، فإذا أمّنني قصدتُه. وتكفّل دُبيس بإصلاح الحال (٥٣٨/١٠)بنفسه، والمسير معه إلى بغداد، فعاد النقيب وأعلم الخليفة الحال، فأجاب إلى ما طلبه منه.

ثم حدث من أمر البرسقيّ ودُبيس ومنكوبرس ما ذكرناه، فتأخّر الحال.

وأقام الأمير أبو الحسن عند دُبَيْس إلى ثاني عشر صفر سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، ثم سار عن الحلّة إلى واسط، وكثر جمعه، وقوي الإرجاف بقوّته، وملك مدينة واسط، وخيف جانبه، فتقدّم الخليفة المسترشد باللّه بالخطبة لولّي عهده ولده أبي جعفر المنصور، وعمره حينئذ اثنتا عشرة سنة، فخُطب له ثاني ربيع الآخر ببغداد، وكتب إلى البلاد بالخطبة له، وأرسل إلى دُبَيْس بن مَزْيد في معنى الأمير أبي الحسن، وأنّه الآن قد فارق جواره، ومدّ يده إلى بلاد الخليفة وما يتعلّق به، وأمره بقصده ومعالجته قبل قوّته؛ فأرسل دُبَيْس العساكر إليه، ففارق واسط، وقد تحيّر هو وأصحابه، فضلّوا الطريق، ووصلت عساكر دُبَيْس، فصادفوهم عند الصَّلْح، فنهبوا أثقاله، وهرب الأكراد من أصحابه، والأتراك، وعاد الباقون إلى دُبَيْس.

وبقي الأمير أبو الحسن في عشرة من أصحابه وهو عطشان، وبينه وبين الماء خمسة فراسخ، وكان الزمان قيظاً، فأيقن بالتلف، وتبعه بدويّان، فأراد الهرب منهما، فلم يقدر، فأخذاه، وقد اشتدّ به العطش، فسقياه، وحملاه إلى دُبَيْس، فسيّره إلى بغداد، وحمله إلى الخليفة، بعد أن بذل له عشرين ألف دينار، فحُمل إلى الدار العزيزة، وكان بين خروجه عنها وعوده إليها أحد عشر شهراً.

ولمّا دخل على المسترشد باللّه قبّل قدمه، وقبّله المسترشد، وبكيا، وأنزله (٥٣٩/١٠)داراً حسنة كان هو يسكنها قبل أن يلي الخلافة، وحمل إليه الخِلَع، والتحف الكثيرة، وطيّب نفسه وأمّنه.

ذكر مسير الملك مسعود وجيوش بك إلى العراق وما كان بينهما وبين البُرسقيّ ودُبَيْس

في هذه السنة، في جمادى الأولى، برز البرسقيُّ، ونزل بأسفل الرُّقّة في عسكره،ومَن معه، وأظهر أنّه على قصد الحِلّة وإجلاء دُبَيْس بن صدقة عنها.

وجمع دُبَيْس جموعاً كثيرة من العرب والأكراد، وفرّق الأموال الكثيرة والسلاح.

وكان الملك مسعود ابن السلطان محمّد بالموصل مع أتابكه أي أبه جيوش بك، فأشار عليهما جماعة ممّن عندهما بقصد العراق فإنّه لا مانع دونه، فسارا في جيوش كثيرة، ومع الملك مسعود وزيره فخر الملك أبو عليّ بن عمّار صاحب طرابلس، وقسيم الدولة زنكي بن آقسنقر جدّ ملوكنا الآن بالموصل، وكان من الشجاعة في الغاية، ومعهم أيضاً صاحب سنجار، وأبو الهيجاء صاحب إربل، وكرباوي بن خراسان التركمانيُّ، صاحب البوازيج، فلمّا علم البرسقيُّ قربهم خافهم.

وكان البرسقيُّ قديماً قد جعله السلطان محمّد أتابك ولده مسعود، على ما ذكرناه، وإنّما كان خوفه من جيوش بك، فلمّا قاربوا بغداد سار إليهم ليقاتلهم ويصدّهم، فلمّا علم مسعود وجيوش بك ذلك أرسلا إليه الأمير (٥٤٠/١٠)كرباوي في الصلح، وأعلمه أنّهم إنّما جاؤوا نجدةً له على دُبَيْس، واصطلحوا، وتعاهدوا، واجتمعوا.

ووصل مسعود إلى بغداد، ونزل بدار المملكة، ووصلهم الخبر بوصول الأمير عماد الدين منكبرس، المقدّم ذكره، في جيش كثير، فسار البرسقيُّ عن بغداد نحوه ليحاربه ويمنعه عنها، فلمّا علم به منكبرس قصد النُعمانيّة، وعبر دجلة هناك، واجتمع هو ودُبَيْس بن صدقة.

وكان دُبَيْس قد خاف من الملك مسعود والبرسقيّ، فبنى أمره على المجاجزة والملاطفة، فأهدى لمسعود هدية حسنة،

وللبرسقيّ، وجيوش بك، فلمّا وصله خبر وصول منكبرس راسله، واستماله، واستحلفه، واتّفقا على التعاضد والتناصر، واجتمعا، وكلّ واحد منهما قوي بصاحبه، فلمّا اجتمعا سار الملك مسعود، والبرسقيُّ، وجيوش بك، ومَن معهم، إلى المدائن للقاء دُبَيْس ومنكبرس، فلمّا وصلوا المدائن أتتهم الأخبار بكثرة الجمع معهما، فعاد البرسقيّ، والملك مسعود، وعبرا نهر صرصر، وحفظا المخاضات عليه، ونهبت الطائفتان السواد نهباً فاحشاً: نهر الملك، ونهر صَرْصَر، ونهر عيسى، وبعض دُجَيْل، واستباحوا النساء.

فأرسل المسترشد باللّه إلى الملك مسعود والبرسقيّ ينكر هذه الحال، ويأمرهما بحقن الدماء، وترْك الفساد، ويأمر بالموادعة والمصالحة، وكان الرسل: سديد الدولة بن الأنباريّ، والإمام الأسعد المَيهنيّ، مدرس النظاميّة، فأنكر البرسقيُّ أن يكون جرى منهما شيء من ذلك، وأجاب إلى العَود، فوصل من أخبره أنّ منكبرس ودُبيساً قد جهّزا ثلاثة آلاف فارس مع منصور أخي دُبَيْس، والأمير حسين بن أزبك، ربيب منكبرس، وسيّروهم، وعبروا عند دَرْزِيجَانَ ليقطعوا مخاضة عند دَيَالى إلى بغداد، لخلوّها من (٥٤١/١٠)عسكر يحميها ويمنع عنها.

فعاد البرسقيُّ إلى بغداد، وعبر الجسر لثلاّ يخاف الناس، ولم يعلموا الخبر، وخلّف ابنه عزّ الدين مسعوداً على عسكره بصَرْصَر، واستصحب معه عماد الدين زنكي بن آقسنقر، فوصل إلى دَيَالى، ومنع عسكر منكبرس من العبور، فأقام يومَيْن، فأتاه كتاب ابنه عزّ الدين مسعود يخبره أنّ الصلح قد استقرّ بين الفريقَيْن، فانكسر نشاطه، حيث جرى هذا الأمر ولم يعلم به، وعاد نحو بغداد، وعبر إلى الجانب الغربي، وعبر منصور وحسين فسارا في عسكرهما خلفه، فوصلا بغداد عند نصف الليل، فنزلا عند جامع السلطان.

وسار البرسقيّ إلى الملك مسعود فأخذ بَركه ومالَه وعاد إلى بغداد، فخيّم عند القنطرة العتيقة، وأصعد الملك مسعود، وجيوش بك، فنزلا عند البيمارستان، وأصعد دُبَيْس ومنكبرس فخيّما تحت الرَّقّة، وأقام عزّ الدين مسعود بن البرسقيّ عند منكبرس منفرداً عن أبيه.

وكان سبب هذا الصلح أنّ جيوش بك كان قد أرسل إلى السلطان محمود يطلب الزيادة له وللملك مسعود، فوصل كتاب الرسول من العسكر يذكر أنّه لقي من السلطان إحساناً كثيراً، وأنّه أقطعهما أذْربيجان، فلمّا بلغه رحيلهما إلى بغداد اعتقد أنّما قد عَصَيا عليه، فعاد عمّا كان استقرّ، ويقول إنّ السلطان قد جهّز عسكراً إلى الموصل، فوقع الكتاب بيد منكبرس، فأرسله إلى جيوش بك، وضمن له إصلاح السلطان له وللملك مسعود، وكان منكبرس (٥٤٢/١٠)متزوّجاً بأمّ الملك مسعود، واسمها سَبْرجهان،

وكان يؤثر مصلحته لذلك، واستقرّ الصلح، وخافا من البرسقيّ أن يمنع منه، فاتّفقا على إرسال العسكر إلى دَرْزِيجَان لينفذ في مقابلته البرسقيّ ليخلو العسكر منه، ويقع الاتّفاق، فكان الأمر في مسيره على ما تقدّم.

وكان البرسقيُّ محبوباً لدى أهل بغداد لحسن سيرته فيهم، فلمّا استقرّ الصلح ووصلوا إلى بغداد، تفرّق عن البرسقيّ أصحابه وجموعه، وبطل ما كان يحدّث به نفسه من التغلّب على العراق بغير أمر السلطان، وسار عن العراق إلى الملك مسعود، فأقام معه، واستقرّ منكبرس في شحمكيّة بغداد، وودّعه دُبَيْس بن صدقة، وعاد إلى الحِلّة، بعد أن طالب بدار أبيه بدرب فيروز، وكانت قد دخلت في جامع القصر ببغداد، فصولح عنها بمال.

وأقام منكبرس ببغداد يظلم، ويعسف الرعيّة، ويصادرهم، فاختفى أرباب الأموال، وانتقل جماعة إلى حريم دار الخلافة خوفاً منه، وبطلت معايش الناس، وأكثر أصحابه الفساد، حتّى إنّ بعض أهل بغداد زُفّت إليه امرأة تزوّجها، فعلم بعض أصحاب منكبرس، فأتاه وكسر الباب وجرح الزوج عدّة جراحات، وابتنى بزوجته، فكثر الدعاء ليلاً ونهاراً، واستغاث الناس لهذه الحال، وأغلقوا الأسواق، فأُخذ الجنديّ إلى دار الخلافة فاعتُقل أياماً ثم أُطلق.

وسمع السلطان بما يفعله منكبرس ببغداد، فأرسل إليه يستدعيه، ويحثّه على اللحوق به، وهو يغالط ويدافع، وكلّما طلبه السلطان لجّ في جمع الأموال والمصادرات. فلمّا علم أهل بغداد تغيُّر السلطان عليه، واستدعاءه إيّاه، طمعوا فيه، فسار حينئذ منكبرس عنهم خوفاً أن يثوروا به، وكفى الناس شرّه، وظهر من كان مستتراً (٥٤٣/١٠)

ذكر وفاة ملك الفرنج وما كان بين الفرنج وبين المسلمين

في ذي الحجّة من سنة إحدى عشرة وخمسمائة توفّي بغدوين ملك القدس، وكان قد سار إلى ديار مصر في جمع الفرنج، قاصداً ملكها والتغلّب عليها، وقوي طمعه في الديار المصريّة، وبلغ مقابل تنّيس، وسبح في النيل، فانتقض جرح كان به، فلمّا أحسّ بالموت عاد إلى القدس، فمات، ووصّى ببلاده للقمّص صاحب الرُّها، وهو الذي كان أسره جكرمش، وأطلقه جاولي سقاوو، واتّفق أنّ هذا القمّص كان قد سار إلى القدس وزور بيعة قُمامَة، فلمّا وصّى إليه بالملك قبله، واجتمع له القدس والرُّها.

وكان أتابك طغتكين قد سار عن دمشق لقتال الفرنج، فنزل بين دَيْر أيوب وكفر بَصَل بالبَرْموك، فخفيت عنه وفاة بغدوين، حتّى سمع الخبر بعد ثمانية عشر يوماً وبينهم نحو يومَيْن، فأتته رسل ملك الفرنج يطلب المهادنة، فاقترح عليه طغتكين ترك المناصفة التي بينهم من جبل عَوف، والحَنّانة، والصَّلْت، والغَور، فلم يجب

إلى ذلك، وأظهر القوّة، فسار طغتكين إلى طَبريّة فنهبها وما حولها، وسار منها نحو عَسْقَلان.

وكانت للمصريّين وبها عساكرهم، كانوا قد سيّروها لمّا عاد ملك القدس المتوفّي عن مصر، وكانوا سبعة آلاف فارس، فاجتمع بهم طغتكين، وأعلمه المقدّم عليهم أنّ صاحبهم تقدّم إليه بالوقوف عند رأي طغتكين، والتصرّف على ما يحكم به، فأقاموا بعَسْقَلان نحو شهرَيْن، ولم يؤثّروا في الفرنج أثراً، فعاد طغتكين إلى دمشق، فأتاه الصريخ بأنّ مائة وثلاثين فارساً من الفرنج أخذوا (٥٤٤/١٠)حصناً من أعماله يُعرف بالحبس، يُعرف بحصن جلدك، سلّمه إليهم المستحفظ به وقصدوا أذرعات فنهبوها، فأرسل إليهم تاج الملوك بوري بن طغتكين، فانحازوا عنه إلى جبل هناك، فنازلهم، فأتاه أبوه ونهاه عنهم، فلم يفعل، وطمع فيهم، فلمّا أيس الفرنج قاتلوا قتال مُستقتل، فنزلوا من الجبل وحملوا على المسلمين حملة صادقة هزموهم بها، وأسروا وقتلوا خلقاً كثيراً، وعاد الفلّ إلى دمشق على أسوإ حال.

فسار طغتكين إلى حلب، وبها إيلغازي، فاستنجده، وطلب منه التعاضد على الفرنج، فوعده بالمسير معه، فبينما هو بحلب أتاه الخبر بأن الفرنج قصدوا حَوْران من أعمال دمشق، فنهبوا وقتلوا وسبوا وعادوا، فاتّفق رأي طغتكين وإيلغازي على عود طغتكين إلى دمشق، وحماية بلاده، وعود إيلغازي إلى ماردين،وجَمْع العساكر، والاجتماع على حرب الفرنج، فصالح إيلغازي مَن يليه من الفرنج على ما تقدّم ذكره، وعبر إلى ماردين لجمع العساكر، وكان ما نذكره سنة ثلاث عشرة [وخمسمائة]، إن شاء اللّه تعالى.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة انقطع الغيث، وعُدمت الغلاّت في كثير من البلاد، وكان أشدّه بالعراق، فغلت الأسعار، واجلى أهل السواد، وتقوّت الناس بالنخالة، وعظم الأمر على أهل بغداد بما كان يفعله منكبرس بهم.

وفيها أسقط المسترشد باللّه من الإقطاع المختصّ به كلّ جَور، وأمر أن لا يؤخذ إلاّ ما جرت به العادة القديمة، وأطلق ضمان غزل الذهب، وكان (٥٤٥/١٠)صنّاع السَّقْلاطون، والممزّج، وغيرهم ممّن يعمل منه، يلقون شدّة من العمّال عليها، وأذى عظيماً.

وفيها تأخّر مسير الحُجّاج تأخّراً أُرجف بسببه بانقطاع الحجّ من العراق، فرتّب الخليفة الأمير نَظَر، خادم أمير الجيوش يُمن، وولاّه من أمر الحجّ ما كان يتولاّه أمير الجيوش، وأعطاه من المال ما يحتاج إليه في طريقه، وسيّره، فأدركوا الحجّ وظهرت كفاية نظر.

وفيها وصل مركبان كبيران فيهما قوّة ونجدة للفرنج بالشام، فغرقا، وكان الناس قد خافوا ممّن فيهما.

وفيها، وصل رسول إيلغازي، صاحب حلب وماردين، إلى بغداد يستنفر على الفرنج، ويذكر ما فعلوا بالمسلمين في الديار الجزريّة، وأنّهم ملكوا قلعة عند الرُّها، وقتلوا أميرها ابن عُطَيْر، فسُيّرت الكتب بذلك إلى السلطان محمود.

وفيها نُقل المستظهر إلى الرُّصافة، وجميع من كان مدفوناً بدار الخلافة، وفيهم جدّة المستظهر أُمّ المقتدي، وكانت وفاتها بعد المستظهر، ورأت البطن الرابع من أولادها.

وفيها كثر أمر العيّارين بالجانب الغربيّ من بغداد، فعبر إليهم نائب الشِّحنة في خمسين غلاماً أتراكاً، فقاتلهم، فانهزم منهم، ثم عبر إليهم من الغد في مائتَيْ غلام، فلم يظفر بهم، ونهب العيّارون يومئذ قُطْفُتا.

وفي هذه السنة، في شعبان، توفّي أبو الفضل بكر بن محمّد بن عليّ بن الفضل الأنصاريُّ من ولد جابر بن عبد اللّه، وهو من بلد بخارى، وكان من أعيان الفقهاء الحنفيّة، حافظاً للمذهب.

وتوفّي أبو طالب الحسين بن محمّد بن عليّ بن الحسن الزينبيُّ، نقيب النقباء ببغداد، في صفر، واستقال من النقابة، فوليها أخوه طِراد، وكان من أكابر (٥٤٦/١٠)الحنفيّة، وروي الحديث الكثير.

وفيها، في ذي الحجّة، توفّي أبو زكريّا يحيى بن عبد الوهّاب بن منده الأصبهانيُّ، المحدّث المشهور من بيت الحديث، وله فيه تصانيف حسنة.

وفيها توفّي أبو الفضل أحمد بن الخازن، وكان أديباً، ظريفاً، له شعر حسن، فمنه قوله، وقد قصد زيارة صديق له، فلم يره، فأدخله غلمانه إلى بستان في الدار، وحمّام، فقال في ذلك:

وافَيْتُ مَنزِلَهُ، فلم أرَ صاحباً ... إلاّ تلقّاني بوَجهٍ ضاحكِ
والبِشرُ في وَجهِ الغُلامِ نتيجةٌ ... لمُقَبَّلاتِ ضياء وجهِ المالكِ
ودخلتُ جنّتَهُ، وزُرت جحيمَهُ ... فشكرتُ رِضوانَاً ورافةَ مالكِ

(٥٤٧/١٠)

سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

ذكر عصيان الملك طغرل على أخيه السلطان محمود

كان الملك طغرل بن محمّد لمّا توفّي والده بقلعة سَرْجَهان، وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة في المحرّم، وأقطعه والده، سنة أربع، ساوَهْ وآوَهْ وزَنْجان، وجعل أتابكه الأمير شيركير الذي تقدّم ذكره في حصار قلاع الإسماعيليّة، فازداد مُلك طغرل بما فتحه

شيركير من قلاعهم، فأرسل إليه السلطان محمود الأمير كنتغدي ليكون أتابكاً له، ومدبّراً لأمره، ويحمله إليه، فلمّا وصل إليه حسّن له مخالفة أخيه، وترْك المجيء إليه، واتّفقا على ذلك.

وسمع السلطان محمود الخبر، فأرسل شرف الدين أنوشروان بن خالد، ومعه خِلَع وتحف وثلاثون ألف دينار، ووعد أخاه بإقطاع كثير، زيادة على ماله، إذا قصده، واجتمع به، فلم تقع الإجابة إلى الاجتماع، وأجاب كنتغدي، بأنّا في طاعة السلطان، وأيّ جهة أراد قصدناها، ومعنا من العساكر ما نقاوم بها من يرسم بقصده.

فبينما الخوض معهم في ذلك ركب السلطان محمود من باب همَذان في عشرة آلاف فارس، جريدة، في جمادى الأولى، وكتم مقصده، وعزم على أن يكبس أخاه، والأمير كنتغدي، فرأى أحد خواصّه تركيّاً من أصحاب الملك طغرل، فأعلم السلطان به، فقبض عليه، فعلم رفيق كان معه الحال، فسار عشرين (٥٤٨/١٠)فرسخاً في ليلة، ووصل إلى الأمير كنتغدي، وهو سكران، فأيقظه بعد جهد، وأعلمه الحال، فقصد الملك طغرل، فعرّفه ذلك، وأخذه متخفيّاً، وقصد قلعة سَمِيران، فضلاً عن الطريق إلى قلعة سَرْجَهان، وكانا قد فارقاها، وجمعا العساكر، وكان ضلالهما هداية لهما إلى السلامة، فإنّ السلطان محموداً جعل طريقه على سَمِيران، وقال: إنّها حصنهما الذي فيه الذخائر والأموال، وإذاعلما بوصوله إليهما سارا إليها، فربّما صادفهما في الطريق، فسلما منه بما ظنّاه عَطَباً لهما.

ووصل السلطان إلى العسكر، فكبسه، ونهبه، وأخذ من خزانة أخيه ثلاثمائة ألف دينار، وذلك المال الذي أنفذه له، وأقام السلطان محمود بزَنجَان، وتوجّه منها إلى الرَّيّ، ونزل طغرل من سَرجَهان، ولحق هو وكنتغدي بكَنْجَةَ وقصده أصحابه، فقويت شوكته، وتمكّنت الوحشة بينه وبين أخيه محمود.

ذكر الحرب بين سَنجَر والسلطان محمود

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، كانت حرب شديدة بين سَنجَر وابن أخيه السلطان محمود، ونحن نذكر سياقة ذلك:

قد ذكرنا سنة ثمان وخمسمائة مسير السلطان سنجَر إلى غَزْنَة، وفتحها وما كان منه فيها، ثم عاد عنها إلى خُراسان، فلمّا بلغه وفاة أخيه السلطان محمّد، وجلوس ولده السلطان محمود في السلطنة، وهو زوج ابنة سنجَر، لحقه حزن عظيم (٥٤٩/١٠) لموت أخيه، وأظهر من الجزع والحزن ما لم يُسمع بمثله، وجلس للعزاء على الرماد، وأغلق البلد سبعة أيّام، وتقدّم إلى الخطباء بذكر السلطان محمّد بمحاسن أعماله من قتال الباطنيّة، وإطلاق المكوس، وغير ذلك.

وكان سنجَر يلقّب بناصر الدين، فلمّا توفّي أخوه محمّد تلقّب بمعزّ الدين، وهو لقب أبيه ملكشاه، وعزم على قصد بلد الجبال والعراق وما بيد محمود ابن أخيه، فندم على قَتْل وزيره أبي جعفر محمّد بن فخر الملك أبي المظفّر ابن نظام الملك.

وكان سبب قتله أنّه وحّش الأمراء، واستخفّ بهم فأبغضوه وكرهوه، وشكوا منه إلى السلطان، وهو بغَزْنَة، فأعلمهم أنّه يؤثر قتله، وليس يمكنه فعل ذلك بغَزنة.

وكان سنجر قد تغيّر على وزيره لأسباب منها: أنّه أشار عليه بقصد غَزْنَة، فلمّا وصل إلى بُست أرسل أرسلانشاه صاحبها إلى الوزير، وضمن له خمسمائة ألف دينار ليَثْني سنجَر عن قصده، فأشار عليه بمصالحته والعود عنه، وفعل مثل ذلك بما وراء النهر؛ ومنها: أنّه نُقل عنه أنّه أخذ من غَزنة أموالاً جليلة عظيمة المَقدار؛ ومنها: ما ذكر من إيحاشه الأمراء وغير هذه الأسباب. فلمّا عاد إلى بَلْخ قبض عليه، وقتله وأخذ ماله، وكان له من الجواهر والأموال ما لا حدّ عليه، والذي وُجد له من العَين ألفا ألف دينار، فلمّا قتله استوزر بعده شهاب الإسلام عبد الرزّاق ابن أخي نظام الملك، ويُعرف بابن الفقيه، إلاّ أنّه لم تكن له منزلة ابن فخر الملك عند الناس في علوّ المنزلة، فلمّا اتّصل به وفاة أخيه ندم على قتله لأنّه كان يبلغ به من الأغراض والملك مالا يبلغه بكثرة العساكر لميل الناس إليه، ومحلّه عندهم.

ثم إنّ السلطان محموداً أرسل إلى عمّه سنجَر شرفَ الدين أنوشروان(٥٥٠/١٠) ابن خالد وفخر الدين طغايرك بن اليزن، ومعهما الهدايا والتُحف، وبذل له النزول عن مازَنْدران، وحَمْل مائتَيْ ألف دينار كلّ سنة، فوصلا إليه وأبلغاه الرسالة، فتجهّز ليسير إلى الرَّيّ، فأشار عليه شرف الدين أنوشروان بترك القتال والحرب، فكان جوابه في ذلك: أنّ ولد أخي صبيّ، وقد تحكّم عليه وزيره والحاجب عليّ.

فلمّا سمع السلطان محمود بمسير عمّه نحوه، ووصول الأمير أُنَر في مقدّمته إلى جُرجان، تقدّم إلى الأمير عليّ بن عمر، وهو أمير حاجب السلطان محمّد، وبعده صار أمير حاجب السلطان محمود، بالمسير، وضمّ إليه جمعاً كثيراً من العساكر والأمراء، فاجتمعوا في عشرة آلاف فارس، فساروا إلى أن قاربوا مقدّمة سنجَر التي عليها الأمير أُنَر، فراسله الأمير عليُّ بن عمر يعرّفه وصيّة السلطان محمّد بتعظيم سنجَر والرجوع إلى أمره ونهيه، والقبول منه، وأنّه ظنّ أنّ سنجَر يحفظ السلطنة على ولده السلطان محمود، وأخذ علينا بذلك العهود، فليس لنا أن نخالفه، وحيث جئتم إلى بلادنا لا نحتمل ذلك، ولا نغضي عليه، وقد علمتُ أنّ معك خمسة آلاف فارس، فأنا أرسل إليك أقلّ منهم لتعلم أنّكم لا

تقاومونا، ولا تقوون بنا.

فلمّا سمع الأمير أُنر ذلك عاد عن جُرْجان ولحقه بعض عسكر السُّلطان محمود، فأخذوا قطعة من سواده، وأسروا عدّة من أصحابه.

وكان السلطان محمود قد وصل إلى الريّ، وهو بها، وعاد الأمير عليُّ بن عمر إليه، فشكره على فعله، وأثنى عليه وعلى عسكره الذين معه. (٥٥١/١٠)

وأشير على السلطان محمود بملازمة الريّ، والمقام بها، وقيل: إنّ عساكر خُراسان إذا علموا بمقامك فيها لا يفارقون حدودهم، ولا يتعدّون ولا يتهم. فلم يقبل ذلك وضجر [من] المقام، وسار إلى جُرجَان.

ووصل السلطان محمود والأميرُ منكبرس من العراق في عشرة آلاف فارس، والأمير منصور بن صدقة أخو دُبَيْس، والأمراء البكجيّة، وغيرهم، وسار محمود إلى همَذان، وتوفّي بها وزيره الرئيب، واستوزر أبا طالب السميرميّ، وبلغه وصول عمّه سنجَر إلى الريّ، فسار نحوه قاصداً قتاله، فالتقيا بالقرب من ساوة ثاني جمادى الأولى من السنة، وكان عسكر السلطان محمود قد عرفوا المفازة التي بين يدَيْ عسكر سنجَر، وهي ثمانية أيّام، فسبقوهم إلى الماء وملكوه عليهم.

وكان العسكر الخراسانيُّ في عشرين ألفاً، ومعهم ثمانية عشر فيلاً اسم كبيرها باذهو، ومن الأمراء الكبار: ولد الأمير أبي الفضل، صاحب سِجستان، وخُوارزمشاه محمّد، والأمير أُنَر، والأمير قماج، واتّصل به علاء الدولة كرشاسيف بن فرامرز بن كاكَوَيْه، صاحب يزد، وهو صهر السلطان محمّد وسنجَر على أختهما، وكان أخصّ الناس بالسلطان محمّد، فلمّا تولّى السلطان محمود تأخّر عنه، فأقطع بلده لقراجة الساقي الذي صار صاحب بلاد فارس، فسار حينئذ علاء الدولة إلى سنجَر، وهو من ملوك الديلم، وعرّف سنجَر الأحوال، والطريق إلى قصد البلاد، وما فعله الأمراء من أخْذ الأموال، وما هم عليه من اختلاف الأهواء، وحسّن قصد البلاد.

وكان عسكر السلطان محمود ثلاثين ألفاً، ومن الأمراء الكبار: الأمير عليُّ ابن عمر، أمير حاجب، والأمير منكبرس، وأتابكه غزغلي، وبنو بُرسق، (٥٥٢/١٠)وسُنقر البخاريّ، وقراجة الساقي، ومعه تسعمائة جمل من السلاح.

واستهان عسكر محمود بعسكر عمه بكثرتهم وشجاعتهم، وكثرة خيلهم، فلمّا التقوا ضعفت نفوس الخراسانيّة لما رأوا لهذا العسكر من القوّة والكثرة، فانهزمت ميمنة سنجَر وميسرته، واختلط أصحابه، واضطرب أمرهم، وساروا منهزمين لا يلوون على شيء، ونُهب من أثقالهم شيء كثير، وقتل أهل السواد كثيراً منهم.

ووقف سنجَر بين الفيَلة في جمع من أصحابه، وبإزائه السلطان محمود، ومعه أتابكه غزغلي، فالْجأتْ سنجَرَ الضرورة، عند تعاظم الخطب عليه، أن يقدّم الفيَلة للحرب، وكان من بقي قد أشاروا عليه بالهزيمة، فقال: إمّا النصر أو القتل، وأمّا الهزيمة فلا. فلمّا تقدّمت الفيَلة، ورآها خيل محمود، تراجعت بأصحابها على أعقابها، فأشفق سنجَر على السلطان محمود في تلك الحال، وقال لأصحابه: لا تُفزِعوا الصبيَّ بحملات الفيَلة؛ فكفّوها عنهم، وانهزم السلطان محمود ومن معه في القلب، وأُسر أتابكه غزغلي، فكان يكاتبُ السلطانَ، ويعده أنّه يحمل إليه ابن أخيه، فعاتبه على ذلك، فاعتذر بالعجز، فقتله، وكان ظالماً قد بالغ في ظلم أهل همذان، فعجّل اللّه عقوبته.

ولمّا تمّ النصر والظفر للسلطان سنجَر أرسل من أعاد المنهزمين من أصحابه إليه، ووصل الخبر إلى بغداد في عشرة أيّام، فأرسل الأمير دُبَيْس بن صدقة إلى المسترشد باللّه في الخطبة للسلطان سنجَر، فخُطب له في السادس والعشرين من جُمادى الأولى، وقُطعت خطبة السلطان محمود.

وأمّا السلطان محمود فإنّه سار من الكسرة إلى أصبهان، ومعه وزيره أبو طالب السميرميُّ، والأمير عليُّ بن عمر، وقراجة.

وأمّا سنجَر فإنّه سار إلى همَذان، فرأى قلّة عسكره، واجتماع العساكر على ابن أخيه، فراسله في الصلح، وكانت والدته تشير عليه بذلك، (٥٥٣/١٠)وتقول: قد استوليتَ على غزنة وأعمالها، وما وراء النهر، وملكتَ ما لا حدّ عليه، وقرّرتَ الجميع على أصحابه، فاجعل ولد أخيك كأحدهم.

وكانت والدة سنجَر هي جدّة السلطان محمود، فأجاب إلى قولها، ثم كثرت العساكر عند سنجَر منهم البرسقيُّ، وكان عند الملك مسعود بأذربيجان من حين خروجه عن بغداد إلى هذه الغاية، فقوي بهم، فعاد الرسول وأبلغه عن الأمراء الذين مع السلطان محمود أنّهم لا يصالحونه حتّى يعود إلى خُراسان، فلم يجبْ إلى ذلك، وسار من همَذان إلى كَرَج، وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح، ووعده أن يجعله وليَّ عهده، فأجاب إلى ذلك، واستقرّ الأمر بينهما، وتحالفا عليه.

وسار السلطان محمود إلى عمّه سنجَر في شعبان، فنزل على جدته والدة سنجَر، وأكرمه عمّه، وبالغ في ذلك، وحمل له السلطان محمود هدية عظيمة، فقبلها ظاهراً، وردّها باطناً، ولم تُقبلْ منه سوى خمسة أفراس عربيّة، وكتب السلطان سنجَر إلى سائر الأعمال التي بيده كخُراسان وغَزنة، وما وراء النهر، وغيرها من الولايات، بأن يخطب للسلطان محمود بعده، وكتب إلى بغداد

مثل ذلك، وأعاد عليه جميع ما أخذ من البلاد سوى الرِّيّ، وقصد بأخذها أن تكون له في هذه الديار لئلاّ يحدّث السلطان محمود نفسه بالخروج.

ذكر غزاة إيلغازي بلاد الفرنج

في هذه السنة سار الفرنج من بلادهم إلى نواحي حلب، فملكوا بُزاعة وغيرها، وخربوا بلد حلب ونازلوها، ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً، وخافهم أهلها خوفاً شديداً، ولو مُكّنوا من القتال لم يبق بها (٥٥٤/١٠)أحد، لكنّهم مُنعوا من ذلك؛ وصانَعَ الفرنج أهل حلب على أن يقاسموهم على أملاكهم التي بباب حلب، فأرسل أهل البلد إلى بغداد يستغيثون، ويطلبون النجدة، فلم يُغاثوا.

وكان الأمير إيلغازي، صاحب حلب، ببلد ماردين يجمع العساكر والمتطوّعة للغزاة، فاجتمع عليه نحو عشرين ألفاً، وكان معه أُسامة بن المبارك ابن شبل الكلابيّ، والأمير طغان أرسلان بن المكر، صاحب بَدْليس وأرْزَن، وسار بهم إلى الشام، عازماً على قتال الفرنج.

فلمّا علم الفرنج قوّة عزمهم على لقائهم، وكانوا ثلاثة آلاف فارس، وتسعة آلاف راجل، ساروا فنزلوا قريباً من الأثارب، بموضع يقال له تَلّ عِفْرينَ، بين جبال ليس لها طريقٌ إلاّ من ثلاث جهات، وفي هذا الموضع قُتل شرف الدولة مُسلّم بن قريش.

وظنّ الفرنج أنّ أحداً لا يسلك إليهم لضيق الطريق، فأخلدوا إلى المطاولة، وكانت عادة لهم، إذا رأوا قوّة من المسلمين؛ وراسلوا إيلغازي يقولون له: لا تُتعبْ نفسك بالمسير إلينا، فنحن واصلون إليك؛ فأعلم أصحابه بما قالوه، واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا بالركوب من وقته، وقصْدهم، ففعل ذلك، وسار إليهم، ودخل الناس من الطرق الثلاثة، ولم تعتقد الفرنج أنّ أحداً يقدم عليهم، لصعوبة المسلك إليهم، فلم يشعروا إلاّ وأوائل المسلمين قد غشيتهم، فحمل الفرنج حملة منكرة، فولّوا منهزمين، فلقوا باقي العسكر متتابعة، فعادوا معهم، وجرى بينهم حرب شديدة، وأحاطوا بالفرنج من جميع جهاتهم، وأخذهم السيف من سائر نواحيهم، فلم يفلتْ منهم غير نفر (٥٥٥/١٠)يسير، وقُتل الجميع، وأُسروا.

وكان في جملة الأسرى نيّف وسبعون فارساً من مقدّميهم، وحُملوا إلى حلب، فبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار، فلم يُقبلْ منهم، وغنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة.

وأمّا سيرجال، صاحب أنطاكية، فإنّه قُتل وحُمل رأسه، وكانت الوقعة منتصف شهر ربيع الأوّل، فممّا مُدح به إيلغازي في هذه الوقعة قول العظيميّ:

قُلْ ما تشاء، فقولُك المقبولُ ... وعليكَ بَعد الخالقِ التّعويلُ
واستَبْشِر القرآنُ حينَ نصرتَهُ، ... وبكى لفقدِ رجالِهِ الإنجيلُ

ثم تجمّع من سلم من المعركة مع غيرهم، فلقيهم إيلغازي أيضاً، فهزمهم، وفتح منهم حصن الأثارب، وزَرْدَنا، وعاد إلى حلب، وقرّر أمرها، وأصلح حالها، ثم عبر الفرات إلى ماردين.

ذكر وقعة أخرى مع الفرنج

في هذه السنة سار جوسلين، صاحب تلّ باشِر، في جمع من الفرنج نحو مائتَيْ فارس، من طَبَريّة، فكبس طائفة من طي يُعرفون ببني خالد، (٥٥٦/١٠)فأخذهم، وأخذ غنائمهم، وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعة، فأخبروه أنّهم من وراء الحزن، بوادي السلالة، بين دمشق وطَبَريّة، فقدم جوسلين مائة وخمسين فارساً من أصحابه، وسار هو في خمسين فارساً على طريق آخر، وواعدهم الصبح ليكبسوا بني ربيعة، فوصلهم الخبر بذلك، فأرادوا الرحيل، فمنعهم أميرهم من بني ربيعة، وكانوا في مائة وخمسين فارساً، فوصلهم المائة وخمسون من الفرنج، معتقدين أنّ جوسلين قد سبقهم، أو سيدركهم، فضلّ الطريق، وتساوت العدّتان، فاقتتلوا، وطعنت العرب خيولهم، فجعلوا أكثرهم رجّالة، وظهر من أميرهم شجاعة، وحُسن تدبير، وجودة رأي، فقُتل من الفرنج سبعون، وأسر اثنا عشر من مقدّميهم، بذل كلّ واحدٍ [منهم] في فداء نفسه مالاً جزيلاً وعدّة من الأسرى.

وأمّا جوسلين فإنّه ضلّ في الطريق، وبلغه خبر الوقعة، فسار إلى طرابلس، فجمع بها جمعاً، وأسْرَى إلى عَسْقَلان، فأغار على بلدها، فهزمه المسلمون هناك فعاد مفلولاً.

ذكر قتل منكوبرس

في هذه السنة قُتل الأمير منكوبرس الذي كان شِحنة بغداد، وقد تقدّم حاله.

وكان سبب قتله: أنّه لمّا انهزم مع السلطان محمود وعاد إلى بغداد، نهب عدّة مواضع من طريق خراسان، وأراد دخول بغداد، فسيّر إليه دُبَيْس ابن صدقة مَنْ منعه، فعاد وقد استقرّ الصلح بين السلطانين سنجَر ومحمود، (٥٥٧/١٠)فقصد السلطان سنجَر، فدخل إليه ومعه سيف وكفن، فقال له: أنا لا أُؤاخذ أحداً؛ وسلّمه إلى السلطان محمود، وقال: هذا مملوكك، فاصنَعْ به ما تريد! فأخذه.

وكان في نفسه منه غيظٌ شديد لأسباب منها: أنّه لمّا توفّي السلطان محمّد أخذ سريّته، والدة الملك مسعود، قهراً، قبل انقضاء عِدّتها؛ ومنها: جُرأته عليه، واستبداده بالأمور دونه، ومسيره إلى

شحنكيّة بغداد، والسلطان كارهٌ لذلك لكنّه لم يقدر على منعه؛ ومنها: ما فعله بالعراق من الظلم، إلى غير ذلك، فقتله صبراً، وأراح العباد والبلاد من شرّه.

ذكر قتل الأمير عليّ بن عمر

في هذه السنة أيضاً قُتل عليُّ بن عُمر، حاجب السلطان محمّد، وكان قد صار أكبر أمير مع السلطان محمود، وانقادت العساكر له، فحسده الأمراء، وأفسدوا حاله مع السلطان محمود، وحسّنوا له قتله، فعلم، فهرب إلى قلعة برجين، وهي بين بَرُوجِرْدَ وكَرَج، وكان بها أهله وماله، وسار منها في ماتتَيْ فارس إلى خُوزستان، وكانت بيد أقبوري بن برسق، وابني أخويه: أرُغْلي بن يَلْبكي، وهنْدُو بن زنكي، فأرسل إليهم وأخذ عهودهم بأمانه وحمايته.

فلمّا سار إليهم أرسلوا عسكراً منعوه من قصدهم، فلقُوه على ستّة فراسخ من تُسْتَر، فاقتتلوا، فانهزم هو وأصحابه، فوقف به فرسه، فانتقل إلى غيره، فتشبّث ذيله بسرجه الأوّل، فأزاله، فعاود التعلّق، فأبطأ، فأدركوه وأسروه، وكاتبوا السلطانَ محموداً في أمره، فأمرهم بقتله، فقُتل وحُمل رأسه إليه. (٥٥٨/١٠)

ذكر الفتنة بين المرابطين وأهل قرطبة

في هذه السنة، وقيل سنة أربع عشرة [وخمسمائة]، كانت فتنة بين عسكر أمير المسلمين عليّ بن يوسف وبين أهل قُرطُبة.

وسببها: أنّ أمير المسلمين استعمل عليها أبا بكر يحيى بن روّاد، فلمّا كان يوم الأضحى خرج الناس متفرّجين، فمدّ عبدٌ من عبيد أبي بكر يده إلى امرأة فأمسكها، فاستغاثت بالمسلمين، فأغاثوها، فوقع بين العبيد وأهل البلد فتنة عظيمة، ودامت جميع النهار، والحرب بينهم قائمة على ساق، فأدركهم الليل، فتفرّقوا، فوصل الخبر إلى الأمير أبي بكر، فاجتمع إليه الفقهاء والأعيان، فقالوا: المصلحة أن تقتل واحداً من العبيد الذين أثاروا الفتنة؛ فأنكر ذلك، وغضب منه، وأصبح من الغد، وأظهر السلاح والعدد يريد قتال أهل البلد، فركب الفقهاء والأعيان والشُّبّان من أهل البلد، وقاتلوه فهزموه، وتحصّن بالقصر، فحصروه، وتسلّقوا إليه، فهرب منهم بعد مشقّة وتعب، فنهبوا القصر، وأحرقوا جميع دور المرابطين، ونهبوا أموالهم، وأخرجوهم من البلد على أقبح صورة.

واتّصل الخبر بأمير المسلمين فكره ذلك واستعظمه، وجمع العساكر من صنهاجة، وزَنَاتة، والبربر، وغيرهم، فاجتمع له منهم جمع عظيم، فعبر إليهم سنة خمس عشرة وخمسمائة، وحصر مدينة قُرطُبة، فقاتله أهلها قتال من يريد [أن] يحمي دمه وحريمه وماله، فلمّا رأى أمير المسلمين شدّة قتالهم دخل السُّفراء بينهم، وسعوا في الصلح، فأجابهم إلى ذلك على أن يُغَرِّمَ أهلَ قرطبةَ المرابطين ما نهبوه من أموالهم، واستقرّت القاعدة على ذلك، وعاد عن قتالهم. (٥٥٩/١٠)

ذكر ملك عليّ بن سكْمان البصرة

في هذه السنة استولى عليّ بن سُكْمان على البصرة.

وسبب ذلك: أنّ السلطان محمّداً كان قد أقطع البصرة الأمير آقسنقَر البخاريَّ، فاستخلف بها نائباً يُعرف بسُنقر البياتيّ، فأحسن السيرة إلى حدّ أنّ الماء بالبصرة مِلْح، فأقام سفناً وجراراً للضعفاء والسابلة، تحمل لهم الماء العذب، فلمّا توفّي السلطان محمّد عزم هذا الأمير سُنقر على القبض على أمير اسمه غزغلي، مقدّم الأتراك الإسماعيليّة، وهو مذكور، وحجّ بالناس على البصرة عدّة سنين، وعلى أمير آخر اسمه سُنقر ألب، وهو مقدّم الأتراك البُلدقيّة، فاجتمعا عليه، وقبضاه وقيّداه، وأخذا القلعة وما وجداه له.

ثمّ إنّ سُنقر ألب أراد قتله، فمنعه غزغلي، فلم يقبَلْ منه، فلمّا قتله وثب غزغلي على سُنقر ألب فقتله، ونادى في الناس بالسكون، واطمأنّوا.

وكان أمير الحاجّ من البصرة هذه السنة؛ أمير اسمه عليّ بن سكمان أحد الأمراء البلدقيّة، وكان في نفس غزغلي عليه حقد، حيث تمّ الحجّ على يده، ولأنّه خاف أن يأخذ بثأر سُنقر ألب، إذ هو مقدّم البلدقيّة، فأرسل غزغلي إلى عرب البرّية يأمرهم بقصد الحُجّاج ونَهْبهم، فطمعوا بذلك، وقصدوا الحُجّاج فقاتلوهم، وحماهم ابن سكمان، وأبلى بلاءً حسناً، وجعل يقاتلهم وهو سائر نحو البصرة إلى أن بقي بينه وبين البصرة يومان، فأرسل إليه غزغلي يمنعه من قصد البصرة، فقصد العوني، أسفلَ دجلة، هذا والعرب يقاتلونه، فلمّا وصل إلى العوني حمل على العرب حملة صادقة، فهزمهم.

وسار غزغلي إلى عليّ بن سكمان في عدد كثير، وكان عليّ في قلّة، (٥٦٠/١٠)فتحاربا، واقتتلت الطائفتان، فأصابت فرس غزغلي نشّابة فسقط وقُتل، وسار عليّ إلى البصرة فدخلها، وملك القلعة، وأقرّ عمّال آقسنقَر البخاريّ ونوّابه، وكاتَبَهُ بالطاعة، وكان عند السلطان، وسأله أن يكون نائباً عنه بالبصرة، فلم يجبه آقسنقَر إلى ذلك، فطرد حينئذ نوّاب آقسنقر، واستولى على البلد، وتصرّف تصرُّف الأصحاب، مستبدّاً، واستقرّ فيه، وأحسن السيرة إلى سنة أربع عشرة [وخمسمائة] ، فسيّر السلطان محمود الأمير آقسنقَر البخاريَّ في عسكر إلى البصرة، فأخذها من عليّ بن سكمان.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أمر السلطان سنجَر بإعادة مجاهد الدين بهروز شِحنكيّة العراق، وكان بها نائب دُبَيْس بن صدقة، فعُزل عنها.

وفيها، في ربيع الأوّل، توفّي الوزير ربيب الدولة، وزير السلطان محمود، ووزر بعده الكمال السُّميريُّ، وكان ولد ربيب الدولة، وزير المسترشد، فعُزل، واستُعمل بعده عميد الدولة أبو عليّ بن صدقة، ولُقّب جلال الدين، وهذا الوزير، وهو عمّ الوزير جلال الدين أبي الرضا صدقة، الذي وزر للراشد، والأتابك زنكي على ما نذكره.

وفيها ظهر قبر إبراهيم الخليل، وقبرا ولدَيْه إسحاق ويعقوب، عليهم السلام، بالقرب من البيت المقدّس، ورآهم كثير من الناس لم تبْلَ أجسادهم، وعندهم في المغارة قناديل من ذهب وفضّة، هكذا ذكره حمزة بن أسد التميميُّ في تاريخه، واللّه أعلم. (٥٦١/١٠)

وفيها، في المحرّم، توفّي قاضي القضاة أبو الحسن عليُّ بن محمّد الدامغانيُّ، ومولده في رجب سنة تسع وأربعين وأربعمائة، ووليَ القضاء بباب الطاق من بغداد إلى الموصل وله من العمر ستّ وعشرون سنة، وهذا شيء لم يكن لغيره، ولمّا توفّي وليَ قضاء القضاة الأكمل أبو القاسم عليُّ بن أبي طالب الحسين بن محمّد الزينبيّ، وخُلع عليه ثالث صفر.

وفيها هُدم تاج الخليفة على دجلة للخوف من انهدامه، وهذا التاج بناه أمير المؤمنين المكتفي بعد سنة تسعين ومائتين.

وفيها تأخّر الحجّ، فاستغاث الناس، وأرادوا كسر المِنبر بجامع القصر، فأرسل الخليفة إلى دُبَيْس بن صدقة ليساعد الأمير نظر على تسيير الحُجّاج، فأجاب إلى ذلك، وكان خروجهم من بغداد ثاني عشر ذي القعدة، وتوالت عليهم الأمطار إلى الكوفة.

وفيها أرسل دُبَيْس بن صدقة القاضي أبا جعفر عبد الواحد بن أحمد الثقفيّ، قاضي الكوفة، إلى إيلغازي بن أُرتُق بماردين، يخطب ابنته، فزوّجها منه إيلغازي، وحملها الثقفيّ معه إلى الحِلّة، واجتاز بالموصل.

وفيها، في جُمادى الأولى، توفّي أبو الوفا عليُّ بن عُقيل بن محمّد بن عُقيل، شيخ الحنابلة، في وقته، ببغداد، وكان حسن المناظرة، سريع الخاطر، وكان قد اشتغل بمذهب المعتزلة في حداثته على أبي الوليد، فأراد الحنابلة قتله، فاستجار بباب المراتب عدّة سنين، ثم أظهر التوبة حتّى تمكّن من الظهور، وله مصنّفات من جملتها كتاب الفنون. (٥٦٢/١٠)

سنة أربع عشرة وخمسمائة

ذكر عصيان الملك مسعود على أخيه السلطان محمود والحرب بينهما

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، كان المضافّ بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود، ومسعود حينئذ له الموصل وأذربيجان.

وكان سبب ذلك أنّ دُبَيْس بن صدقة كان يكاتب جيوش بك أتابك مسعود، يحثّه على طلب السلطنة للملك مسعود، ويعده المساعدة، وكان غرضه أن يختلفوا فينال من الجاه وعلوّ المنزلة ما ناله أبوه باختلاف السُّلطانين بركيارُق ومحمّد ابنَيْ ملكشاه على ما ذكرناه.

وكان قسيم الدولة البرسقيُّ، أتابك الملك مسعود، قد فارق شحنكيّة بغداد، وقد أقطعه مسعود مَراغة، مضافةً إلى الرُّحبة، وبينه وبين دُبَيْس عداوة محكمة، فكاتب دُبَيْس جيوش بك يشير عليه بقبض البرسقيّ، وينسبه إلى الميل إلى السلطان محمود، ويبذل له مالاً كثيراً على قبضه، فعلم البرسقيُّ ذلك، ففارقهم إلى السلطان محمود، فأكرمه وأعلى محلّه وزاد في تقديمه.

واتّصل الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن عليّ الأصبهانيّ الطُّغرائي بالملك مسعود، (٥٦٣/١٠)فكان ولده أبو المؤيّد، محمّد بن أبي إسماعيل، يكتب الطُّغراء مع الملك، فلمّا وصل والده استوزره مسعود، بعد أن عزل أبا عليّ بن عمّار، صاحب طرابلس، سنة ثلاث عشرة [وخمسمائة] بباب خُوَيّ، فحسّن ما كان دُبَيْس يكاتب به من مخالفة السلطان محمود والخروج عن طاعته.

وظهر ما هم عليه من ذلك، فبلغ السلطان محموداً الخبر، فكتب إليهم يخوّفهم إن خالفوه، ويعدهم الإحسان إن أقاموا على طاعته وموافقته، فلم يصغوا إلى قوله، وأظهروا ما كانوا عليه، وما يُسرّونه، وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة، وضربوا له النُّوَب الخمس، وكان ذلك على تفرّق من عساكر السلطان محمود، فقوي طمعهم، وأسرعوا السير إليه ليلقوه وهو مُخفّف من العساكر، فاجتمع إليه خمسة عشر ألفاً، فسار أيضاً إليهم، فالتقوا عند عقَبة أسَداباذ، منتصف ربيع الأوّل، واقتتلوا من بُكرة إلى آخر النهار.

وكان البرسقيّ في مقدّمة السلطان محمود، وأبلى يومئذ بلاء حسناً، فانهزم عسكر الملك مسعود، آخر النهار، وأُسر منهم جماعة كثيرة من أعيانهم ومقدّميهم، وأُسر الأستاذ أبو إسماعيل وزير مسعود، فأمر السلطان بقتله، وقال: قد ثبت عندي فساد دينه واعتقاده؛ فكانت وزارته سنةً وشهراً، وقد جاوز ستّين سنة، وكان حسن الكتابة والشعر، يميل إلى صنعة الكيمياء، وله فيها تصانيف

قد ضيّعت من الناس أموالاً لا تُحصى.

وأمّا الملك مسعود فإنّه لمّا انهزم أصحابه وتفرّقوا قصد جبلاً بينه وبين الوقعة اثنا عشر فرسخاً، فاختفى فيه ومعه غلمان صغار فأرسل ركابيّه عثمان إلى أخيه يطلب له الأمان، فسار إلى السلطان محمود وأعلمه حال أخيه مسعود، (٥٦٤/١٠)فرقّ له، وبذل له الأمان، وأمر آقسنقَر البرسقيّ بالمسير إليه، وتطييب قلبه، وإعلامه بعفوه عنه، وإحضاره؛ فكان مسعود بعد أن أرسل يطلب الأمان قد وصل بعض الأمراء إليه، وحسّن له اللحاق بالموصل، وكانت له، ومعها أذربيجان، وأشار عليه بمكاتبة دُبَيْس بن صدقة ليجتمع به، ويكثر جمعه، ويعاود طلب السلطنة، فسار معه من مكانه.

ووصل البرسقيّ فلم يره، فأخبر بمسيره، فسار في أثره، وعزم على طلبه ولو إلى الموصل، وجدّ في السير، فأدركه على ثلاثين فرسخاً من مكانه ذلك، وعرّفه عفو أخيه عنه، وضمن له ما أراد، وأعاده إلى العسكر، فأمر السلطان محمود العساكر باستقباله وتعظيمه، ففعلوا ذلك، وأمر السلطان أن ينزل عند والدته، وجلس له، وأحضره، واعتنقا، وبكيا، وانعطف عليه محمود، ووفى له بما بذله، وخلطه بنفسه في كلّ أفعاله، فعُدّ ذلك من مكارم محمود، وكانت الخطبة بالسلطنة لمسعود بأذربيجان، وبلد الموصل، والجزيرة، ثمانية وعشرين يوماً.

وأمّا أتابكه جيوش بك فإنّه سار إلى عقبة أسادَاباذ، وانتظر الملك مسعوداً، فلم يره، وانتظره بمكان آخر، فلم يصل إليه، فلمّا أيس منه سار إلى الموصل، ونزل بظاهرها، وجمع الغلاّت من السواد إليها، واجتمع إليه عسكره، فلمّا سمع بما فعله السلطان مع أخيه، وأنّه عنده، علم أنّه لا مقام له على هذه الحال، فسار كأنّه يريد الصيد، فوصل إلى الزاب، وقال لمن معه: إنّني قد عزمتُ على قصد السلطان محمود، وأُخاطِر بنفسي؛ فسار إليه، فوصل وهو بهمَذان، ودخل إليه، فطيّب قلبه وأمّنه، وأحسن إليه.

وأمّا دُبَيْس فإنّه كان بالعراق، فلمّا بلغه خبر انهزام الملك مسعود (٥٦٥/١٠)نهب البلاد وخرّبها، وفعل فيها الأفاعيل القبيحة، إلى أن أتاه رسول السلطان محمود، وطيّب قلبه، فلم يلتفت.

ذكر حال دُبَيْس وما كان منه

لمّا كان منه ببغداد وسوادها من النهب والقتل والفساد مالم يجر مثله، أرسل إليه الخليفة المسترشد باللّه رسالة ينكر عليه، ويأمره بالكفّ، فلم يفعل، فأرسل إليه السلطان وطيّب قلبه، وأمره بمنع أصحابه عن الفساد، فلم يقبل، وسار بنفسه إلى بغداد، وضرب سرادقه بإزاء دار الخلافة، وأظهر الضغائن التي في نفسه، وكيف طيف برأس أبيه، وتهدّد الخليفة، وقال: إنّك أرسلتَ تستدعي السلطان، فإن أعدتموه، وإلاّ فعلتُ وصنعتُ، فأُعيد جواب رسالته: أنّ عَوْدَ السلطان، وقد سار عن همَذان، غير ممكن، ولكنّا نُصلح حالك معه.

وكان الرسول شيخ الشيوخ إسماعيل، فكفّ على أن تسيّر الرسل في الاتّفاق بينه وبين السلطان، وعاد عن بغداد في رجب.

ووصل السلطان في رجب إلى بغداد، فأرسل دُبَيْس زوجته ابنة عميد الدولة بن جُهير إليه، ومعها مال كثير، وهدية نفيسة، وسأل الصفح عنه، فأجيب إلى ذلك على قاعدة امتنع منها، ولزم لجاجه، ونهب جشيراً للسلطان. فسار السلطان عن بغداد، في شوّال، إلى قصد دُبيس بالحِلّة، واستصحب ألف سفينة ليعبر فيها، فلمّا علم دُبَيْس مسير السلطان أرسل يطلب الأمان، فأمّنه، وكان قصده أن يغالطه ليتجهّز، فأرسل نساءه إلى البطيحة، وأخذ أمواله وسار عن الحلّة، بعد أن نهبها، إلى إيلغازي ملتجئاً إليه، ووصل السلطان إلى الحِلّة، فلم يرَ أحداً، فبات بها ليلة واحدة وعاد. (٥٦٦/١٠)

وأقام دُبَيْس عند إيلغَازي، وتردّد معه، ثم إنّه أرسل أخاه منصوراً في جيش من قلعة جَعْبَر إلى العراق، فنظر الحِلّة، والكوفة، وانحدر إلى البَصرة، وأرسل إلى يرنقش الزكويّ يسأله أن يُصلح حاله مع السلطان، فلم يتمّ أمره، فأرسل إلى أخيه دُبَيْس يعرّفه ذلك، ويدعوه إلى العراق، فسار من قلعة جَعْبَر إلى الحِلّة سنة خمس عشرة [وخمسمائة]، فدخلها وملكها، وأرسل إلى الخليفة والسلطان يعتذر، ويعد من نفسه الطاعة، فلم يُجَبْ إلى ذلك.

وسُيّرت إليه العساكر، فلمّا قاربوه فارق الحِلّة، ودخل إلى الأزلر(!)، وهو نهر سِنْداد، ووصل العسكر إليها وهي فارغة قد أُجلي أهلها عنها، وليس بها إقامة، فكانت المِيرة تُنقل من بغداد، وكان مقدّم العسكر سعد الدولة برنقش الزكويّ، فترك بالحِلّة خمسمائة فارس، وبالكوفة جماعة أخرى تحفظ الطريق على دُبَيْس، وأرسل إلى عسكر واسط يحفظ طريق البطيحة، ففعلوا ذلك، وعبر عسكر السلطان إلى دُبَيْس، فبقي بين الطائفتَيْن نهر يخاض فيه مواضع، فتراسل يرنقش ودُبَيْس، واتّفقا على أن يرسل دُبَيْس أخاه منصوراً رهينةً، ويلازم الطاعة، ففعل، وعاد العسكر إلى بغداد سنة ست عشرة [وخمسمائة]. (٥٦٧/١٠)

ذكر خروج الكُرْج إلى بلاد الإسلام وملك تِفليس

في هذه السنة خرج الكُرج، وهم الخَزَر، إلى بلاد الإسلام، وكانوا قديماً يغيرون، فامتنعوا أيّام السلطان ملكشاه إلى آخر أيّام السلطان محمّد، فلمّا كانت هذه السنة خرجوا ومعهم قفجاق وغيرهم من الأمم المجاورة لهم، فتكاتب الأمراء المجاورون لبلادهم، واجتمعوا، منهم: الأمير إيلغازي، ودُبَيْس بن صدقة، وكان عنده، والملك طغرل بن محمّد، وأتابكه كتغدي، وكان لطغرل بلد

أرّان، ونَقْجُوَانَ إلى أرّس، فاجتمعوا وساروا إلى الكُرج، فلمّا قاربوا تِفليسَ، وكان المسلمون في عسكر كثير يبلغون [ثلاثين] ألفاً، التقوا واصطفّت الطائفتان للقتال، فخرج من القفجاق مائتا رجل، فظنّ المسلمون أنّهم مستأمنون، فلم يحترزوا منهم، ودخلوا بينهم، ورمَوْا بالنشّاب، فاضطرب صفّ المسلمين، فظنّ مَن بَعُد أنّها هزيمة، فانهزموا، وتبع الناس بعضهم بعضاً منهزمين، ولشدّة الزحام صدم بعضهم بعضاً، فقُتل منهم عالم عظيم.

وتبعهم الكفّار عشرة فراسخ يقتلون ويأسرون،فقُتل أكثرهم، وأسروا أربعة آلاف رجل، ونجا الملك طغرل، وإيلغازي، ودُبَيْس، وعاد الكُرج فنهبوا بلاد الإسلام، وحصروا مدينة تِفليس، واشتدّ قتالهم لمن بها، وعظم الأمر، وتفاقم الخطب على أهلها، ودام الحصار إلى سنة خمس عشرة [وخمسمائة] فملكوها عنوة.

وكان أهلها لمّا أشرفوا على الهلاك قد أرسلوا قاضيها وخطيبها إلى الكُرج في (٥٦٨/١٠)طلب الأمان، فلم تُصْغِ الكُرج إليهما فأخرقوا بهما، ودخلوا البلد قهراً وغلبةً، واستباحوه، ونهبوه، ووصل المستنفرون منهم إلى بغداد متصرخين ومستنصرين سنة ستّ عشرة [وخمسمائة] ، فبلغهم أنّ السلطان محمود بهمَذان، فقصدوه واستغاثوه به، فسار إلى أذربيجان، وأقام بمدينة تِبريز شهر رمضان، وأنفذ عسكراً إلى الكُرج، وسيرد ذكر ما كان منهم، إن شاء اللّه تعالى.

ذكر غزوات إيلغازي هذه السنة

في هذه السنة أرسل المسترشد باللّه خِلعاً مع سديد الدولة بن الأنباريّ لنجم الدين إيلغازي، وشكره على ما يفعله من غزو الفرنج، ويأمره بإبعاد دُبَيس عنه، وسار أبو عليّ بن عمّار الذي كان صاحب طرابلس، مع ابن الأنباريّ إلى إيلغازي ليقيم عنده، يعبر الأوقات بما ينعم به عليه، فاعتذر عن إبعاد دُبَيْس، ووعد به، ثم سار إلى الفرنج، وكان قد جمع لهم جمعاً، فالتقوا بموضع اسمه ذات البقل من أعمال حلب، فاقتتلوا، واشتدّ القتال، وكان الظفر له.

ثم اجتمع إيلغازي وأتابك طغتكين، صاحب دمشق، وحصروا الفرنج في مَعَرّة قِنّسْرِين يوماً وليلةً، ثم أشار أتابك طغتكين بالإفراج عنهم، كيلا يحملهم الخوف على أن يستقتلوا ويخرجوا إلى المسلمين، فربّما ظفروا؛ (٥٦٩/١٠)وكان أكثر خوفه من دبر خيل التركمان، وجودة خيل الفرنج، فأفرج لهم إيلغازي، فساروا عن مكانهم وتخلّصوا؛ وكان إيلغازي لا يطيل المقام في بلد الفرنج لأنّه كان يجمع التركمان للطمع، فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق، وشاة، ويَعُدّ الساعات لغنيمة يتعجّلها، ويعود، فإذا طال مقامهم تفرّقوا، ولم يكن له من الأموال ما يفرّقها فيهم.

ذكر ابتداء أمر محمّد بن تُومَرت وعند المؤمن وملكهما

في هذه السنة كان ابتداء أمر المهدي أبي عبد اللّه محمّد بن عبد اللّه بن تُومَرت العلويّ، الحسنيّ، وقبيلته من المصامدة، تُعرف بهَرغة في جبل السُّوس، من بلاد التغرب، نزلوا به لمّا فتحه المسلمون مع موسى بن نُصير، ونذكر أمره وأمر عبد المؤمن هذه السنة إلى أن فرغ من ملك المغرب لتتبع بعض الحادثة بعضاً.

وكان ابن تُومَرت قد رحل في شبيبته إلى بلاد الشرق في طلب العلم، وكان فقيهاً، فاضلاً، عالماً بالشريعة، حافظاً للحديث، عارفاً بأصولَي الدين والفِقه، متحقّقاً بعلم العربيّة، وكان ورعاً، ناسكاً، ووصل في سفره إلى العراق، واجتمع بالغزاليّ، والكيا، واجتمع بأبي بكر الطُّرطوشيّ بالإسكندريّة، وقيل إنّه جرى له حديث مع الغزاليّ فيما فعله بالمغرب من التملّك، فقال له الغزاليّ: إنّ هذا لا يتمشّى في هذه البلاد، ولا يمكن وقوعه لأمثالنا.

كذا قال بعض مؤرّخي المغرب، والصحيح أنّه لم يجتمع به، فحجّ من هناك (٥٧٠/١٠) وعاد إلى المغرب، ولمّا ركب البحر من الإسكندريّة، مغرباً، غيّر المنكر في المركب، وألزم مَن به بإقامة الصلاة، وقراءة القرآن، حتّى انتهى إلى المَهديّة، وسلطانها حينئذ يحيى بن تميم، سنة خمس وخمسمائة، فنزل بمسجد قبليّ مسجد السبت، وليس له سوى زَكوة، وعصاً، وتسامع به أهل البلد، فقصدوه يقرؤون عليه أنواع العلوم، وكان إذا مرّ به منكرٌ غيّره وأزاله، فلمّا كثر ذلك منه أحضره الأمير يحيى مع جماعة من الفقهاء، فلمّا رآى سمتَهُ وسمع كلامه أكرمه واحترمه،وسأله الدعاء.

ورحل عن المدينة وأقام بالمُنستير مع جماعة من الصالحين، مدّةً، وسار إلى بجَايَةَ ففعل فيها مثل ذلك، فأُخرج منها إلى قَرية بالقرب منها اسمها مَلاّلَةُ، فلقيه بها عبد المؤمن بن عليّ، فرأى فيه من النجابة والنهضة ما تفرّس فيه التقدّم، والقيام بالأمر، فسأله عن اسمه وقبيلته، فأخبره أنّه من قيس عيلان، ثم من بني سُلَيْم، فقال ابن تُومَرت: هذا الذي بشّر به النبيﷺ حين قال: إنّ اللّه ينصر هذا الدين، في آخر الزمان، برجل من قيس، فقيل: من أيّ قيس؟ فقال: من بني سُليم. فاستبشر بعبد المؤمن وسُرّ بلقائه؛ وكان مولد عبد المؤمن في مدينة تَاجَرَة، من أعمال تِلِمْسَان، وهو من عائذ، قبيل من كومرة، نزلوا بذلك الإقليم ستة ثمانين ومائة.

ولم يزل المهدي ملازماً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في طريقه إلى أن وصل إلى مرّاكُش دار مملكة أمير المسلمين يوسف بن عليّ بن تاشفين، فرأى فيها من المنكَرات أكثر ممّا عاينه في طريقه، فزاد في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فكثر أتباعه، وحسنت ظنون الناس فيه، فبينما هو في بعض الأيّام في طريقه، إذ رأى أخت أمير المسلمين في موكبها، ومعها من الجواري

(٥٧١/١٠)الحسان عدّة كثيرة، وهُنّ مُسْفِرات، وكانت هذه عادة الملثّمين يُسفر نساؤهم [عن] وجوههنّ، ويتلثّم الرجال، فحين رأى النساء كذلك أنكر عليهنّ، وأمرهن بستر وجوههنّ وضرب هو وأصحابه دوابّهنّ، فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابّتها، فرُفع أمره إلى أمير المسلمين عليّ بن يوسف، فأحضره، وأحضر الفقهاء ليناظروه، فأخذ يعظه، ويخوّفه، فبكى أمير المسلمين، وأمر أن يناظره الفقهاء، فلم يكن فيهم من يقوم له لقوّة أدلّته في الذي فعله.

وكان عند أمير المسلمين بعض وزرائه يقال له مالك بن وهيب، فقال: يا أمير المسلمين، إنّ هذا واللّه لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنّما يريد إثارة فتنة، والغلبة على بعض النواحي، فاقتله وقلّدني دمه، فلم يفعل ذلك، فقال: إن لم تقتله فاحبسه، وخلّده [في] السجن، وإلاّ أثار شرّاً لا يمكن تلافيه، فأراد حبسه، فمنعه رجل من أكابر الملثّمين يسمّى بيان بن عثمان، فأمر بإخراجه من مرّاكُش، فسار إلى أغمَات، ولحق بالجبل، فسار فيه، حتّى التحق بالسّوس الذي فيه قبيلة هرغة وغيرهم من المصامدة سنة أربع عشرة [وخمسمائة]، فأتوه، واجتمعوا حوله.

وتسامع به أهل تلك النواحي، فوفدوا عليه، وحشر أعيانهم بين يدَيْه، وجعل يعظهم، ويذكّرهم بأيّام اللّه، ويذكر لهم شرائع الإسلام، وما غُيّر منها، وما حدث من الظلم والفساد، وأنّه لا يجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل، بل الواجب قتالهم، ومَنْعهم عمّا هم فيه، فأقام على ذلك نحو سنة، وتابعته هرغة قبيلته، وسمّى أتباعه الموحّدين، وأعلمهم أنّ النبيّ ﷺ بشّر بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلاً، وأنّ مكانه الذي يخرج منه المغرب الأقصى، فقام إليه عشرة رجال، أحدهم عبد المؤمن، فقالوا: لا يوجد هذا إلاّ فيك فأنت المهدي؛ فبايعوه على ذلك. (٥٧٢/١٠)

فانتهى خبره إلى أمير المسلمين، فجهّز جيشاً من أصحابه وسيّرهم إليه، فلمّا قربوا من الجبل الذي هو فيه قال لأصحابه: إنّ هؤلاء يريدونني، وأخاف عليكم منهم، فالرأي أن أخرج بنفسي إلى غير هذه البلاد لتسلموا أنتم، فقال له ابن توفيان من مشايخ هرغة: هل تخاف شيئاً من السماء؟ فقال: لا، بل من السماء تُنصرون؛ فقال ابن توفيان: فليأتنا كلّ مَن في الأرض، ووافقه جميع قبيلته، فقال المهدي: أبشروا بالنصر والظفر بهذه الشرذمة، وبعد قليل تستأصلون دولتهم، وترثون أرضهم. فنزلوا من الجبل، ولقوا جيش أمير المسلمين، فهزموهم، وأخذوا أسلابهم، وقوي ظنّهم في صدق المهدي، حيث ظفروا، كما ذكر لهم.

وأقبلت إليه أفواج القبائل، من الجِلل التي حولَه، شرقاً وغرباً، وبايعوه، وأطاعته قبيلة هنتاتة، وهي من أقوى القبائل، فأقبل عليهم، واطمأنّ إليهم، وأتاه رسل أهل تِينمَلّلَ بطاعتهم، وطلبوه إليهم، فتوجّه إلى جبل تِينمَلّل واستوطنه، وألّف لهم كتاباً في التوحيد، وكتاباً في العقيدة، ونهج لهم طريق الأدب بعضهم مع بعض، والاقتصار على القصير من الثياب، القليل الثمن، وهو يحرّضهم على قتال عدوّهم، وإخراج الأشرار من بين أظهرهم.

وأقام بتِينمَلّلَ وبنى له مسجداً خارج المدينة، فكان يصلّي فيه الصلوات هو وجمع ممّن معه عنده، ويدخل البلد بعد العِشاء الآخرة، فلمّا رأى كثرة أهل الجبل، وحصانة المدينة، خاف أن يرجعوا عنه، فأمرهم أن يحضروا بغير سلاح، ففعلوا ذلك عدّة أيّام، ثم إنّه أمر أصحابه أن يقتلوهم، فخرجوا (٥٧٣/١٠) عليهم وهم غارّون فقتلوهم في ذلك المسجد، ثم دخل المدينة فقتل فيها وأكثر، وسبى الحريم، ونهب الأموال، فكان عدّة القتلى خمسة عشر ألفاً، وقسم المساكن والأرض بين أصحابه، وبنى على المدينة سوراً، وقلعة على رأس جبل عالٍ.

وفي جبل تِينمَلّلَ أنهار جارية، وأشجار، وزروع، والطريق إليه صعب، فلا جبل أحصن منه، وقيل: إنّه لمّا خاف أهل تِينمَلّلَ نظر، فرأى كثيراً من أولادهم شُقراً زُرقاً، والذي يغلب على الآباء السُّمرة، وكان لأمير المسلمين عدّة كثيرة من المماليك الفرنج والروم، ويغلب على ألوانهم الشُّقرة، وكانوا يصعدون الجبل في كلّ عام مرّة، ويأخذون مالهم فيه من الأموال المقرّرة لهم من جهة السلطان، فكانوا يسكنون بيوت أهله، ويخرجون أصحابها منها، فلمّا رأى المهدي أولادهم سألهم: مالي أراكم سُمر الألوان، وأرى أولادكم شُقراً، زُرقاً؟ فأخبروه خبرهم مع مماليك أمير المسلمين، فقبّح الصبر على هذا، وأزري عليهم، وعظّم الأمر عندهم، فقالوا له: فكيف الحيلة في الخلاص منهم، وليس لنا بهم قوة؟ فقال: إذا حضروا عندكم في الوقت المعتاد، وتفرّقوا في مساكنهم، فليقمْ كلّ رجل منكم إلى نزيله فيقتلهُ، واحفظوا جبلكم، فإنّه لا يرام ولا يُقْدَر عليه. فصبروا حتّى حضر أولئك العبيد، فقتلوهم على ما قرّر لهم المهدي، فلمّا فعلوا ذلك خافوا على نفوسهم من أمير المسلمين، فامتنعوا في الجبل، وسدّوا ما فيه من طريق يُسْلَك إليهم، فقويت نفس المهدي بذلك.

ثم إنّ أمير المسلمين أرسل إليهم جيشاً قويّاً، فحصروهم في الجبل، وضيّقوا عليهم، ومنعوا عنهم الميرة، فقلّتْ عند أصحاب المهدي الأقواتُ، (٥٧٤/١٠)حتّى صار الخبز معدوماً عندهم، وكان يطبخ لهم كلّ يوم من الحساء ما يكفيهم، فكان قوت كلّ واحد منهم أن يغمسَ يده في ذلك الحساء ويخرجها، فما علق عليها قنع به ذلك اليوم، فاجتمع أعيان أهل تِينمَلّلَ، وأرادوا إصلاح الحال مع أمير المسلمين، فبلغ الخبر بذلك المهدي بن تُومَرت، وكان معه إنسان يقال له أبو عبد اللّه الونشريشيُّ، يُظهر البله، وعدم المعرفة بشيء من القرآن والعلم، ويُزاقه يجري على

صدره، وهو كأنّه معتوه، ومع هذا فالمهدي يقرّبه، ويُكرمه، ويقول: إنّ للّه سِرّاً في هذا الرجل سوف يظهر.

وكان الونشريشيّ يلزم الاشتغال بالقرآن والعلم في السرّ بحيث لا يعلم أحد ذلك منه، فلمّا كان سنة تسع عشرة [وخمسمائة] ، وخاف المهديُّ من أهل الجبل، خرج يوماً لصلاة الصُّبح، فرأى إلى جانب محرابه إنساناً حسن الثياب، طيّب الريح، فأظهر أنّه لا يعرفه، وقال: مَن هذا؟ فقال: أنا أبو عبد اللّه الونشريشيّ! فقال له المهديُّ: إنّ أمرك لعجبٌ! ثم صلّى، فلمّا فرغ من صلاته نادى في الناس فحضروا، فقال: إنّ هذا الرجل يزعم أنّه الونشريشيّ، فانظروه، وحقّقوا أمره، فلمّا أضاء النهار عرفوه، فقال له المهديُّ: ما قصتك؟ قال: إنّني أتاني الليلة ملك من السماء، فغسل قلبي، وعلّمني اللّه القرآن، والموطّأ، وغيره من العلوم والأحاديث، فبكى المهديُّ بحضرة الناس، ثم قال له: نحن نمتحنك؛ فقال: افعلْ.

وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أيّ موضع سُئل، وكذلك الموطّأ، وغيره من كتب الفقه والأصول، فعجب الناس من ذلك، واستعظموه.

ثم قال لهم: إنّ اللّه تعالى قد أعطاني نوراً أعرف به أهل الجنّة من أهل (٥٧٥/١٠)النار، وآمركم أن تقتلوا أهل النار، وتتركوا أهل الجنّة، وقد أنزل اللّه تعالى ملائكة إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي.

فسار المهديُّ، والناس معه وهم يبكون، إلى تلك البئر، وصلّى المهديُّ عند رأسها، وقال: يا ملائكة اللّه، إنّ أبا عبد اللّه الونشريشيّ قد زعم كيتَ وكيتَ؛ فقال مَن بها: صدق! وكان قد وضع فيها رجالاً يشهدون بذلك، فلمّا قيل ذلك من البئر، قال المهدي: إنّ هذه مطهّرة مقدّسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تُطمّ لئلاّ يقع فيها نجاسة، أو مالا يجوز؛ فألقوا فيها من الحجارة والتراب ما طمّها، ثم نادى في أهل الجبل بالحضور إلى ذلك المكان، فحضروا للتمييز، فكان الونشريشيّ يعمد إلى الرجل الذي يخاف ناحيته، فيقول: هذا من أهل النار؛ فيُلقى من الجبل مقتولاً، وإلى الشاب الغِرّ، ومن لا يخشى، فيقول: هذا من أهل الجنّة؛ فيُترك على يمينه، فكان عدّة القتلى سبعين ألفاً، فلمّا فرغ من ذلك أمن على نفسه وأصحابه واستقام أمره.

هكذا سمعتُ جماعة من فضلاء المغاربة يذكرون في التمييز، وسمعتُ منهم من يقول: إنّ ابن تُومَرت لمّا رأى كثرة أهل الشرّ والفساد في أهل الجبل، أحضر شيوخ القبائل، وقال لهم: إنّكم لا يصحّ لكم دين، ولا يقوى إلاّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإخراج المفسد من بينكم، فابحثوا من كلّ مَن عندكم من أهل الشرّ والفساد، فانهوهم عن ذلك، فإن انتهَوا، وإلاّ فاكتبوا أسماءهم وارفعوها إليّ لأنظر في أمرهم، ففعلوا ذلك، وكتبوا له أسماءهم من كلّ قبيلة، ثم أمرهم بذلك مرّة ثانية، ثم جمع المكتوبات فأخذ منها ما تكرّر من الأسماء فأثبتها عنده، ثم جمع الناس قاطبةً، ورفع الأسماء التي كتبها، ودفعها إلى الونشريشيّ المعروف بالبشير، وأمره أن يعرض القبائل، ويجعل أولئك المفسدين في جهة الشمال، ومَن عداهم في جهة اليمين، (٥٧٦/١٠)ففعل ذلك، وأمر أن يُكتف مَن على شمال الونشريشيّ، فكتفوا، وقال: إنّ هؤلاء أشقياء قد وجب قتلهم؛ وأمر كلّ قبيلة أن يقتلوا أشقياءهم، فقتلوا عن آخرهم فكان يوم التمييز.

ولمّا فرغ ابن تومرت من التمييز، رأى أصحابه الباقين على نيّات صادقة، وقلوب متّفقة على طاعته، فجهّز منهم جيشاً وسيّرهم إلى جبال أغمات، وبها جمعٌ من المرابطين، فقاتلوهم، فانهزم أصحاب ابن تومرت، وكان أميرهم أبو عبد اللّه الونشريشيّ، وقُتل منهم كثير، وجُرح عمر الهنتاتيُّ، وهو من أكبر أصحابه، وسكن حسّه ونبضه، فقالوا: مات! فقال الونشريشيُّ: أما إنّه لم يمُتْ، ولا يموت حتّى يملك البلاد، فبعد ساعة فتح عينَيْه، وعادت قوّته إليه، فافتتنوا به، وعادوا منهزمين إلى ابن تومرت، فوعظهم، وشكرهم على صبرهم.

ثم لم يزل بعدها يُرسل السرايا في أطراف بلاد المسلمين، فإذا رأوا عسكراً تعلّقوا بالجبل فأمنوا، وكان المهديُّ قد رتّب أصحابه مراتبَ؛ فالأولى يسمّون أيت عشرة يعني أهل عشرة، وأوّلهم عبد المؤمن، ثم أبو حفص الهنتاتيّ، وغيرهما، وهم أشرف أصحابه، وأهل الثقة عنده، والسابقون إلى متابعته؛ والثانية: أيت خمسين، يعني أهل خمسين، وهم دون تلك الطبقة، وهم جماعة من رؤساء القبائل؛ والثالثة: أيت سبعين، يعني أهل سبعين، وهم دون التي قبلها، وسمّي عامّة أصحابه والداخلين في طاعته موحّدين، فإذا ذُكر الموحّدون في أخبارهم فإنّما يُعنى أصحابه وأصحاب عبد المؤمن بعده.

ولم يزل أمر ابن تومرت يعلو إلى سنة أربع وعشرين [وخمسمائة] ، فجهّز (٥٧٧/١٠)المهدي جيشاً كثيفاً يبلغون أربعين ألفاً، أكثرهم رجّالة، وجعل عليهم الونشريشيّ، وسيّر معهم عبدَ المؤمن، فنزلوا وساروا إلى مرّاكُش فحصروها، وضيّقوا عليها، وبها أمير المسلمين عليُّ بن يوسف، فبقي الحصار عليها عشرين يوماً، فأرسل أمير المسلمين إلى متولّي سِجِلْمَاسة يأمره أن يحضر ومعه الجيوش، فجمع جيشاً كثيراً وسار، فلمّا قارب عسكر المهدي خرج أهل مرّاكُش من غير الجهة التي أقبل منها، فاقتتلوا، واشتدّ القتال، وكثر القتل في أصحاب المهدي، فقُتل الونشريشيُّ أميرهم، فاجتمعوا إلى عبد المؤمن وجعلوه أميراً عليهم.

ولم يزل القتال بينهم عامّة النهار، وصلّى عبد المؤمن صلاة الخوف، الظُّهرَ والعصْرَ، والحرب قائمة، ولم تُصلّ بالمغرب قبل ذلك، فلمّا رأى المصامدة كثرة المرابطين، وقوّتهم، أسندوا ظهورهم إلى بستان كبير هناك، والبستان يُسمّى عندهم البُحيرة، فلهذا قيل وقعة البُحيرة، وعام البُحيرة، وصاروا يقاتلون من جهة واحدة إلى أن أدركهم الليل، وقد قُتل من المصامدة أكثرهم، وحين قُتل الونشريشيُّ دفنه عبد المؤمن، فطلبه المصامدة، فلم يروه في القتلى، فقالوا: رفعتْه الملائكة؛ ولمّا جنّهم الليل سار عبد المؤمن ومن سلم من القَتْلى إلى الجبل.

ذكر وفاة المهدي وولاية عبد المؤمن

لمّا سيّر الجيش إلى حصار مَرّاكُش مرض مرضاً شديداً، فلمّا بلغه خبر الهزيمة اشتدّ مرضه، وسأل عن عبد المؤمن، فقيل: هو سالم؛ فقال: ما مات (٥٧٨/١٠)أحد، الأمر قائم، وهو الذي يفتح البلاد، ووصّى أصحابه باتّباعه، وتقديمه، وتسليم الأمر إليه، والانقياد له، ولقّبه أمير المؤمنين.

ثم مات المهديُّ، وكان عمره إحدى وخمسين سنة، وقيل: خمساً وخمسين سنة، ومدّة ولايته عشرين سنة، وعاد عبد المؤمن إلى تِين مَلَلَ، وأقام بها يتألّف القلوب، ويحسن إلى الناس، وكان جواداً مقداماً في الحروب، ثابتاً في الهزاهز، إلى أن دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، فتجهّز وسار في جيش كثير، وجعل يمشي مع الجبل إلى أن وصل إلى تَادَلَةَ، فمانعه أهلُها، وقاتلوه فقهرهم، وفتحها وسائر البلاد التي تليها ومشى في الجبال يفتح ما امتنع عليه، وأطاعته صنهاجة الجبل.

وكان أمير المسلمين قد جعل وليَّ عهده ابنه سير، فمات، فأحضر أمير المسلمين ابنه تاشفين من الأندلس، وكان أميراً عليها، فلمّا حضر عنده جعله وليَّ عهده سنة إحدى وثلاثين [وخمسمائة] ، وجعل معه جيشاً، وصار يمشي في الصحراء قبالة عبد المؤمن في الجبال.

وفي سنة اثنتين وثلاثين كان عبد المؤمن في النواظر، وهو جبل عال مشرف، وتاشفين في الوطأة، [وكان] يخرج من الطائفتَيْن قوم يترامون ويتطاردون، ولم يكن بينهما لقاء، ويسمّى عام النواظر.

وفي سنة ثلاث وثلاثين توجّه عبد المؤمن مع الجبل في الشَّعْراء، حتّى انتهى إلى جبل كرناطة، فنزل في أرض صُلبة بين شجر، ونزل تاشفين قبالته في الوطأة، في أرض لا نبات فيها، وكان الفصل شاتياً، فتوالت الأمطار أياماً كثيرة لا تُقلع، فصارت الأرض التي فيها تاشفين وأصحابه كثيرة (٥٧٩/١٠)الوحل، تسوخ فيها قوائم الخيل إلى صدورها، ويعجز الرجل عن المشي فيها، وتقطّعت الطرق عنهم، فأوقدوا رماحهم، وقرابيس سروجهم، وهلكوا جوعاً وبرداً وسوء حال.

وكان عبد المؤمن وأصحابه في أرض خشنة صلبة في الجبل، لا يبالون بشيء، والميرة متّصلة إليهم؛ وفي ذلك الوقت سيّر عبد المؤمن جيشاً إلى وَجْرَةَ من أعمال تِلِمْسان، ومقدّمهم أبو عبد اللّه محمّد بن رقو، وهو من أيت خمسين، فبلغ خبرهم إلى محمّد بن يحيى بن فانّوا، متولّي تِلِمْسان، فخرج في جيش من الملثّمين، فالتقوا بموضع يُعرف بخندق الخمر، فهزمهم جيش عبد المؤمن، وقُتل محمّد بن يحيى وكثير من أصحابه، وغنموا ما معهم ورجعوا؛ فتوجّه عبد المؤمن بجميع جيشه إلى غمارة، فأطاعوه قبيلة بعد قبيلة، وأقام عندهم مدّة.

وما برح يمشي في الجبال، وتاشفين يحاذيه في الصحارى، فلم يزل عبد المؤمن كذلك إلى سنة خمس وثلاثين، فتوفّي أمير المسلمين عليّ بن يوسف بمرّاكُش وملك بعده ابنه تاشفين، فقوي طمع عبد المؤمن في البلاد، إلاّ أنّه لم ينزل الصحراء.

وفي سنة ثمان وثلاثين توجّه عبد المؤمن إلى تِلِمْسان، فنازلها، وضرب خيامه في جبل بأعلاها، ونزل تاشفين على الجانب الآخر من البلد، وكان بينهم مناوشة، فبقوا كذلك إلى سنة تسع وثلاثين، فرحل عبد المؤمن عنها إلى جبل تَاجرة، ووجّه جيشاً مع عمر الهنتاتيّ إلى مدينة وَهْران، فهاجمها بغتةً، وحصل هو وجيشه فيها، فسمع [بذلك عبد المؤمن] فسار إليها، فخرج منها عمر، ونزل تاشفين بظاهر وَهْران، على البحر، في شهر رمضان سنه تسع (٥٨٠/١٠)وثلاثين، فجاءت ليلة سبع وعشرين منه، وهي ليلة يعظّمها أهل المغرب، وبظاهر وَهْران ربوة مطلّة على البحر، وبأعلاها ثُنيّة يجتمع فيها المتعبّدون، وهو موضع معظّم عندهم، فسار إليه تاشفين في نفر يسير من أصحابه متخفيّاً، لم يعلم به إلاّ النفر الذين معه، وقصد التبرّك بحضور ذلك الموضع مع أولئك الجماعة الصالحين، فبلغ الخبر إلى عمر بن يحيى الهنتاتيّ، فسار لوقته بجميع عسكره إلى ذلك المتعبّد، وأحاطوا به، وملكوا الربوة، فلمّا خاف تاشفين على نفسه أن يأخذوه ركب فرسه وحمل عليه إلى جهة البحر، فسقط من جُرف عال على الحجارة فهلك، ورفُعت جثّته على خشبة، وقُتل كلّ من كان معه.

وقيل إنّ تاشفين قصد حصناً هناك على رابية، وله فيه بستان كبير فيه من كلّ الثمار، فاتّفق أنّ عمر الهنتاتيّ، مقدّم عسكر عبد المؤمن، سيّر سريّةً إلى ذلك الحصن، يُعلمهم بضعف مَن فيه، ولم يعلموا أنّ تاشفين فيه، فألقوا النار في بابه فاحترق، فأراد تاشفين الهرب، فركب فرسه، فوثب الفرس من داخل الحصن إلى خارج السور، فسقط في النار، فأُخذ تاشفين، فاعترف، فأرادوا حمله إلى عبد المؤمن، فمات في الحال لأنّ رقبته كانت قد اندقّت، فصُلب، وقُتل كلّ من معه، وتفرّق عسكره ولم يَعُدْ لهم جماعة، وملك بعده أخوه إسحاق بن عليّ بن يوسف.

ولمّا قُتل تاشفين أرسل عمر إلى عبد المؤمن بالخبر، فجاء من تَاجَرَةَ في يومه جميع عسكره، وتفرّق عسكر أمير المسلمين، واعتمى بعضهم بمدينة وَهْران، فلمّا وصل عبد المؤمن دخلها بالسيف، وقتل فيها ما لا يُحصى. ثم سار إلى تِلِمْسان، وهما مدينتان بينهما شوط فرس، إحداهما تاهَرْتُ، (٥٨١/١٠)وبها عسكر المسلمين، والأخرى أقادير، وهي بناء قديم، فامتنعت أقادير، وغلقت أبوابها، وتأهّب أهلها للقتال.

وأمّا تاهَرْتُ، فكان فيها يحيى بن الصحراويّة، فهرب منها بعسكره إلى مدينة فاس، وجاء عبد المؤمن إليها، فدخلها لمّا فرّ منها العسكر، ولقيه أهلها بالخضوع والاستكانة، فلم يقبل منهم ذلك، وقتل أكثرهم، ودخلها عسكره، ورتّب أمرها، ورحل عنها، وجعل على أقادير جيشاً يحصرها، وسار إلى مدينة فاس سنة أربعين [وخمسمائة] فنزل على جبل مطلّ عليها، وحصرها تسعة أشهر، وفيها يحيى بن الصحراوية، وعسكره الذين فرّوا من تِلِمْسان، فلمّا طال مقام عبد المؤمن عمد إلى نهر يدخل البلد فسكّره بالأخشاب والتراب وغير ذلك، فمنعه من دخول البلد، وصار بُحيرة تسير فيها السفن، ثم هدم السكر، فجاء الماء دفعةً واحدة فخرّب سور البلد، وكلّ ما يجاور النهر من البلد، وأراد عبد المؤمن أن يدخل البلد، فقاتله أهله خارج السور، فتعذّر عليه ما قدّره من دخوله.

وكان بفاس عبد اللّه بن خيار الجَيّاني عاملاً عليها وعلى جميع أعمالها، فاتّفق هو وجماعة من أعيان البلد، وكاتبوا عبدَ المؤمن في طلب الأمان لأهل فاس، فأجابهم إليه، ففتحوا له باباً من أبوابها، فدخلها عسكره، وهرب يحيى بن الصحراويّة، وكان فتحها آخر سنة أربعين وخمسمائة، وسار إلى (٥٨٢/١٠)طنجَةَ، ورتّب عبد المؤمن أمر مدينة فاس، وأمر فنودي في أهلها :مَن ترك عنده سلاحاً وعدّة قتال حلّ دمه؛ فحمل كلّ من في البلد ما عندهم من سلاح إليه، فأخذه منهم.

ثم رجع إلى مِكْنَاسةَ، ففعل بأهلها مثل ذلك، وقتل من بها من الفرسان والأجناد.

وأمّا العسكر الذي كان على تِلِمْسان فإنّهم قاتلوا أهلها، ونصبوا المجانيق، وأبراج الخشب، وزحفوا بالدبابات، وكان المقدّم على أهلها الفقيه عثمان، فدام الحصار نحو سنة، فلمّا اشتدّ الأمر على أهل البلد اجتمع جماعة منهم وراسلوا الموحّدين أصحاب عبد المؤمن، بغير علم الفقيه عثمان، وأدخلوهم البلد، فلم يشعر أهله إلاّ والسيف يأخذهم، فقُتل أكثر أهله، وسُبيت الذريّة والحريم، ونُهب من الأموال مالا يُحصى، ومن الجواهر ما لا تُحدّ قيمته، ومن لم يُقتل بيع بأوكس الأثمان، وكان عدّة القتلى مائة ألف قتيل، وقيل : إنّ عبد المؤمن هو الذي حصر تِلِمْسَان، وسار منها إلى فاس، واللّه أعلم.

وسيّر عبد المؤمن سريّة إلى مِكناسةَ، فحصروها مدّةً، ثم سلّمها إليهم أهلها بالأمان فوفوا لهم.

وسار عبد المؤمن من فاس إلى مدينة سَلاَ ففتحها، وحضر عنده جماعة من أعيان سَبَتَةَ، فدخلوا في طاعته، فأجابهم إلى بذل الأمان، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين [وخمسمائة]. (٥٨٣/١٠)

ذكر ملك عبد المؤمن مدينة مَرّاكُش

لمّا فرغ عبد المؤمن من فاس، وتلك النواحي، سار إلى مَرّاكُشَ، وهي كرسيّ مملكة الملثّمين، وهي من أكبر المدن وأعظمها، وكان صاحبها حينئذ إسحاق بن عليّ بن يوسف بن تاشفين، وهو صبيّ، فنازلها،وكان نزوله عليها سنة إحدى وأربعين [وخمسمائة]، فضرب خيامه في غربيّها على جبل صغير، وبنى عليه مدينة له ولعسكره، وبنى بها جامعاً وبنى له بناء عالياً يُشرف منه على المدينة، ويرى أحوال أهلها، وأحوال المقاتلين من أصحابه، وقاتلها قتالاً كثيراً، وأقام عليها أحد عشر شهراً، فكان من بها من المرابطين يخرجون يقاتلونهم بظاهر البلد، واشتدّ الجوع على أهله، وتعذّرت الأقوات عندهم.

ثم زحف إليه يوماً، وجعل لهم كميناً، وقال لهم: إذا سمعتم صوت الطبل فاخرجوا؛ وجلس هو بأعلى المنظرة التي بناها يشاهد القتال، وتقدّم عسكره، وقاتلوا، وصبروا ثم إنّهم انهزموا لأهل مَرّاكُش ليتبعوهم إلى الكمين الذي لهم، فتبعهم الملثّمون إلى أن وصلوا إلى مدينة عبد المؤمن، فهدموا أكثرَ سورها، وصاحت المصامدة بعبد المؤمن ليأمر بضرب الطبل ليخرج الكمين، فقال لهم: اصبروا حتى يخرج كلّ طامع في البلد؛ فلمّا خرج أكثر أهله أمر بالطبل فضُرب وخرج الكمين عليهم، ورجع المصامدة المنهزمون إلى الملثّمين فقتلوهم كيف شاؤوا، وعادت الهزيمة على الملثّمين، فمات في زحمة الأبواب ما لا يحصيه إلاّ اللّه سبحانه. (٥٨٤/١٠)

وكان شيوخ الملثّمين يدبّرون دولة إسحاق بن عليّ بن يوسف لصغر سنّه، فاتّفق أنّ إنساناً من جملتهم يقال له عبد اللّه بن أبي بكر خرج إلى عبد المؤمن مستأمناً وأطلعه على عوراتهم وضعفهم، فقوي الطمع فيهم، واشتدّ عليهم البلاء، ونصب عليه المنجنيقات والأبراج، وفنيت أقواتهم، وأكلوا دوابّهم، ومات من العامّة بالجوع ما يزيد على مائة ألف إنسان، فأنتن البلد من ريح الموتى.

وكان بمَرّاكُش جيش من الفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم، فجاؤوا إليهم نجدةً، فلمّا طال عليهم الأمر راسلوا عبد المؤمن يسألون الأمان، فأجابهم إليه، ففتحوا له باباً من أبواب البلد

يقال له باب أغمات، فدخلت عساكره بالسيف، وملكوا المدينة عنوةً، وقتلوا من وجدوا، ووصلوا إلى دار أمير المسلمين، فأخرجوا الأمير إسحاق وجميع من معه من أمراء المرابطين، فقُتلوا، وجعل إسحاق يرتعد رغبة في البقاء، ويدعو لعبد المؤمن ويبكي، فقام إليه الأمير سير بن الحاجّ، وكان إلى جانبه مكتوفاً، فبزق في وجهه، وقال: تبكي على أبيك وأمّك؟ اصبر صبر الرجال، فهذا رجل لا يخاف اللّه ولا يدين بدين. فقام الموحّدون إليه بالخشب فضربوه حتّى قتلوه، وكان من الشجعان المعروفين بالشجاعة، وقُدّم إسحاق، على صغر سنّه، فضُربت عنقه سنة اثنتين وأربعين [وخمسمائة]، وهو آخر ملوك المرابطين وبه انقرضت دولتهم، وكانت مدّة ملكهم سبعين سنة، ووليَ منهم أربعة: يوسف وعليّ وتاشفين وإسحاق.

ولمّا فتح عبد المؤمن مَرّاكُش أقام بها، واستوطنها واستقرّ ملكه، ولمّا قتل عبد المؤمن من أهل مَرّاكُش فأكثر فيهم القتل اختفى كثير من أهلها، فلمّا كان بعد سبعة أيّام أمر فنودي بأمان من بقي من أهلها، فخرجوا، فأراد أصحابه المصامدة قتلهم، فمنعهم، وقال: هؤلاء صنّاع، وأهل الأسواق (٥٨٥/١٠)مَن نتفع به؛ فتركوا، وأمر بإخراج القتلى من البلد، فأخرجوهم، وبنى بالقصر جامعاً كبيراً، وزخرفه فأحسن عمله، وأمر بهدم الجامع الذي بناه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

ولقد أساء يوسف بن تاشفين في فعله بالمعتمد بن عبّاد، وارتكب بسجنه على الحالة المذكورة أقبح مركب، فلا جرَمَ سلّط اللّه [عليه في] عقابه مَنْ أربى في الأخذ عليه وزاد، فتبارك الحيّ الدائم الملك، الذي لا يزول ملكه، وهذه سُنّة الدنيا، فافّ لهما، ثم افّ، نسأل اللّه أن يختم أعمالنا بالحُسنى، ويجعل خير أيّامنا يوم نلقاه بمحمّدٍ وآله.

ذكر ظفر عبد المؤمن بدكّالة

في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة سار بعض المرابطين من الملثّمين إلى دَكّالة، فاجتمع إليه قبائلها، وصاروا يُغيرون على أعمال مَرّاكُش، وعبد المؤمن لا يلتفت إليهم، فلمّا كثر ذلك منهم سار إليهم سنة أربع وأربعين [وخمسمائة]، فلمّا سمعت دَكّالة بذلك انحشروا كلّهم إلى ساحل البحر في مائتَيْ ألف راجل وعشرين ألف فارس، وكانوا موصوفين بالشجاعة.

وكان مع عبد المؤمن من الجيوش ما يخرج عن الحصر، وكان الموضع الذي فيه دَكّالة كثير الحجّر والحزُونة، فكمّنوا فيه كمناء ليخرجوا على عبد المؤمن إذا سلكه، فمن الاتّفاق الحسن له أنّه قصدهم من غير الجهة التي فيها الكمناء، فانحلّ عليهم ما قدروه، وفارقوا ذلك الموضع، فأخذهم السيف، فدخلوا (٥٨٦/١٠)البحر، فقُتل أكثرهم، وغُنمت إبلهم وأغنامهم وأموالهم، وسُبِيَتْ نساؤهم وذراريّهم، فبيعت الجارية الحسناء بدراهم يسيرة، وعاد عبد المؤمن إلى مرّاكُش مظفّراً منصوراً، وثبت ملكه، وخافه الناس في جميع المغرب، وأذعنوا له بالطاعة.

ذكر حصر مدينة كُتندة

في هذه السنة، يعني سنة أربع عشرة وخمسمائة، خرج ملك من ملوك الفرنج بالأندلس، يقال له ابن رُدْمير، فسار حتّى انتهى إلى كُتندة، وهي بالقرب من مُرسية، في شرق الأندلس، فحصرها، وضيّق على أهلها، وكان أمير المسلمين عليُّ بن يوسف حينئذ بقُرطُبة، ومعه جيش كثير من المسلمين والأجناد المتطوّعة، فسيّرهم إلى ابن رُدمير، فالتقوا واقتتلوا أشدّ القتال، وهزمهم ابن رُدمير هزيمة منكرة، وكثر القتل في المسلمين، وكان فيمن قُتل أبو عبد اللّه بن الفرّاء، قاضي المَريّة، وكان من العلماء العاملين، والزهّاد في الدنيا العادلين في القضاء.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة كسر بلكُ بن أُرتُق عفراسَ الروميّ، وقتل من الروم خمسة آلاف رجل على قلعة سرمان من بلد الدكان وأُسر عفراس وكثير من عسكره. (٥٨٧/١٠)

وفيها أغار جوسلين الفرنجيُّ، صاحب الرُّها، على جيوش العرب والتركمان، وكانوا نازلين بصِفّين، غَربيّ الفُراتُ، وغنم من أموالهم وخيلهم ومواشيهم شيئاً كثيراً، ولمّا عاد خرّب بُزاعة.

وفيها تسلّم أتابك طغتكين، صاحب دمشق، مدينة تدمر والشقيف.

وفيها أمر السلطان محمود الأمير جيوش بك بالمسير إلى حرب أخيه طغرل، فسار إليه، فسمع طغرل وأتابكه كنتغدي ذلك، فسارا إلى كَنْجَةَ من بين يدَي العسكر، ولم يَجْرِ قتالٌ.

وفيها، في المحرّم، توفّي خالصة الدولة أبو البركات أحمد بن عبد الوهّاب ابن السيبيّ، صاحب المخزن ببغداد، ووليَ مكانه الكمال أبو الفتوح حمزة بن طلحة، المعروف بابن البقشلام، والد علم الدين الكاتب المعروف.

وفي جُمادى الأولى منها توفّي أبو سعد عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القُشَيْريُّ، الإمام ابن الإمام، وكان أخذ العلم من قرابته، والطريقة أيضاً، ثم استفاد أيضاً من إمام الحرمَيْن أبي المعالي الجوينيّ، وسمع الحديث من جماعة، ورواه، وكان حسن الوعظ، سريع الخاطر، ولمّا توفّي جلس الناس في البلاد البعيدة للعزاء به، حتّى في بغداد برباط شيخ الشيوخ. (٥٨٨/١٠)

سنة خمس عشرة وخمسمائة

ذكر إقطاع البُرسقيّ الموصل

في هذه السنة، في صَفَر، أقطع السلطان محمود مدينة الموصل وأعمالها، وما ينضاف إليها، كالجزيرة، وسِنجار، وغيرهما، الأمير آقسنقَر البُرسقيّ.

وسبب ذلك : أنّه كان في خدمة السلطان محمود، ناصحاً له، ملازماً له في حروبه كلّها، وكان له الأثر الحسن في الحرب المذكورة بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود، وهو الذي أحضر الملك مسعوداً عند أخيه السلطان محمود، فعظم ذلك عند السلطان محمود، ولمّا حضر جيوش بك عند السلطان محمود وبقيت الموصل بغير أمير ولّى عليها البرسقيّ، وتقدّم إلى سائر الأمراء بطاعته، وأمره بمجاهدة الفرنج وأخْذ البلاد منهم، فسار إليها في عسكر كثير وملكها، وأقام يدبّر أمورها، ويصلح أحوالها.

ذكر وفاة الأمير عليّ وولاية ابنه الحسن إفريقية

في هذه السنة توفّي الأمير عليُّ بن يحيى بن تميم، صاحب إفريقية، في العشر الأخير من ربيع الآخر، وكان مولده بالمهديّة، وقد تقدّم من حروبه (٥٨٩/١٠)وأعماله ما يُستدلّ به على علوّ همّته، ولمّا توفّي وليّ الملك بعده ابنه الحسن، بعهد أبيه، وقام بأمر دولته صندل الخصيّ، لأنّه كان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة لا يستقلّ بتدبير الملك، فقام صندل في الحفظ والاحتياط، فلم تطُلْ أيامه حتّى توفّي، فوقع الاختلاف بين أصحابه وقوّاده، كلّ منهم يقول: أنا المقدّم على الجميع، وبيدي الحل والشدّ؛ فلم يزالوا كذلك إلى أن فوّض أمور دولته إلى قائد من أصحاب أبيه يقال له أبو عزيز موفّق، فصلحت الأمور.

ذكر قتل أمير الجيوش

في هذه السنة، في الثالث والعشرين من رمضان، قُتل أمير الجيوش الأفضل ابن بدر الجماليُّ، وهو صاحب الأمر والحكم بمصر، وكان ركب إلى خزانة السلاح ليفرّقه على الأجناد، على جاري العادة في الأعياد، فسار معه عالم كثير من الرجّالة والخيّالة، فتأذّى بالغبار، فأمر بالبعد عنه، وسار منفرداً، معه رجلان، فصادفه رجلان بسوق الصياقلة، فضرباه بالسكاكين فجرحاه، وجاء الثالث من ورائه، فضربه بسكّين في خاصرته، فسقط عن دابّته، ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة، وحملوه إلى دار الأفضل، فدخل عليه الخليفة، وتوجّع له، وسأله عن الأموال، فقال :أمّا الظاهر منها فأبو الحسن بن أُسامة الكاتب يعرفه، وكان من أهل حلب، وتولّى أبوه قضاء القاهرة، وأمّا الباطن فابن البطائحيّ يعرفه؛ فقالا: صدق.

فلمّا توفّي الأفضل نُقل من أمواله ما لا يعلمه إلاّ اللّه تعالى، وبقي الخليفة في داره نحو أربعين يوماً، والكتّاب بين يدَيْه، والدوابّ تحمل، وتنقل ليلاً (٥٩٠/١٠)ونهاراً، ووجد له من الأعلاق النفيسة، والأشياء الغريبة القليلة الوجود، ما لا يوجد مثله لغيره، واعتُقل أولاده، وكان عمره سبعاً، وخمسين سنة، وكانت ولايته بعد أبيه ثمانياً وعشرين سنة، منها : آخر أيام المستنصر، وجميع أيام المُستعْلي، إلى هذه السنة من أيام الآمر.

وكان الإسماعيليّة يكرهونه لأسباب منها :تضييقه على إمامهم، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم، ومنها تركْ معارضة أهل السُّنّة في اعتقادهم، والنهي عن معارضتهم، وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها، فكثر الغرباء ببلاد مصر.

وكان حسن السيرة، عادلاً، حُكي أنّه لمّا قُتل، وظهر الظلم بعده، اجتمع جماعة واستغاثوا بالخليفة، وكان من جملة قولهم :إنّهم لعنوا الأفضل، فسألهم عن سبب لعنهم إيّاه، فقالوا: إنّه عدل، وأحسن السيرة، ففارقنا بلادنا وأوطاننا، وقصدنا بلده لعدله، فقد أصابنا بعده هذا الظلم، فهو كان سبب ظلمنا. فأحسن الخليفة إليهم، وأمر بالإحسان إلى الناس.

ومنها أنّ صاحبه الآمر بأحكام اللّه، صاحب مصر، وضع منه، وسبب ذلك ماذكرناه قبلُ، ففسد الأمر بينهما، فأراد الآمر أن يضع عليه من يقتله إذا دخل عليه قصره للسلام، أو في أيام الأعياد، فمنعه من ذلك ابن عمّه أبو الميمون عبد المجيد، وهو الذي ولّيَ الأمر بعده بمصر، وقال له: في هذا الفعل شناعة، وسوء سُمعة، لأنّه قد خدم دولتنا هو وأبوه خمسين سنة، ولم يعلم (٥٩١/١٠) الناس منهما إلا النّصح لنا، والمحبّة لدولتنا، وقد سار ذلك في أقطار البلاد، فلا يجوز أن يظهر منّا هذه المكافأة الشنيعة، ومع هذا فلا بدّ وأن نقيم غيره مكانه ونعتمد عليه في منصبه، متمكّن مثله، أو ما يقاربه، فيخاف أن نفعل به مثل فعلنا بهذا، فيحذر من الدخول إلينا خوفاً على نفسه، وإن دخل علينا كان خائفاً مستعدّاً للامتناع، وفي هذا الفعل منهم ما يُسقط المنزلة، والرأي أن تراسل أبا عبد اللّه بن البطائحيّ، فإنّه الغالب على أمر الأفضل، والمطّلع على سرّه، وتَعِده أن توليّه منصبه، وتطلب منه أن يدبّر الأمر في قتله لمن يقاتله، إذا ركب، فإذا ظفرنا بمن قتله قتلناه، وأظهرنا الطلب بدمه، والحزن عليه، فنبلغ غرضنا، ويزول عنّا قبح الأحدوثة، ففعلوا ذلك فقُتل كما ذكرناه.

ولمّا قُتل وليّ بعده أبو عبد اللّه بن البطائحيّ الآمر، ولُقّبَ المأمون، وتحكّم في الدولة، فبقي كذلك حاكماً في البلاد إلى سنة تسع عشرة [وخمسمائة]، فصُلب كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر عصيان سليمان بن إيلغازي على أبيه

في هذه السنة عصى سليمان بن إيلغازي بن أُرتُق على أبيه بحلب، وقد جاوز عمره عشرين سنة، حمله على ذلك جماعة مَن عنده، فسمع والده الخبر، فسار مجدّاً لوقته، فلم يشعر به سليمان حتّى هجم عليه، فخرج إليه معتذراً، فأمسك عنه، وقبض على من كان أشار عليه بذلك، منهم : أمير كان قد التقطه أُرتُق، والد إيلغازي، وربّاه، اسمه ناصر، فقلع عينَيْه، وقطع لسانه، ومنهم : (٥٩٢/١٠) إنسان من أهل حماة من بيت قرناص، كان قد قدّمه إيلغازي على أهل حلب، وجعل إليه الرئاسة، فجازاه بذلك، وقطع يدَيْه ورجلَيْه، وسمل عينَيْه، فمات.

وأحضره ولده، وهو سكران، فأراد قتله، فمنعته رقّة الوالد، فاستبقاه، فهرب إلى دمشق، فأرسل طغتكين يشفع فيه، فلم يجبه إلى ذلك، واستناب بحلب سليمان بن أخيه عبد الجبّار بن أُرتُق، ولقّبه بدر الدولة، وعاد إلى ماردين.

ذكر إقطاع ميّافارقين إيلغازي

في هذه السنة أقطع السلطان محمود مدينة ميّافارقين للأمير إيلغازي.

وسبب ذلك أنّه أرسل ولدَه حُسام الدين تمرتاش، وعمره سبع عشرة سنة، إلى السلطان ليشفع في دُبَيْس بن صدقة، ويبذل عنه الطاعة، وحَمْل الأموال، والخيل، وغيرها، وأن يضمن الحلّة كلّ يوم بألف دينار وفرس، وكان المتحدّث عنه القاضي بهاء الدين أبو الحسن عليّ بن القاسم بن الشهرزوريّ، فتردّد الخطاب في ذلك، ولم ينفصل حال، فلمّا أراد العود أقطع السلطان أباه مدينة ميّافارقين، وكانت مع الأمير سُكمان، صاحب خِلاط، فتسلّمها إيلغازي، وبقيت في يده، ويد أولاده، إلى أن ملكها صلاح الدين يوسف بن أيّوب سنة ثمانين وخمسمائة، وسنذكر ذلك إن شاء اللّه تعالى. (٥٩٣/١٠)

ذكر حصر بَلْك بن بَهرام الرُّها وأسر صاحبها

في هذه السنة سار بَلْك بن بَهرام، ولد أخي إيلغازي، إلى مدينة الرُّها، فحصرها وبها الفرنج، وبقي على حصرها مدّة، فلم يظفر بها، فرحل عنها، فجاءه إنسان تركمانيّ، وأعلمه أنّ جوسلين، صاحب الرُّها، وسَروج، قد جمع مَن عنده من الفرنج، وهو عازم على كبسه، وكان قد تفرّق عن بَلْك أصحابه، وبقي في أربعمائة فارس، فوقف مستعدّاً لقتالهم.

وأقبل الفرنج، فمن لطف اللّه تعالى بالمسلمين أنّ الفرنج وصلوا إلى أرض قد نضب عنها الماء، فصارت وحلاً غاصتْ خيولهم فيه فلم تتمكّن، مع ثقل السلاح والفرسان، من الإسراع والجري، فرماهم أصحاب بلك بالنشّاب، فلم يفلتْ منهم أحد، وأُسر جوسلين وجُعل في جلد جمل، وخُيط عليه، وطُلب منه أن يسلّم الرُّها، فلم يفعل، وبذل في فداء نفسه أموالاً جزيلة، وأسرى كثيرة، فلم يجبْهُ إلى ذلك، وحمله إلى قلعة خَرْتَبِرْتَ فسجنه بها، وأسر معه ابن خالته، واسمه كليام، وكان من شياطين الكفّار، وأسر أيضاً جماعةً من فرسانه المشهورين، فسجنهم معه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّيت جدّة السلطان محمود لأبيه، وهي والدة السلطان سنجَر، وكانت تركيّة تُعرف بخاتون السفريّة، وكان موتها بمرو، فجلس (٥٩٤/١٠)محمود ببغداد للعزاء بها، وكان عزاء لم يشاهد مثله الناس.

وفيها توفّي الخطير محمّد بن الحسن المَيْبُذيُّ ببلاد فارس، وهو في وزارة الملك سلجوق ابن السلطان محمّد، وكان قديماً وزر للسلطانَيْن بركيارق ومحمّد، وكان جواداً حليماً، سمع أنّ الأبيوَرْديّ هجاه، فلمّا سمع الهجو مضّه، فعضّ على إبهامه، وصفح عنه، وخلع عليه ووصله.

وفيها توفّي الشهاب أبو المحاسن عبد الرزّاق بن عبد اللّه وزير السلطان سنجَر، وهو ابن أخي نظام الملك، وكان يتفقّه قديماً على أيمان الحرمَيْن الجُوينيّ فكان يُفتي ويوقّع، ووزر بعده أبو طاهر سعد بن عليّ بن عيسى القُمّيُّ، وتوفّي بعد شهور، فوزر بعده عثمان القُمّيُّ.

وفيها، في جمادى الأولى، أوقع أتابك طغتكين بطائفة من الفرنج، فقتل منهم وأسر وأرسل من الأسرى والغنيمة للسلطان وللخليفة.

وفيها تضعضع الركن اليمانيُّ من البيت الحرام، زاده اللّه شرفاً، من زلزلة، وانهدم بعضه، وتشعّث بعض حرم النبيّ ﷺ وتشعّث غيرها من البلاد، وكان بالموصل كثير منها.

وفيها احترقت دار السلطان، كان قد بناها مجاهد الدين بهروز للسلطان محمّد، ففرغتْ قبل وفاته بيسير، فلمّا كان الآن احترقت.

وسبب الحريق أنّ جارية كانت تختضب ليلاً، فأسندت شمعة إلى الخيش فاحترق، وعلقت النار منه في الدار، واحترق فيها من زوجة السلطان محمود بنت السلطان سنجَر ما لا حدّ له من الجواهر، والحلى، والفرش، والثياب، وأقيم الغسّالون يخلّصون الذهب وما أمكن تخليصه، وكان الجوهر جميعه قد هلك إلاّ الياقوت الأحمر. (٥٩٥/١٠)

وترك السلطان الدار لم تجدّدْ عمارتها، وتطيّر منها، لأنّ أباه لم

يتمتّع بها، ثم احترق فيها من أموالهم الشيء العظيم، واحترق قبلها بأسبوع جامع أصبهان، وهو من أعظم الجوامع وأحسنها، أحرقه قوم من الباطنيّة ليلاً، وكان السلطان قد عزم على أخذ حق البيع، وتجديد المكوس بالعراق، بإشارة الوزير السميرميّ عليه بذلك، فتجدّد من هذَيْن الحريقَيْن ما هاله، واتّعظ فأعرض عنه.

وفيها، في ربيع الآخر، انقضّ كوكب عِشاء، وصار له نور عظيم، وتفرق منه أعمدة عند انقضاضه، وسُمع عند ذلك صوت هدّة عظيمة كالزلزلة.

وفيها ظهر بمكّة إنسان علويّ، وأمر بالمعروف، فكثر جمعه، ونازع أميرَ مكة ابن أبي هاشم، وقوي أمره، وعزم على أن يخطب لنفسه، فعاد ابن أبي هاشم وظفر به، ونفاه عن الحجاز إلى البحرَيْن، وكان هذا العلويُّ من فقهاء النظاميّة ببغداد.

وفيها ألزم السلطان أهل الذمّة ببغداد بالغيار، فجرى فيه مراجعات انتهت إلى أن قُرّر عليهم للسلطان عشرون ألف دينار، وللخليفة أربعة آلاف دينار.

وفيها حضر السلطان محمود وأخوه الملك مسعود عند الخليفة، فخلع عليهما، وعلى جماعة من أصحاب السلطان، منهم : وزيره أبو طالب السميرميُّ، وشمس الملك عثمان بن نظام الملك، والوزير أبو نصر أحمد بن محمّد بن حامد المستوفي، وعلى غيرهم من الأمراء.

وفيها، في ذي القعدة، وهو الحادي والعشرون من كانون الثاني، سقط بالعراق جميعه من البصرة إلى تكريت ثلج كثير، وبقي على الأرض خمسة عشر يوماً، وسمكه ذراع، وهلكت أشجار النارنج، والأُتْرجّ، والليمون، (٥٩٦/١٠)فقال فيه بعض الشعراء :

يا صُدُورَ الزمانِ ليس بوَفْرٍ ... ما رأيناه في نواحي العراقِ
إنّما غمّ ظلمُكم سائرَ الخَلْـ ... ـقِ، فشابَت ذَوائبُ الآفاقِ

وفيها هبّت بمصر ريح سوداء ثلاثة أيّام، فأهلكت كثيراً من الناس، وغيرهم من الحيوانات.

وفيها توفّي أبو محمّد القاسم بن عليّ بن محمّد بن عثمان الحريريُّ، صاحب المقامات المشهورة، وهزارسب بن عوض الهرويُّ، وكان قد سمع الحديث كثيراً. (٥٩٧/١٠)

سنة ستّ عشرة وخمسمائة

ذكر طاعة الملك طغرل لأخيه السلطان محمود

وفي المحرّم من هذه السنة أطاع الملك طغرل أخاه السلطان محموداً، وكان قد خرج عن طاعته، كما ذكرناه، وقصد أذربيجان في السنة الخالية ليتغلّب عليها، وكان أتابكه كتغدي يحسّن له ذلك، ويقوّيه عليه، فاتّفق أنّه مرض، وتوفّي في شوّال سنة خمس عشرة [وخمسمائة].

وكان الأمير آقسنقَر الأحمديليّ، صاحب مَراغة، عند السلطان محمود ببغداد، فاستأذنه في المضيّ إلى إقطاعه، فأذن له، فلمّا سار عن السلطان ظنّ أنّه يقوم مقام كتغدي من الملك طغرل، فسار إليه، واجتمع به، وأشار عليه بالمكاشفة لأخيه السلطان محمود، وقال له:إذا وصلتَ إلى مَراغة اتصل بك عشرة آلاف فارس وراجل. فسار معه، فلمّا وصلوا إلى أرْدَبيل أُغلقت أبوابها دونهم، فساروا عنها إلى قريب تِبريز، فأتاهم الخبر أنّ السلطان محموداً سيّر الأمير جيوش بك إلى أذربيجَان، وأقطعه البلاد، وأنّه نزل مَراغة في عسكر كثيف من عند السلطان.

فلمّا تيقّنوا ذلك عدلوا إلى خُوَنْج، وانتقض عليهم ما كانوا فيه، وراسلوا الأمير شيركير الذي كان أتابك طغرل، أيّام أبيه، يدعونه إلى إنجادهم، وقد كان كتغدي قبض عليه بعد موت السلطان محمّد على ما ذكرناه، ثم أطلقه (٥٩٨/١٠)السلطان سنجَر، فعاد إلى إقطاعه، أبْهَر، وزَنْجَان، وكاتبوه فأجابهم، واتّصل بهم، وسار معهم إلى أبْهَر، فلم يتمّ لهم ما أرادوا، فراسلوا السلطان بالطاعة، فأجابهم إلى ذلك، فاستقرّت القاعدة أوّل هذه السنة، وتمّت.

ذكر حال دُبَيْس بن صدقة وما كان منه

قد ذكرنا سنة أربع عشرة [وخمسمائة] حال دُبَيْس بن صدقة، وصُلحه على يد يرنقُش الزكويّ، ومقامه بالحِلّة، وعود يرنقُش إلى السلطان ومعه منصور بن صدقة، أخو دُبَيْس، وولده رهينةً، فلمّا علم الخليفة بذلك لم يرض به، وراسل السلطانَ محموداً في إبعاد دُبَيْس عن العراق إلى بعض النواحي.

وتردّد الخطاب في ذلك، وعزم السلطان على المسير إلى همَذان، فأعاد الخليفة الشكوى من دُبَيْس، وذكر أنّه يطالب الناس بحقوده، منها قتْل أبيه، وأشار أن يُحضر السلطانُ آقسنقَر البرسقيَّ من الموصل، ويولّيه شحنكيّة بغداد والعراق، ويجعله في وجه دُبَيْس، ففعل السلطان ذلك، وأحضر البرسقيَّ، فلمّا وصل إليه زوّجه والدة الملك مسعود، وجعله شِحنة بغداد، وأمره بقتال دُبَيْس إن تعرّض للبلاد.

وسار السلطان عن بغداد في صفر من هذه السنة، وكان مقامه ببغداد سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً، فلمّا فارق بغداد والعراق تظاهر دُبَيْس بأمور تأثّر بها المسترشد باللّه، وتقدّم إلى البرسقيّ بالمسير إليه، وإزعاجه عن الحِلّة، فأرسل البرسقيّ إلى الموصل، وأحضر عساكره، وسار إلى الحِلّة، (٥٩٩/١٠)وأقبل

دُبَيْس نحوه، فالتقوا عند نهر بَشير، شرقيّ الفرات، واقتتلوا، فانهزم عسكر البرسقيّ.

وكان سبب الهزيمة أنّه رأى في ميسرته خللاً، وبها الأمراء البكجيّة؛ فأمر بإلقاء خيمته، وأن تُنصَب عند الميسرة، ليقوّي قلوب من بها، فلمّا رأوا الخيمة وقد سقطت ظنّوها عن هزيمة، فانهزموا، وتبعهم الناس والبرسقيُّ.

وقيل: بل أعطي رقعة فيها :إنّ جماعةً من الأمراء، منهم إسماعيل البكجيُّ، يريدون الفتك به، فانهزم، وتبعه العسكر، ودخل بغداد ثاني ربيع الآخر، وكان في جملة العسكر نصر بن النفيس بن مهذّب الدولة أحمد بن أبي الجبر، وكان ناظراً بالبطيحة لريحان محكوّيه، خادم السلطان، لأنّها كانت من جملة إقطاعه، وحضر أيضاً المظفّر بن حمّاد بن أبي الجبر، وبينهما عداوة شديدة، فالتقيا عند الانهزام بساباط نهر ملك، فقتله المظفر ومضى إلى واسط، وسار منها إلى البطيحة، وتغلّب عليها وكاتب دُبيساً وأطاعه.

وأمّا دُبَيْس فإنّه لم يعرض لنهر ملك، ولا غيره، وأرسل إلى الخليفة أنّه على الطاعة، ولولا ذلك لأخذ البرسقيّ وجميع مَن معه، وسأل أن يخرج الناظر إلى القُرى التي لخاصّ الخليفة لقبض دَخْلها.

وكانت الوقعة في حزيران، وحمّى البلد، فأحمد الخليفة فعله، وتردّدت الرسل بينهما، فاستقرّت القاعدة أن يقبض المسترشد بالله على وزيره جلال الدين أبي عليّ بن صدقة ليعود إلى الطاعة، فقبض على الوزير، ونُهبت داره ودور أصحابه والمنتمين إليه، وهرب ابن أخيه جلال الدين أبو الرضا إلى الموصل.

ولمّا سمع السلطان خبر الوقعة قبض على منصور بن صدقة، أخي دُبَيْس، وولده، ورفعهما إلى قلعة برحين وهي تجاور كَرَج. (٦٠٠/١٠)

ثم إنّ دُبَيْساً أمر جماعة من أصحابه بالمسير إلى أقطاعهم بواسط، فساروا إليها، فمنعهم أتراك واسط، فجهّز دُبَيْس إليهم عسكراً مقدّمهم مُهلهِل ابن أبي العسكر، وأرسل إلى المظفّر بن أبي الجبر بالبطيحة ليتّفق مع مهلهِل ويساعده على قتال الواسطيّين، فاتّفقا على أن تكون الوقعة تاسع رجب، وأرسل الواسطيّون إلى البرسقيّ يطلبون منه المدد، فأمدّهم بجيش من عنده، وعجل مُهلهِل في عسكر دُبَيْس، ولم ينتظر المظفّر ظنّاً منه أنّه بمفرده ينال منهم ما أراد، وينفرد بالفتح، فالتقى هو والواسطيّون، ثامن رجل، فانهزم مُهَلهِل وعسكره، وظفر الواسطيّون، وأُخذ مُهلهِل أسيراً وجماعة من أعيان العسكر، وقُتل ما يزيد على ألف قتيل، ولم يُقتل من الواسطيّين غير رجل واحد.

وأمّا المظفّر بن أبي الجبر فإنّه أصعد من البطيحة ونهب وأفسد، وجرى من أصحابه القبيح، فلمّا قارب واسطاً سمع بالهزيمة، فعاد منحدراً.

وكان في جملة ما أخذ العسكر الواسطيُّ من مُهلهِل تذكرة بخطّ دُبَيْس يأمره فيها بقبض المظفّر بن أبي الجبر ومطالبته بأموال كثيرة أخذها من البطيحة، فأرسلوا الخطّ إلى المظفّر، وقالوا: هذا خطّ الذي تختاره، وقد أسخطتَ الله تعالى والخلق كلّهم لأجله؛ فمال إليهم وصار معهم، فلمّا جرى على أصحاب دُبَيْس من الواسطيّين ما ذكرناه شمّر عن ساعده في الشرّ، وبلغه أنّ السلطان كحل أخاه، فجزّ شعره، ولبس السواد، ونهب البلاد، وأخذ كلّ ما للخليفة بنهر الملك، فأجلى الناس إلى بغداد.

وسار عسكر واسط إلى النُّعمانيّة، فأجلوا عنها عسكر دُبَيْس واستولوا (٦٠١/١٠)عليها، وجرى بينهم هناك وقعة كان الظفر [فيها] للواسطيّين، وتقدّم الخليفة إلى البرسقيّ بالتبريز إلى حرب دُبَيْس، فبرّز في رمضان، وكان من نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر قتل السُّميرميّ

وفي هذه السنة قُتل الوزير الكمال أبو طالب السُّميرميُّ، وزير السلطان محمود، سلخ صفر، وكان قد برز مع السلطان ليسير إلى همَذان، فدخل إلى الحمّام، وخرج بين يدَيْه الرجّالة والخيّالة، وهو في موكبٍ عظيم، فاجتاز بسوق المدرسة التي بناها خمارتكين التُّتُشيُّ، واجتاز في منفذ ضيّق فيه حظائر الشوك، فتقدّم أصحابه لضيق الموضع، فوثب عليه باطنيٌّ وضربه بسكّين، فوقعت في البغلة، وهرب إلى دجلة، وتبعه الغلمان، فخلا الموضع، فظهر رجل آخر فضربه، بسكّين في خاصرته، وجذبه عن البغلة إلى الأرض، وضربه عدّة ضربات.

وعاد أصحاب الوزير، فحمل عليهم رجلان باطنيّان، فانهزموا منهما، ثم عادوا وقد ذُبِحَ الوزير مثل الشاة، فحُمل قتيلاً وبه نيف وثلاثون جراحة، وقُتل قاتلوه.

ولمّا كان في الحمّام كان المنجّمون يأخذون له الطالع ليخرج، فقالوا: هذا وقت جيّد، وإن تأخّرتَ يفت طالع السعد، فأسرج وركب، وأراد أن يأكل طعاماً، فمنعوه لأجل الطالع، فقُتل ولم ينفعه قولهم.

وكانت وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر، وانتُهب ماله، وأخذ السلطان (٦٠٢/١٠)خزانته، ووزر بعده شمس الملك بن نظام الملك، وكانت زوجة السُّميرميّ قد خرجت هذا اليوم في موكب كبير، معها نحو مائة جارية، وجَمْع من الخدم، والجميع بمراكب الذهب، فلمّا سمعن بقتله عُدْنَ حافيات حاسرات، وقد تبدلن بالعزّ

هواناً، وبالمسرّة أحزاناً فسبحان من لا يزول ملكه.

وكان السُّمَيرميّ ظالماً، كثير المصادرة للناس، سيء السيرة، فلمّا قُتل أطلق السلطان ما كان جدّده من المكوس، وما وضعه على التجار والباعة.

ذكر القبض على ابن صدقة وزير الخليفة ونيابة عليّ بن طِراد

في جُمادى الأولى قبض الخليفة على وزيره جلال الدين بن صدقة، وقد تقدّم ذكره قبلُ، وأُقيم نقيب النقباء شرف الدين عليُّ بن طِراد الزينبيُّ في نيابة الوزارة، فأرسل السلطان إلى المسترشد باللّه في معنى وزارة نظام الملك أبي نصر أحمد بن نظام الملك، وكان أخو شمس الملك عثمان بن نظام الملك وزير السلطان محمود، فأُجيب إلى ذلك، واستوزر في شعبان.

وكان قد وزر للسلطان محمّد سنة خمسمائة، ثم عُزل، ولزم داراً استجدّها ببغداد إلى الآن، فلمّا خُلع على نظام الملك، وجلس في الديوان، طلب أن يخرج ابنُ صدقة عن بغداد، فلمّا علم ابن صدقة ذلك طلب من الخليفة أن يُسيّر إلى حديثة عانة ليكون عند الأمير سليمان بن مُهارش، فأُجيب إلى ما طلب.

وسار إلى الحديثة، فخرج عليه في الطريق إنسان من مفسدي التركمان يقال (٦٠٣/١٠)له يُونُس الحراميّ، فأسره ونهب أصحابه، فخاف الوزير أن يعلم دُبَيْس فأرسل إلى يُونُس وبذل له مالاً يأخذه منه للعداوة التي بينهما، فقرّر أمره مع يونُس على ألف دينار يعجّل منها ثلاثمائة، ويؤخّر الباقي إلى أن يرسله من الحديثة.

وراسل عامل بلد الفُرات في تخليصه، وإنفاذ من يَضْمن الباقي الذي عليه، فأعمل العامل الحيلة في ذلك، فأحضر إنساناً فلاّحاً وألبسه ثياباً فاخرة وطَيلساناً، وأركبه وسيّر معه غلماناً، وأمره أن يمضي إلى يونُس ويدّعي أنّه قاضي بلد الفُرات، ويضمن الوزير منه بما بقي من المال، فسار السواديّ إلى يُونُس، فلمّا حضر عند الوزير ويُونُس احترماه، وضمن السواديُّ الوزير منه، وقال له:أُقيم عندك إلى أن يصل المال مع صاحب لك تنقذه مع الوزير؛ فاعتقد يونس صدق ذلك وأطلق الوزير ومعه جماعة من أصحابه، فلمّا وصل الحديثة قبض على مَن معه منهم، فأطلق يونس ذلك السواديّ، والمال الذي أخذه، حتّى أطلق الوزير أصحابه، وعلم الحيلة التي تمّت عليه.

ولمّا سار الوزير من عند يونس لقي إنساناً أنكره، فأخذه، فرأى معه كتاباً من دُبَيْس إلى يونُس ببذل ستّة آلاف دينار ليسلّم الوزير إليه، وكان خلاصه من أعجب الأشياء.

ذكر قتل جيوش بك

في هذه السنة قُتل الأمير جيوش بك الذي كان صاحب الموصل، وقد ذكرنا خروجه على السلطان محمود، وعوده إلى خدمته، فلمّا رضي عنه أقطعه أذربيجان (٦٠٤/١٠)وجعله مقدّم عسكره، فجرى بينه وبين جماعة من الأمراء منافرة ومنازعات، فأغروا به السلطان، فقتله في رمضان على باب تِبريز.

وكان تركيّاً من مماليك السلطان محمّد، عادلاً، حسن السيرة، ولمّا وليَ الموصل والجزيرة كان الأكراد بتلك الأعمال قد انتشروا، وكثر فسادهم، وكثرت قلاعهم، والناس معهم في ضيق، والطريق خائفة، فقصدهم، وحصر قلاعهم، وفتح كثيراً منها ببلد الهَكّاريّة، وبلد الزُّوْزان، وبلد البَشْنويّة، وخافه الأكراد، وتولّى قصدهم بنفسه، فهربوا منه في الجبال والشعاب والمضايق، وأمِنت الطرق، وانتشر الناس واطمأنّوا، وبقي الأكراد لا يجسرون أن يحملوا السلاح لهيبته.

ذكر وفاة إيلغازي وأحوال حلب بعده

في هذه السنة، في شهر رمضان، توفّي إيلغازي بن أُرتُق بميّافارقين، وملك ابنه حسام الدين تمرتاش قلعة ماردين، وملك ابنه سليمان ميّافارقين، وكان بحلب ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبّار بن أُرتُق، فبقي بها إلى أن أخذها ابن عمّه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أقطع السلطان محمود الأمير آقسنقَر البُرسقيَّ مدينةَ واسط وأعمالها، مضافاً إلى ولاية الموصل وغيرها ممّا بيده، وشحنكيّة العراق، فلمّا أقطعها البرسقيُّ سيّر إليها عماد الدين زنكي بن آقسنقَر الذي كان والده (٦٠٥/١٠)صاحب حلب، وأمره بحمايتها، فسار إليها في شعبان ووليها، وقد ذكرنا أخبار زنكي في كتاب الباهر في ذكر ملكه وملك أولاده الذين هم ملوكنا الآن، فينظر منه.

وفيها ظهر مَعْدِن نُحاس بديار بكر قريباً من قلعة ذي القرنَيْن.

وفيها زاد الفرات زيادة عظيمة لم يُعهَد مثلها، فدخل الماء إلى ربض قلعة جَعْبَر، وكان الفرات، حينئذ، بالقرب منها، فغرق أكثر دوره ومساكنه، وحمل فرساً من الربض وألقاه من فوق السور إلى الفرات.

وفيها بُنيت مدرسة بحلب لأصحاب الشافعيّ.

وفيها توفّيت ابنة السلطان سنجَر زوج السلطان محمود.

وفيها، في شعبان، قدم إلى بغداد البرهان أبو الحسن عليّ بن الحسين الغزنويُّ وعقد مجلس الوعظ في جميع المواضع، وورد بعده أبو القاسم عليُّ بن يعلى العلويُّ، ونزل رباط شيخ الشيوخ، فوعظ في جامع القصر، والتاجيّة، ورباط سعادة، وصار له قبولٌ

عند الحنابلة، وحصل له مال كثير لأنّه أظهر موافقتهم.

وورد بعده أبو الفتوح الاسفراييني، ونزل برباط شيخ الشيوخ أيضاً، ووعظ في هذه المواضع، وفي النظاميّة، وأظهر مذهب الأشعريّ، فصار له قبول كثير عند الشافعيّة، وحضر مجلسه الخليفة المسترشد بالله، وسلّم إليه رباط الأرجُونيّة، والدة المقتدي بالله، بدرب زاخي.

وفيها توفّي عبد الله بن أحمد بن عمر أبو محمّد السمرقنديّ، أخو أبي القاسم بن السمرقنديّ، ومولده بدمشق سنة أربع وأربعين، ونشأ ببغداد، وسمع الصريفينيّ وابن النقور وغيرهما، وسافر الكثير، وكان حافظاً (٦٠٦/١٠)للحديث عالماً به.

وفي ذي الحجّة توفّي عبد القادر بن محمّد بن عبد القادر بن محمّد بن يوسف أبو طالب، ومولده سنة ستّ وثلاثين وأربعمائة، وسمع البرمكيّ، والجوهريّ، والعشاريّ، وكان ثقة، حافظاً للحديث. (٦٠٧/١٠)

سنة سبع عشرة وخمسمائة

ذكر مسير المسترشد بالله لحرب دُبَيْس

في هذه السنة كانت الحرب بين الخليفة المسترشد بالله، وبين دُبَيْس بن صدقة.

وكان سبب ذلك :أنّ دُبَيْساً أطلق عفيفاً خادم الخليفة، وكان مأسوراً عنده، وحمّله رسالة فيها تهديد للخليفة بإرسال البرسقيّ إلى قتاله، وتقويته بالمال، وأنّ السلطان كحل أخاه، وبالغ في الوعيد، ولبس السواد، وجزّ شعره، وحلف لينهبنّ بغداد، ويخرّبها، فاغتاظ الخليفة لهذه الرسالة، وغضب، وتقدّم إلى البرسقيّ بالتّبريز إلى حرب دُبَيْس، فبرز في رمضان سنة ستّ عشرة [وخمسمائة].

وتجهّز الخليفة، وبرز من بغداد، واستدعى العساكر، فأتاه سليمان بن مُهارش، صاحب الحديثة، في عُقيل، وأتاه قرواش بن مسلّم، وغيرهما، وأرسل دُبَيْس إلى نهر ملك فنهب، وعمل أصحابه كلّ عظيم من الفساد، فوصل أهله إلى بغداد، فأمر الخليفة فنودي ببغداد لا يتخلّف من الأجناد أحد، ومَن أحبّ الجنديّة من العامّة فليحضر، فجاء خلق كثير، ففرّق فيهم الأموال والسلاح. (٦٠٨/١٠)فلمّا علم دُبَيْس الحال كتب إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الرضاء عنه، فلم يجب إلى ذلك، وأُخرجت خيام الخليفة في العشرين من ذي الحجّة من سنة ستّ عشرة [وخمسمائة]، فنادى أهل بغداد: النفيرَ النفيرَ، الغزاةَ الغزاةَ! وكثر الضجيج من الناس، وخرج منهم عالم كثير لا يُحصَون كثرةً، وبرز الخليفة رابع عشر ذي الحجّة، وعبر دجلة وعليه قَباء أسود، وعمامة سوداء، وطرحة، وعلى كتفه البُردة، وفي يده القضيب، وفي وسطه مِنطقةُ حديد صينيّ، ونزل الخيام ومعه وزير نظام الدين أحمد بن نظام الملك، ونقيب الطالبيّين، ونقيب النقباء عليُّ بن طِراد، وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل وغيرهم من الأعيان.

وكان البرسقيُّ قد نزل بقرية جهار طاق، ومعه عسكره، فلمّا بلغهم خروج الخليفة عن بغداد عادوا إلى خدمته، فلمّا رأوا الشمسة ترجّلوا بأجمعهم، وقبّلوا الأرض بالبعد منه.

ودخلت هذه السنة، فنزل الخليفة، مستهلّ المحرّم، بالحديثة، بنهر الملك، واستدعى البرسقيّ والأمراء، واستحلفهم على المناصحة في الحرب، ثم ساروا إلى النِّيل، ونزلوا بالمباركة، وعبّأ البرسقيُّ أصحابه، ووقف الخليفة من وراء الجميع في خاصّته، وجعل دُبَيْس أصحابه صفّاً واحداً، ميمنة، وميسرة، وقلباً، وجعل الرجّالة بين يدي الخيّالة بالسلاح، وكان قد وعد أصحابَه بنهب بغداد، وسبي النساء، فلمّا تراءت الفئتان بادر أصحاب دُبَيْس، وبين أيديهم الإماء يضربن بالدفوف، والمخانيث بالملاهي، ولم يُرَ في عسكر الخليفة غير قارىء، ومسبّح، وداعٍ، فقامت الحرب على ساق.

وكان مع أعلام الخليفة الأمير كرباوي بن خراسان، وفي الساقة سليمان ابن مُهارش، وفي ميمنة عسكر البرسقيّ الأمير أبو بكر بن إلياس مع الأمراء البكجيّة، فحمل عنتر بن أبي العسكر في طائفة من عسكر دُبَيْس على ميمنة (٦٠٩/١٠)البرسقيّ، فتراجعت على أعقابها، وقُتل ابن أخ للأمير أبي بكر البكجيّ، وعاد عنتر وحمل حملة ثانية على هذه الميمنة، فكان حالها في الرجوع على أعقابها كحالها الأوّل، فلمّا رأى عسكر واسط ذلك، ومقدّمهم الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر، حمل وهم معه على عنتر ومَن معه، وأتوهم من ظهورهم فبقي عنتر في الوسط، وعماد الدين وعسكر واسط من ورائه، والأمراء البكجيّة بين يديه، فأُسر عنتر، وأُسر معه بريك بن زائدة وجميع مَن معهما ولم يفلت أحد.

وكان البرسقيُّ واقفاً على نشز من الأرض، وكان الأمير آق بوري في الكمين في خمسمائة فارس، فلمّا اختلط الناس خرج الكمين على عسكر دُبَيْس، فانهزموا جميعهم وألقَوا نفوسهم في الماء، فغرق كثير منهم، وقُتل كثير.

ولمّا رأى الخليفة اشتداد الحرب جرّد سيفه وكبّر وتقدّم إلى الحرب، فلمّا انهزم عسكر دُبَيْس وحُملت الأسرى إلى بين يدَيْه أمر الخليفة أن تُضرب أعناقهم صبراً.

وكان عسكر دُبَيْس عشرة آلاف فارس، واثني عشر ألف راجل، وعسكر البرسقيّ ثمانية آلاف فارس، وخمسة آلاف راجل، ولم يُقتل من أصحاب الخليفة غير عشرين فارساً، وحصل نساء دُبَيْس،

وسراريّه تحت الأسر سوى بنت إيلغازي، وبنت عميد الدولة بن جُهير، فإنّه كان تركهما في المشهد.

وعاد الخليفة إلى بغداد، فدخلها يوم عاشوراء من هذه السنة، ولمّا عاد الخليفة إلى بغداد ثار العامّة بها، ونهبوا مشهد باب التبن، وقلعوا أبوابه، فأنكر الخليفة ذلك، وأمر نظر أمير الحاجّ بالركوب إلى المشهد، وتأديب من فعل ذلك، وأخْذ ما نُهب، ففعل وأعاد البعض وخفي الباقي عليه.

وأمّا دُبَيْس بن صدقة فإنّه لمّا انهزم نجا بفرسه وسلاحه، وأدركته (٦١٠/١٠)الخيل، ففاتها وعبر الفرات، فرأته امرأة عجوز وقد عبر، فقالت له: دُبَيْر جئتَ؟ فقال: دُبَيْر من لم يجيء. واختفى خبره بعد ذلك، وأُرجف عليه بالقتل، ثم ظهر أمره أنّه قصد غُزَيّة من عرب نجد، فطلب منهم أن يحالفوه، فامتنعوا عليه وقالوا: إنّا نُسْخط الخليفة والسلطان؛ فرحل إلى المنتفق، واتّفق معهم على قصد البصرة وأخْذها، فساروا إليها ودخلوها، ونهبوا أهلها، وقُتل الأمير سَخْت كمان مقدّم عسكرها، وأُجلي أهلها.

فأرسل الخليفة إلى البرسقيّ يعاتبه على إهماله أمر دُبَيْس، حتّى تمّ له من أمر البصرة ما أخربها، فتجهّز البرسقيُّ للانحدار إليه، فسمع دُبَيْس ذلك، ففارق البصرة، وسار على البرّ إلى قلعة جَعْبر، والتحق بالفرنج، وحضر معهم حصار حلب، وأطمعهم في أخذها، فلم يظفروا بها، فعادوا عنها، ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل ابن السلطان محمّد، فأقام معه، وحسّن له قصد العراق، وسنذكره سنة تسع وعشرين [وخمسمائة]، إن شاء اللّه تعالى.

ذكر ملك الفرنج حصن الأثارب

في هذه السنة، في صفر، ملك الفرنج حصن الأثارب، من أعمال حلب.

وسبب ذلك: أنّهم كانوا قد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة، والتخريب، والتحريق، وكان بحلب حينئذ بدر الدولة سليمان بن عبد الجبّار ابن أُرتُق، وهو صاحبها، ولم يكن له بالفرنج قوّة، وخافهم، فهادنهم على أن يسلّم الأثارب ويكفّوا عن بلاده، فأجابوا إلى ذلك، وتسلّموا الحصن، وتمّت الهدنة بينهم، واستقام أمر الرعيّة بأعمال حلب، وجُلبت إليهم الأقوات وغيرها؛ ولم تزل الأثارب بأيدي الفرنج إلى أن ملكها أتابك زنكي بن آقسنقر، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى. (٦١١/١٠)

ذكر ملك بَلك حران وحلب

في هذه السنة، في ربيع الأول، ملك بَلك بن بهرام مدينة حرّان، وكان قد حصرها، فلمّا ملكها سار منها إلى مدينة حلب.

وسبب مسيره إليها: أنّه بلغه أن صاحبها بدر الدولة قد سلّم قلعة الأثارب إلى الفرنج، فعظم ذلك عليه، وعلم عجزه عن حفظ بلاده، فقوي طمعه في ملكها، فسار إليها، ونازلها، في ربيع الأوّل، وضايقها، ومنع الميرة عنها، وأحرق زروعها، فسلّم إليه ابن عمّه البلد والقلعة بالأمان، غرّة جمادى الأولى من السنة، وتزوّج ابنة الملك رضوان، وبقي مالكاً لها إلى أن قُتل على ما نذكره.

ذكر الحرب بين الفرنج والمسلمين بإفريقية

قد ذكرنا أنّ الأمير عليّ بن يحيى، صاحب إفريقية، لمّا استوحش من رجّار صاحب صِقِلّية، جدّد الأسطول الذي له، وكثّر عَدده وعُدده، وكاتب أميرَ المسلمين عليَّ بن يوسف بن تاشفين بمَرّاكُش بالاجتماع معه على قصد جزيرة صِقِلّية، فلمّا علم رجّار ذلك كفّ عن بعض ما كان يفعله.

فاتّفق أنّ عليّاً مات سنة خمس عشرة [وخمسمائة]، ووليَ ابنه الحسن، وقد ذكرناه. فلمّا دخلت سنة ستّ [عشرة وخمسمائة] سيّر أمير المسلّمين أُسطولاً، ففتحوا نقوطرة بساحل بلاد قلّوريَة، فلم يشكّ رجّار أن عليّاً (٦١٢/١٠)كان سبب ذلك، فجدّ في تعمير الشواني والمراكب، وحشد فأكثر، ومنع من السفر إلى إفريقية وغيرها من بلاد الغرب، فاجتمع له من ذلك ما لم يُعْهَدْ مثله، قيل: كان ثلاثمائة قطعة، فلمّا انقطعت الطريقُ عن إفريقية توقّع الأمير الحسن بن عليّ خروج العدوّ إلى المَهديّة، فأمر باتّخاذ العُدد، وتجديد الأسوار، وجمع المقاتلة، فأتاه من أهل البلاد ومن العرب جمع كثير.

فلمّا كان في جمادى الآخرة سنة سبع عشرة [وخمسمائة] سار الأسطول الفرنجيُّ في ثلاثمائة قطعة، فيها ألف فرس وفرس واحد، إلا أنّهم لمّا ساروا من مَرسى عليّ فرّقتهم الريح، وغرق منهم مراكب كثيرة، ونازل من سلم منهم جزيرة قَوْصَرَة ففتحوها، وقتلوا من بها، وسبوا وغنموا، وساروا عنها، فوصلوا إلى إفريقية، ونازلوا الحصن المعروف بالدّيماس أواخر جمادى الأولى، فقاتلهم طائفة من العرب كانوا هناك، والدّيماس حصنٌ منيعٌ، في وسطه حصن آخر، وهو مشرف على البحر.

وسيّر الحسن مَن عنده من الجموع إلى الفرنج، وأقام هو بالمهديّة في جمع آخر يحفظها، وأخذ الفرنج حصن الدّيماس، وجنود المسلمين محيطة بهم، فلمّا كان بعد ليال اشتدّ القتال على الحصن الداخل، فلمّا كان الليل صاح المسلمون صيحة عظيمة ارتجّت لها الأرض، وكبّروا، فوقع الرعب في قلوب الفرنج، فلم يشكّوا أنّ المسلمين يهجمون عليهم، فبادروا إلى شوانيهم، وقتلوا بأيديهم كثيراً من خيولهم، وغنم المسلمون منها أربعمائة فرس، ولم يسلم معهم غير فرس واحد، وغنم المسلمون جميع ما تخلّف عن الفرنج، وقتلوا كلّ من عجز عن الطلوع إلى المراكب.

فلمّا صعد الفرنج إلى مراكبهم أقاموا بها ثمانية أيّام لا يقدرون على النزول (٦١٣/١٠)إلى الأرض، فلمّا أيسوا من خلاص أصحابهم الذين في الديماس ساروا والمسلمون يكبّرون عليهم ويصيحون بهم، وأقامت عساكر المسلمين على حصن الديماس في أمم لا يُحصَون كثرةً، فحصروه، فلم يمكنهم فتحه لحصانته وقوّته، فلمّا عُدِم الماء على من به من الفرنج، وضجروا من مواصلة القتال ليلاً ونهاراً، فتحوا باب الحصن وخرجوا، فقُتلوا عن آخرهم، وذلك يوم الأربعاء منتصف جمادى الآخرة من السنة، وكانت مدّة إقامتهم في الحصن ستّة عشر يوماً.

ولمّا رجع الفرنج مقهورين أرسل الأمير الحسن البُشرى إلى سائر البلاد، وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا، تركنا ذلك خوفَ التطويل.

ذكر استيلاء الفرنج على خَرْتَبِرْت وأخذها منهم

في هذه السنة، في ربيع الأول، استولى الفرنج على خَرْتَبِرْت من بلاد ديار بكر.

وسبب ذلك : أنّ بَلَك بن بَهرام بن أُرتُق كان صاحب خَرْتَبِرْت، فحصر قلعة كَركر، وهي تقارب خَرْتَبِرْت، فسمع الفرنج بالشام الخبر، فسار بغدوين ملك الفرنج في جموعه إليه ليرحله عنها، خوفاً أن يقوى بملكها، فلمّا سمع بَلَك بقربه منه رحل إليه، والتقيا في صفر، واقتتلا، فانهزم الفرنج، وأُسر ملكهم ومعه جماعة من أعيان فرسانهم، وسجنهم بقلعة خَرْتَبِرْتَ، وكان بالقلعة أيضاً جوسلين، صاحب الرُّها، وغيره من مقدّمي الفرنج كان قد أسرهم سنة خمس عشرة [وخمسمائة]، وسار بَلَك عن خَرتَبِرْتَ إلى حرّان في ربيع الأوّل فملكها، فأعمل الفرنج الحيلة باستمالة بعض الجند، فظهروا وملكوا القلعة. (٦١٤/١٠)

فأمّا الملك بغدوين فإنّه اتّخذ الليل جملاً ومضى إلى بلاده، واتّصل الخبر ببَلَك صاحبها، فعاد في عساكره إليها وحصرها، وضيّق على من بالقلعة، واستعادها من الفرنج، وجعل فيها من الجند من يحفظها، وعاد عنها.

ذكر قتل وزير السلطان وعَوْد ابن صدقة إلى وزارة الخليفة

في هذه السنة قبض السلطان محمود على وزيره شمس الملك عثمان بن نظام الملك وقتله.

وسبب ذلك: أنّه لمّا أشار على السلطان بالعود عن حرب الكُرْج، وخالفه، وكانت الخيرة في مخالفته، تغيّر عليه، وذكره أعداؤه بالسوء، ونبّهوا على تهوّره، وقلّة تحصيله ومعرفته بمصالح الدولة، ففسد رأي السلطان فيه.

ثم إنّ الشهاب أبا المحاسن، وزير السلطان سنجَر، كان قد توفّي، وهو ابن أخي نظام الملك، ووزر بعده أبو طاهر القُمّيُّ، وهو عدوّ للبيت النظاميّ، فسعى مع السلطان سنجَر، حتّى أرسل إلى السلطان محمود يأمره بالقبض على وزيره شمس الملك، فصادق وصول الرسول وهو متغيّر عليه، فقبض عليه وسلّمه إلى طغايرك، فبعثه إلى بلده خَلْخَال، فحبسه فيها.

ثم إنّ أبا نصر المستوفي، الملقّب بالعزيز، قال للسلطان محمود: لا نأمن أن يرسل السلطان سنجَر يطلب الوزير، ومتى اتّصل به لا نأمن شرّاً يحدث منه. وكان بينهما عداوة، فأمر السلطان بقتله، فلمّا دخل عليه السيّاف ليقتله (٦١٥/١٠)قال : أمهلني حتّى أصلّي ركعتَيْن؛ ففعل، فلمّا صلّى جعل يرتعد، وقال للسيّاف : سيفي أجود من سيفك، فاقتلني به ولا تعذّبني؛ فقُتل ثاني جمادى الآخرة. فلمّا سمع الخليفة المسترشد باللّه ذلك عزل أخاه نظام الدين أحمد من وزارته، وأعاد جلال الدين أبا عليّ بن صدقة إلى الوزارة، وأقام نظام الدين بالمثَمّنة التي في المدرسة النظاميّة ببغداد.

وأمّا العزيز المستوفي فإنه لم تطُلْ أيّامه حتّى قُتل، على ما نذكره، جزاء لسَعْيه في قتل الوزير.

ذكر ظفر السلطان محمود بالكُرْج

في هذه السنة اشتدت نكاية الكُرْج في بلد الإسلام، وعظم الأمر على الناس، لا سيّما أهل دَرَبَنْد شِروانَ، فسار منهم جماعة كثيرة من أعيانهم إلى السلطان، وشكوا إليه ما يلقون منهم، وأعلموه بما هم عليه من الضعف والعجز عن حفظ بلادهم، فسار إليهم والكُرْج قد وصلوا إلى شَمَاخِي، فنزل السلطان في بستان هناك، وتقدّم الكُرْج إليه، فخافهم العسكر خوفاً شديداً.

وأشار الوزير شمس الملك عثمان بن نظام الملك على السلطان بالعود [من] هناك، فلمّا سمع أهل شِروان بذلك قصدوا السلطان وقالوا له : نحن نقاتل ما دمت عندنا، وإن تأخّرتَ عنّا ضعفت نفوس المسلمين وهلكوا؛ فقبل قولهم، وأقام بمكانه.

وبات العسكر على وجلٍ عظيم، وهم بنيّة المصافّ، فأتاهم اللّه بفرج من (٦١٦/١٠)عنده، وألقى بين الكُرْج وقفجاق اختلافاً وعداوة، فاقتتلوا تلك الليلة، ورحلوا شبه المنهزمين، وكفى اللّه المؤمنين القتال، وأقام السلطان بشِروان مدّةً، ثم عاد إلى همَذان فوصلها في جمادى الآخرة.

ذكر الحرب بين المغاربة وعسكر مصر

في هذه السنة وصل جمع كثير من لَوَاتَةَ من الغرب إلى ديار مصر، فأفسدوا فيها ونهبوها، وعملوا أعمالاً شنيعة، فجمع المأمون بن البطائحيّ، الذي وزر بمصر بعد الأفضل، عسكر مصر، وسار

إليهم فقاتلهم فهزمهم، وأسر منهم وقتل خلقاً كثيراً، وقرّر عليهم خرجاً معلوماً كلّ سنة يقومون به، وعادوا إلى بلادهم، وعاد المأمون إلى مصر مظفّراً منصوراً.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في صفر، أمر المسترشد باللّه ببناء سور بغداد، وأن يجبى ما يخرج عليه من البلد، فشقّ ذلك على الناس، وجُمع من ذلك مال كثير، فلمّا علم الخليفة كراهة الناس لذلك أمر بإعادة ما أُخذ منهم، فسُرّوا بذلك، وكثر الدعاء له.

وقيل: إنّ الوزير أحمد بن نظام الملك بذل من ماله خمسة عشر ألف دينار، وقال :تقسّط الباقي على أرباب الدولة.(٦١٧/١٠)

وكان أهل بغداد يعملون بأنفسهم فيه، وكانوا يتناوبون العمل :يعمل أهل كلّ محلّة منفردين بالطبول والزُّمُور، وزيّنوا البلد، وعملوا فيه القباب.

وفيها عُزل نقيب العلويّين، وهُدمت دار عليّ بن أفلح، وكان الخليفة يكرمه، فظهر أنّهما عين لدُبَيْس يطالعانه بالأخبار، وجعل الخليفة نقابة العلويّين إلى عليّ بن طِراد، نقيب العبّاسيّين.

وفيها جمع الأمير بَلك عساكره وسار إلى عزاة بالشام، فلقيه الفرنج، فاقتتلوا، فانهزم الفرنج وقُتل منهم وأسر بشر كثير من مقدّميهم ورجّالتهم.

وفيها كان في أكثر البلاد غلاء شديد، وكان أكثره بالعراق، فبلغ ثمن كارة الدقيق الخشكار ستّة دنانير وعشرة قراريط، وتبع ذلك موت كثير، وأمراض زائدة هلك فيها كثير من الناس.

وفيها، في صفر، توفّي قاسم بن أبي هاشم العلويُّ الحسنيُّ أمير مكّة، ووليَ بعده ابنه أبو فُلَيْتة، وكان أعدل منه، وأحسن السيرة، فأسقط المكوس، وأحسن إلى الناس.

وفيها توفّي عبد اللّه بن الحسن بن أحمد بن الحسن أبو نعيم بن أبي عليّ الحدّاد الأصبهانيُّ، ومولده سنة ثلاث وستّين وأربعمائة، وهو من أعيان المحدّثين، سافر الكثير في طلب الحديث.

وفيها سار طغتكين، صاحب دمشق، إلى حمص، فهجم [على] المدينة ونهبها وأحرق كثيراً منها وحصرها، وصاحبها قرجان بالقلعة، فاستمدّ صاحبها طغان أرسلان، فسار إليه في جمع كثير، فعاد طغتكين إلى دمشق.

وفيها لقي أسطول مصر أسطول البنادقة من الفرنج، فاقتتلوا، وكان الظفر للبنادقة، وأُخذ من أسطول مصر عدّة قطع، وعاد الباقي سالماً. (٦١٨/١٠)

وفيها سار الأمير محمود بن قراجة، صاحب حماة، إلى حصن أفاميّة، فهجم على الربَض بغتةً، فأصابه سهم من القلعة في يده، فاشتدّ ألمُه، فعاد إلى حمَاة، وقلع الزُّجّ من يده، ثم عملتْ عليه، فمات منه، واستراح أهل عمله من ظلمه وجوره؛ فلمّا سمع طغتكين، صاحب دمشق، الخبر سيّر إلى حمَاة عسكراً، فملكها وصارت في جملة بلاده، ورتّب فيها والياً وعسكراً لحمايتها. (٦١٩/١٠)

سنة ثماني عشرة وخمسمائة

ذكر قتل بَلك بن بهرام بن أرتق وملك تمرتاش حلب

في هذه السنة، في صفر، قبض بَلك بن بهرام بن أُرتُق، صاحب حلب، على الأمير حسّان البعلبكيّ، صاحب مَنْبج، وسار إليها فحصرها، فملك المدينة، وحصر القلعة، فامتنعت عليه، فسار الفرنج إليه ليرحلوه عنها لئلاّ يقوى بأخذها، فلمّا قاربوه ترك على القلعة من يحصرها، وسار في باقي عسكره إلى الفرنج، فلقيهم وقاتلهم، فكسرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وعاد إلى مَنْبج فحصرها، فبينما هو يقاتل من بها أتاه سهم فقتله، لا يدري من رماه، واضطرب عسكره وتفرّقوا، وخلص حسّان من الحبس، فكان حُسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن أرتُق مع ابن عمّه بَلك، فحمله مقتولاً إلى ظاهر حلب، وتسلّمها في العشرين من ربيع الأوّل من هذه السنة، وزال الحصار عن قلعة مَنبج، وعاد إليها صاحبها حسّان، واستقرّ تمرتاش بحلب واستولى عليها.

ثم إنّه جعل فيها نائباً له يثق به، ورتّب عنده ما يحتاج إليه من جند وغيرهم وعاد إلى ماردين، لأنّه رأى الشام كثيرة الحرب مع الفرنج، وكان رجلاً يحبّ الدّعَة والرّفاهة، فلمّا عاد إلى ماردين أُخذت حلب منه، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى. (٦٢٠/١٠)

ذكر ملك الفرنج مدينة صور بالشام

كانت مدينة صور للخلفاء العلويّين بمصر، ولم تزل كذلك إلى سنة ستّ وخمسمائة، فكان بها وال من جهة الأفضل أمير الجيوش، وزير الآمر بأحكام اللّه العلويّ، يلقّب عزّ الملك، وكان الفرنج قد حصروها، وضيّقوا عليها، ونهبوا بلدها غير مرّة، فلمّا كانت سنة ستّ تجهّز ملك الفرنج، وجمع عساكره ليسير إلى صور، فخافهم أهل صور، فأرسلوا إلى أتابك طغتكين، صاحب دمشق، يطلبون منه أن يرسل إليهم أميراً من عنده يتولاّهم ويحميهم، ويكون البلد له، وقالوا له: إن أرسلتَ إلينا والياً، وعسكراً، وإلاّ سلّمنا البلد إلى الفرنج؛ فسيّر إليهم عسكراً وجعل عندهم والياً اسمه مسعود، وكان شهماً، شجاعاً، عارفاً بالحرب ومكايدها، وأمدّه بعسكر، وسيّر إليهم ميرة ومالاً فرّقه فيهم.

وطابت نفوس أهل البلد، ولم تُغيّر الخطبة للآمر، صاحب مصر، ولا السكّة، وكتب إلى الأفضل بمصر يعرّفه صورة الحال، ويقول: متى وصل إليهم من مصر من يتولاّها، ويذبّ عنها، سلّمتُها إليه؛ ويطلب أنّ الأسطول لا ينقطع عنها بالرجال والقوّة. فشكره الأفضل على ذلك، وأثنى عليه، وصوّب رأيه فيما فعله، وجهّز أسطولاً، وسيّره إلى صور، فاستقامت أحوال أهلها. ولم يزل كذلك إلى سنة ستّ عشرة، بعد قَتْل الأفضل، فسُيّر إليها أسطول، على جاري العادة، وأمروا المقدّم على الأسطول أن يعمل الحيلة على الأمير مسعود الوالي بصور من قبل طغتكين، ويقبض عليه، ويتسلّم البلد منه.

وكان السبب في ذلك: أنّ أهل صور أكثروا الشكوى منه إلى الآمر بأحكام (٦٢١/١٠) اللّه، صاحب مصر، بما يعتمده من مخالفتهم، والإضرار بهم، ففعلوا ذلك، وسار الأسطول فأرسى عند صور، فخرج مسعود إليه للسلام على المقدّم عليه، فلمّا صعد إلى المركب الذي فيه المقدّم اعتقله، ونزل البلد، واستولى عليه، وعاد الأسطول إلى مصر، وفيه الأمير مسعود، فأُكرم وأُحسن إليه، وأُعيد إلى دمشق.

وأمّا الوالي من قِبَل المصريّين فإنّه طيّب قلوب الناس، وراسل طغتكين يخدمه بالدعاء والاعتضاد، وأنّ سبب ما فعل هو شكوى أهل صور من مسعود، فأحسن طغتكين الجواب، وبذل من نفسه المساعدة.

ولمّا سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها، وحدّثوا نفوسهم بملكها، وشرعوا في الجمع والتأهّب للنزول عليها وحَصْرها، فسمع الوالي بها للمصريّين الخبر، فعلم أنّه لا قوة له، ولا طاقة على دفع الفرنج عنها، لقلّة من بها من الجند والميرة، فأرسل إلى الآمر بذلك، فرأى أن يردّ ولاية صور إلى طغتكين، صاحب دمشق، فأرسل إليه بذلك، فملك صور، ورتّب بها من الجند وغيرهم ما ظنّ فيه كفاية.

وسار الفرنج إليهم ونازلوهم في ربيع الأوّل من هذه السنة، وضيّقوا عليهم، ولازموا القتال، فقلّت الأقوات، وسئم من بها القتال، وضعفت نفوسهم، وسار طغتكين إلى بانياس ليقرب منهم، ويذبّ عن البلد، ولعلّ الفرنج إذا رأوا قربه منهم رحلوا، فلم يتحرّكوا، ولزموا الحصار، فأرسل طغتكين إلى مصر يستنجدهم، فلم ينجدوه، وتمادت الأيّام، وأشرف أهلها على الهلاك، فراسل حينئذ طغتكين، صاحب دمشق، وقرّر الأمر على أن يسلّم المدينة إليهم، ويمكّنوا من بها من الجند والرعيّة من الخروج (٦٢٢/١٠)منها بما يقدرون عليه من أموالهم ورحالهم وغيرها، فاستقرّت القاعدة على ذلك، وفُتحت أبواب البلد، وملكه الفرنج، وفارقه أهلُه، وتفرّقوا في البلاد، وحملوا ما أطاقوا، وتركوا ما عجزوا عنه، ولم يعرض الفرنج لأحد منهم، ولم يبق إلاّ الضعيف عجز عن الحركة.

وملك الفرنج البلد في الثالث والعشرين من جُمادى الأولى من السنة، وكان فتحه هناً عظيماً من المسلمين، فإنّه من أحصن البلاد وأمنعها، فاللّه يعيده إلى الإسلام، ويقرّ أعين المسلمين بفتحه، بمحمّد وآله.

ذكر عزل البُرسقيّ عن شحنكيّة العراق وولاية برنقش الزكويّ

في هذه السنة عُزل البرسقيُّ عن شحنكيّة العراق، ووليها سعد الدولة برنقش الزكويّ.

وسبب ذلك : أنّ البرسقيّ نفر عنه المسترشد باللّه، فأرسل إلى السلطان محمود يلتمس منه أن يعزل البرسقيّ عن العراق ويعيده إلى الموصل، فأجابه السلطان إلى ذلك، وأرسل إلى البرسقيّ يأمره بالعود إلى الموصل، والاشتغال بجهاد الفرنج، فلمّا علم البرسقيّ الخبر شرع في جباية الأموال، ووصل نائب برنقش، فسلّم إليه البرسقيُّ الأمر، وأرسل السلطان ولداً له صغيراً مع أمّه إلى البرسقيّ ليكون عنده، فلمّا وصل الصغير إلى العراق خرجت العساكر والمواكب إلى لقائه، وحُملت له الإقامات، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، وتسلّمه البرسقيُّ، وسار إلى الموصل، وهو ووالدته معه.

ولمّا سار البرسقيُّ إلى الموصل كان عماد الدين زنكي بن آقسنقَر بالبصرة قد سيّره البرسقيُّ إليها ليحميها، فظهر من حمايته لها ما عجب منه الناس، ولم يزل (٦٢٣/١٠)يقصد العرب ويقاتلهم في حِللهم، حتّى أبعدوا إلى البرّ، فأرسل إليه البرسقي يأمره باللحاق به، فقال لأصحابه : قد ضجرنا ممّا نحن فيه :كلّ يوم للموصل أمير جديد، ونريد نخدمه، وقد رأيتُ أن أسير إلى السلطان فأكون معه؛ فأشاروا عليه بذلك، فسار إليه، فقدم عليه بأصبهان فأكرمه، وأقطعه البصرة وأعاده إليها.

ذكر ملك البُرسقيّ مدينة حلب

في هذه السنة، في ذي الحجّة، ملك آقسنقَر البرسقيُّ مدينة حلب وقلعتها.

وسبب ذلك :أنّ الفرنج لمّا ملكوا مدينة صور، على ما ذكرناه، طمعوا، وقويت نفوسهم، وتيقّنوا الاستيلاء على بلاد الشام، واستكثروا من الجموع، ثم وصل إليهم دُبَيْس بن صدقة، صاحب الحِلّة، فاطمعهم طمعاً ثانياً، لا سيّما في حلب، وقال لهم:إنّ أهلها شيعة، وهم يميلون إليّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلّموا البلد إليّ. وبذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرة، وقال :إنّني أكون هاهنا

نائباً عنكم ومطيعاً لكم. فساروا معه إليها وحصروها، وقاتلوا قتالاً شديداً، ووطّنوا نفوسهم على المقام الطويل، وأنّهم لا يفارقونها حتّى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحرّ.

فلمّا رأى أهلها ذلك ضعفت نفوسهم، وخافوا الهلاك، وظهر لهم من صاحبهم تمرتاش الوهن والعجز، وقلّت الأقوات عندهم، فلمّا رأوا ما دُفِعوا إليه من هذه الأسباب، أعملوا الرأي في طريق يتخلّصون به، فرأوا أنّه ليس لهم غير البرسقيّ، صاحب الموصل، فأرسلوا إليه يستنجدونه ويسألونه (٦٢٤/١٠)المجيء إليهم ليسلّموا البلد إليه، فجمع عساكره وقصدهم، وأرسل إلى من بالبلد، وهو في الطريق، يقول :إنّني لا أقدر على الوصول إليكم، والفرنج يقاتلونكم، إلاّ إذا سلّمتم القلعة إلى نوّابي، وصار أصحابي فيها، فإنّني لا أدري ما يقدّره اللّه تعالى إذا أنا لقيتُ الفرنج، فإن انهزمنا منهم وليست حلب بيد أصحابي حتّى أحتمي أنا وعسكري بها، لم يبق منّا أحد، وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها.

فأجابوه إلى ذلك، وسلّموا القلعة إلى نوّابه، فلمّا استقرّوا فيها، واستولوا عليها، سار في العساكر التي معه، فلمّا أشرف عليها رحل الفرنج عنها، وهو يراهم، فأراد من في مقدّمة عسكره أن يحمل عليهم، فمنعهم هو بنفسه، وقال: قد كفينا شرّهم، وحفظنا بلدنا منهم، والمصلحة تَرْكُهم حتّى يتقرّر أمر حلب ونصلح حالها ونكثر ذخائرها، ثم حينئذ نقصدهم ونقاتلهم، فلمّا رحل الفرنج خرج أهل حلب ولقوه، وفرحوا به، وأقام عندهم حتّى أصلح الأمور وقرّرها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة انقطعت الأمطار في العراق، والموصل، وديار الجزيرة، والشام، وديار بكر، وكثير من البلاد، فقلّت الأقوات، وغلت الأسعار في جميع البلاد، ودام إلى سنة تسع عشرة [وخمسمائة].

وفيها وصل منصور بن صدقة أخو دُبَيْس إلى بغداد تحت الاستظهار، فمرض بها، فأحضر الخليفة الأطبّاء وأمرهم بمعالجته، وأحضره عنده، وجُعل في حجرة، وأدخل أصحابه إليه. (٦٢٥/١٠)

وفيها سار دُبَيْس من الشام، بعد رحيله عن حلب، وقصد الملك طغرل، فأغراه بالخليفة، وأطمعه في العراق، وكان ما نذكره سنة تسع عشرة إن شاء اللّه تعالى.

وفيها مات الحسن بن الصبّاح، مقدّم الإسماعيليّة، صاحب ألَمُوت، وقد تقدّم من أخباره ما يُعلم به محله من الشجاعة والرأي والتجربة.

وفيها أيضاً توفّي داود ملك الأبخاز، وشمس الدولة بن نجم الدين إيلغازي.

وفيها ثار أهل آمِد بمن فيها من الإسماعيليّة، وكانوا قد كثروا، فقتلوا منهم نحو سبعمائة رجل، فضعف أمرهم بها بعد هذه الوقعة.

وفيها، في صفر، توفّي محمّد بن مرزوق بن عبد الرزّاق الزعفرانيّ، وهو من أصحاب الخطيب البغداديّ.

وفيها توفّي أحمد بن عليّ بن برهان أبو الفتح، الفقيه المعروف بابن الحمّاميّ لأنّ أباه كان حمّاميّاً، وكان حنبليّاً، تفقه على ابن عُقيل، ثم صار شافعيّاً، وتفقّه على الغزاليّ والشاشيّ. (٦٢٦/١٠)

سنة تسع عشرة وخمسمائة

ذكر وصول الملك طغرل ودُبَيْس ابن صدقة إلى العراق وعودهما عنه

قد ذكرنا مسير دُبَيْس بن صدقة إلى الملك طغرل من الشام، فلمّا وصل إليه لقيه، وأكرمه، وأحسن إليه، وجعله من أعيان خواصّه وأمرائه، فحسّن له دُبَيْس قَصْد العراق، وهوّن أمره عليه، وضمن له أنّه يملكه، فسار معه إلى العراق، فوصلوا دَقُوقَا في عساكر كثيرة. فكتب مجاهد الدين بهروز من تكريت يخبر الخليفة خبرهما، فتجهّز للمسير ومَنْعهما، وأمر يرنقش الزكويّ، شِحنة العراق، أن يكون مستعدّاً للحرب، وجمع العساكر، والأمراء البكجيّة، وغيرهم، فبلغت عدّة العساكر اثنتي عشر ألفاً سوى الرجّالة، وأهل بغداد، وفرّق السلاح.

وبرز خامس صفر وبين يدَيْه أرباب الدولة رجّالة، وخرج من باب النصر، وكان قد أمر بفتحه تلك الأيّام، وسمّاه باب النصر، ونزل صحراء الشمّاسيّة، ونزل يرنقش عند السّبتي، ثم سار فنزل الخالص تاسع صفر.

فلمّا سمع طغرل بخروج الخليفة عدل إلى طريق خُراسان، وتفرّق أصحابه في النهب والفساد، ونزل هُوَ رباط جَلولاء، فسار إليه الوزير جلال الدين بن صدقة في عسكر كثير، فنزل الدُّسكرة، وتوجّه طغرل ودُبَيْس إلى الهارونيّة وسار الخليفة فنزل بالدُّسكرة هو والوزير، واستقرّ الأمر بين (٦٢٧/١٠)دُبَيْس وطُغرل أن يسيرا حتّى يعبرا دَيالَى وتامَرّا، ويقطعا جسر النّهروان، ويُقيم دُبَيْس ليحفظ المعابر، ويتقدّم طغرل إلى بغداذ فيملكها وينهبها، فساروا على هذه القاعدة، فعبرا تامرّا، ونزل طغرل بينه وبين دَيالى.

وسار دُبَيْس على أن يلحقه طغرل، فقدّر اللّه تعالى أنّ الملك طغرل لحقه حمّى شديدة، ونزل عليهم من المطر ما لم يشاهدوا مثله، وزادت المياه وجاءت السيول والخليفة بالدُّسكرة، وسار

دُبَيْس في مائتَيْ فارس، وقصد معرّة النُّعمان وهو تَعبان سهران، وقد لقي هو وأصحابه من المطر والبلل ما آذاهم، وليس معهم ما يأكلون، ظنّاً منهم أن طغرل وأصحابه يلحقونهم، فتأخّروا لما ذكرناه، فنزلوا جياعاً قد نالهم البرد، وإذا قد طلع عليهم ثلاثون جملاً تحمل الثياب المخيطة، والعمائم، والأقبية، والقلانس، وغيرها من الملبوس، وتحمل أيضاً أنواع الأطعمة المصنوعة، قد حُملت من بغداد إلى الخليفة، فأخذ دُبَيْس الجميع، فلبسوا الثياب الجُدد، ونزعوا الثياب الندية، وأكلوا الطعام، وناموا في الشمس ممّا نالهم تلك الليلة.

وبلغ الخبر أهل بغداد، فلبسوا السلاح، وبقوا يحرسون الليل والنهار، ووصل الخبر إلى الخليفة والعسكر الذين معه أنّ دُبَيْساً قد ملك بغداد، فرحل من الدَّسكرة، ووقعت الهزيمة على العسكر إلى النُّهروان، وتركوا أثقالهم ملقاة بالطريق لا يلتفت إليها أحد، ولولا أن الله تعالى لطف بهم بحمّى الملك طغرل وتأخّره لكان قد هلك العسكر، والخليفة أيضاً، وأُخذوا، وكان السواقي مملوءةً بالوحل والماء من المسيل، فتمزّقوا، ولو لحقهم مائة فارس لهلكوا.

ووصلت رايات الخليفة ودُبَيْس وأصحابه نيام، وتقدّم الخليفة،(٦٢٨/١٠)وأشرف على دَيَالَى، ودُبَيْس نازل غرب النُّهروان، والجسر ممدود شرق النهروان، فلمّا أبصر دبيس شمسة الخليفة قبّل الأرض بين يدَي الخليفة وقال: أنا العبد المطرود، فليعفُ أمير المؤمنين عن عبده، فرقّ الخليفة له، وهمّ بصلحه، حتّى وصل الوزير ابن صدقة فثناه عن رأيه، وركب دُبَيْس، ووقف بإزاء عسكر يرنقش الزكويّ يحادثهم ويتماجن معهم، ثم أمر الوزير الرجّالة فعبروا ليمدّوا الجسر آخر النهار، فسار حينئذ دُبَيْس عائداً إلى الملك طغرل، وسيّر الخليفة عسكراً مع الوزير في أثره، وعاد إلى بغداد فدخلها، وكانت غيبته خمسة وعشرين يوماً.

ثم إنّ الملك طغرل ودُبَيْساً عادا وسارا إلى السلطان سنجَر، فاجتازا بهمَذان، فقسّطا على أهلها مالاً كثيراً، وأخذاه وغابا في تلك الأعمال، فبلغ خبرهم السلطان محمود، فجدّ السير إليهم، فانهزموا من بين يدَيْه، وتبعتهم العساكر، فدخلوا خراسان إلى السلطان سنجَر، وشكوا إليه من الخليفة ويرنقش الزكويّ.

ذكر فتح البُرسقيّ كفرطاب وانهزامه من الفرنج

في هذه السنة جمع البرسقيُّ عساكره وسار إلى الشام، وقصد كفرطابَ وحصرها، فملكها من الفرنج، وسار إلى قلعة عَزَاز، وهي من أعمال حلب من جهة الشمال، وصاحبها جوسلين، فحصرها، فاجتمعت الفرنج، فارسها وراجلها، وقصدوه ليرحّلوه عنها، فلقيهم وضرب معهم مصافّاً، واقتتلوا قتالاً شديداً صبروا كلّهم فيه، فانهزم المسلمون وقُتل منهم وأُسر كثير.

وكان عدد القتلى أكثر من ألف قتيل من المسلمين، وعاد منهزماً إلى حلب، (٦٢٩/١٠)فخلّف بها ابنَهُ مسعوداً، وعبر الفرات إلى الموصل ليجمع العساكر ويعاود القتال، وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر قتل المأمون بن البطائحيّ

في هذه السنة، في رمضان، قبض الآمر بأحكام الله العلويّ، صاحب مصر، على وزيره أبي عبد الله بن البطائحيّ، الملقّب بالمأمون، وصلبه وإخوته.

وكان ابتداء أمره أنّ أباه كان من جواسيس الأفضل بالعراق، فمات ولم يخلّف شيئاً، فتزوّجت أمّه وتركته فقيراً، فاتّصل بإنسان يتعلّم البناء بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير، فدخل مع الحمّالين إلى دار الأفضل أمير الجيوش، مرّة بعد أخرى، فرآه الأفضل خفيفاً رشيقاً، حسن الحركة، حلو الكلام، فأعجبه، فسأل عنه، فقيل هو ابن فلان، فاستخدمه مع الفرّاشين، ثم تقدّم عنده، وكبرت منزلته، وعلت حالته، حتّى صار وزيراً.

وكان كريماً، واسع الصدر، قتّالاً، سفّاكاً للدماء، وكان شديد التحرّز، كثير التطلّع إلى أحوال الناس من العامّة والخاصّة من سائر البلاد: مصر، والشام، والعراق، وكثر الغمّازون في آيامه.

وأمّا سبب قتله فإنّه كان قد أرسل الأمير جعفراً أخا الآمر ليقتل الآمر ويجعله خليفة، وتقرّرت القاعدة بينهما على ذلك، فسمع بذلك أبو الحسن بن أبي أُسامة، وكان خصيصاً بالآمر، قريباً منه، وقد ناله من الوزير أذىً واطّراح، (٦٣٠/١٠)فحضر عند الآمر وأعلمه الحال، فقبض عليه وصلبه؛ وهذا جزاء من قابل الإحسان بالإساءة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّي شمس الدولة سالم بن مالك، صاحب قلعة جَعْبَر، وتُعرف قديماً بقلعة دُوس.

وفيها قُتل القاضي أبو سعد محمّد بن نصر بن منصور الهرويُّ بهمذان، قتله الباطنيّة، وكان قد مضى إلى خراسان في رسالة الخليفة إلى السلطان سنجَر، فعاد فقُتل، وكان ذا مروءة غزيرة، وتقدُّم كثير في الدولة السلجوقيّة.

وفي هذه السنة توفّي هلال بن عبد الرحمن بن شريح بن عمر بن أحمد، وهو من ولد بلال بن رباح، مؤذّن رسول الله ﷺ وكنيته أبو سعد، طاف البلاد، وسمع وقرأ القرآن، وكان موته بسَمَرْقَنْد. (٦٣١/١٠)

سنة عشرين وخمسمائة

ذكر حرب الفرنج والمسلمين بالأندلس

في هذه السنة عظم شأن ابن رُدمير الفرنجيّ بالأندلس، واستطال على المسلمين، فخرج في عساكر كثيرة من الفرنج، وجاس في بلاد الإسلام، وخاضها، حتى وصل إلى قريب قُرْطُبَة، وأكثر النهب والسبي والقتل، فاجتمع المسلمون في جيش عظيم زائد الحدّ في الكثرة، وقصدوه، فلم يكن له بهم طاقة، فتحصّن منهم في حصن منيع له اسمه أرنيسول، فحصروه، وكبسهم ليلاً، فانهزم المسلمون، وكثر القتل فيهم، وعاد إلى بلاده.

ذكر قصد بلاد الإسماعيليّة بخراسان

في هذه السنة أمر الوزير المختصّ أبو نصر أحمد بن الفضل، وزير السلطان سنجر، بغزو الباطنيّة، وقَتْلهم أين كانوا، وحيثما ظُفر بهم، ونَهْب أموالهم، وسبي حريمهم، وجهّز جيشاً إلى طُرَيْثيث، وهي لهم، وجيشاً إلى بَيْهَقَ من أعمال نيسابور، وكان في هذه الأعمال قرية مخصوصة بهم اسمها طرز، ومقدّمهم بها إنسان اسمه الحسن بن سمين. (٦٣٢/١٠)

وسيّر إلى كلّ طرف من أعمالهم جميعاً من الجند، ووصّاهم أن يقتلوا من لقوه منهم، فقصد كلّ طائفة إلى الجهة التي سُيّرتْ إليها، فأمّا القرية التي بأعمال بَيهَق فقصدها العسكر، فقتلوا كلّ من بها، وهرب مقدّمهم، وصعد منارة المسجد وألقى نفسه منها فهلك؛ وكذلك العسكر المنفذ إلى طُرَيْثيث قتلوا من أهلها فأكثروا، وغنموا من أموالهم وعادوا.

ذكر ملك الإسماعيليّة قلعة بانياس

في هذه السنة عظم أمر الإسماعيليّة بالشام، وقويت شوكتهم، وملكوا بانياس في ذي القعدة منها.

وسبب ذلك أنّ بهرام ابن اخت الأسداباذيّ، لمّا قُتل خاله ببغداد، كما ذكرناه، هرب إلى الشام، وصار داعي الإسماعيليّة فيه؛ وكان يتردّد في البلاد، ويدعو أوباش الناس وطغامهم إلى مذهبه، فاستجاب له منهم مَن لا عقل له، فكثر جمعه، إلاّ أنّه يخفي شخصه فلا يُعرف، وأقام بحلب مُدّة، ونَفَر إلى إيلغازي صاحبها.

وأراد إيلغازي أن يعتضد به لاتقاء الناس شرّه وشر أصحابه، لأنّهم كانوا يقتلون كلّ من خالفهم، وقصد من يتمسّك بهم، وأشار إيلغازي على طغتكين، صاحب دمشق، بأن يجعله عنده لهذا السبب، فقبل رأيه، وأخذه إليه، فأظهر حينئذ شخصه، وأعلن دعوته، فكثر أتباعه من كلّ من يريد الشرّ والفساد، وأعانه الوزير أبو طاهر بن سعد المرغينانيُّ قصداً للاعتضاد به على ما يريد، فعظم شرّه واستفحل أمره، وصار أتباعه أضعاف ما كانوا، فلولا (٦٣٣/١٠)أنّ عامّة دمشق يغلب عليهم مذاهب أهل السُّنّة، وأنّهم يشدّدون عليه فيما ذهب إليه لملك البلد.

ثم إنّ بهرام رأى من أهل دمشق فَظاظة وغلظة عليه، فخاف عاديتهم، فطلب من طغتكين حصناً يأوي إليه هو ومن اتبعه، فأشار الوزير بتسليم قلعة بانياس إليه، فسُلّمتْ إليه، فلمّا سار إليها اجتمع إليه أصحابه من كلّ ناحية، فعظم حينئذ خطبه، وجلّت المحنة بظهوره، واشتدّ الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين، لا سيّما أهل السُّنّة والسِّتر والسلامة، إلاّ أنّهم لا يقدرون على أن ينطقوا بحرفٍ واحدٍ، خوفاً من سلطانهم أوّلاً، ومن شرّ الإسماعيليّة ثانياً، فلم يقدم أحد على إنكار هذه الحال، فانتظروا بهم الدوائر.

ذكر قتل البُرسقيّ وملك ابنه عزّ الدين مسعود

في هذه السنة، ثامن ذي القعدة، قُتل قسيم الدولة آقسنقَر البرسقيُّ، صاحب الموصل، بمدينة الموصل، قتلته الباطنيّة يوم جمعة بالجامع، وكان يصلّي الجمعة مع العامّة، وكان قد رأى تلك الليلة في منامه أنّ عدّة من الكلاب ثارت به، فقتل بعضها، ونال منه الباقي ما آذاه، فقصّ رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدّة أيّام، فقال: لا أترك الجمعة لشيء أبداً، فغلبوا على رأيه، ومنعوه من قصد الجمعة، فعزم على ذلك، فأخذ المُصحف يقرأ فيه، فأوّل ما رأى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ [الأحزاب:٣٨]؛ فركب إلى الجامع على عادته، وكان يصلّي في الصفّ الأوّل، فوثب عليه بضعة (٦٣٤/١٠)عشر نفساً عدّة الكلاب التي رآها، فجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده منهم ثلاثة، وقُتل رحمه اللّه.

وكان مملوكاً تركيّاً، خيّراً، يحبّ أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خير الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلّي من الليل متهجّداً.

حكى لي والدي، رحمه اللّه، عن بعض من كان يخدمه قال: كنتُ فرّاشاً معه، فكان يصلّي كلّ ليلة كثيراً، وكان يتوضّأ هو بنفسه، ولا يستعين بأحد، ولقد رأيته في بعض ليالي الشتاء بالموصل، وقد قام من فراشه، وعليه فرجيّة صغيرة وبر، وبيده إبريق، فمشى نحو دجلة ليأخذ ماء، فمنعني البرد من القيام، ثم إنّني خفتُهُ، فقمتُ إلى بين يدَيْه لآخذ الإبريق منه، فمنعني وقال: يا مِسكين! ارجع إلى مكانك، فإنّه برد؛ فاجتهدتُ لآخذ الإبريق، فلم يعطني، وردّني إلى مكاني ثم توضّأ وقام يصلّي.

ولمّا قُتل كان ابنه عزّ الدين مسعود بحلب يحفظها من الفرنج، فأرسل إليه أصحاب أبيه بالخبر، فسار إلى الموصل ودخلها أوّل ذي الحجّة، وأحسن إلى أصحاب أبيه بها، وأقرّ وزيره أبا غالب بن

عبد الخالق بن عبد الرزّاق على وزارته، وأطاعه الأمراء والأجناد، وانحدر إلى خدمة السلطان محمود، فأحسن إليه وأعاده، ولم يختلف عليه أحد من أهل بلاد أبيه.

ووقع البحث عن حال الباطنيّة، والاستقصاء عن أخبارهم، فقيل إنّهم كانوا يجلسون إلى إسكاف بدرب إيليا، فأُحضر ووُعد الإحسان إن أقرّ، فلم يقرّ، فهُدّد بالقتل، فقال: إنّهم وردوا من سنين لقتله، فلم يتمكّنوا منه إلى (٦٣٥/١٠)الآن؛ فقُطعت يداه ورجلاه وذكرُهُ، ورُجم بالحجارة فمات.

ومن العجب أن صاحب أنطاكية أرسل إلى عزّ الدين بن البُرسقيّ يخبره بقتل والده قبل أن يصل إليه الخبر، وكان قد سمعه الفرنج قبله لشدّة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلاميّة.

ولمّا استقرّ عزّ الدين في الولاية قبض على الأمير بابكر بن ميكائيل، وهو من أكابر الأمراء، وطلب منه أن يسلّم ابن أخيه قلعة إربل إلى الأمير فضل وأبي عليّ، ابنَيْ أبي الهيجاء، وكان ابن أخيه قد أخذها منه سنة سبع عشرة [وخمسمائة]، فراسل ابن أخيه، فسلّم إربل إلى المذكورَيْن.

ذكر الاختلاف الواقع بين المسترشد بالله والسلطان محمود

كان قد جرى بين يرنقش الزكويّ، شِحنة بغداد، وبين نوّاب الخليفة المسترشد بالله نفرة تهدّده الخليفة فيها، فخافه على نفسه، فسار عن بغداد إلى السلطان محمود في رجب من هذه السنة، وشكا إليه، وحذّره جانب الخليفة، وأعلمه أنّه قد قاد العساكر، ولقي الحروب، وقويت نفسه، ومتى لم تعاجلْه بقصد العراق ودخول بغداد، ازداد قوّةً وجمعاً، ومنعه عنه، وحينئذ يتعذّر عليه ما هو الآن بيده.

فتوجّه السلطان نحو العراق، فأرسل إليه الخليفة يعرّفه ما هي البلاد وأهلها عليه من الضعف والوهن، بسبب دُبَيْس، وإفساد عسكره فيها، وأنّ الغلاء قد اشتدّ بالناس لعدم الغلّات والأقوات، لهرب الأكرة عن بلادهم، ويطلب (٦٣٦/١٠)منه أن يتأخّر هذه الدفعة إلى أن ينصلح حال البلاد ثم يعود إليها، فلا مانع له عنها؛ وبذل له على ذلك مالاً كثيراً.

فلمّا سمع السلطان هذه الرسالة قوي عنده ما قرّره الزكويّ، وأبى أن يجيب إلى التأخّر، وصمّم العزم وسار إليها مجدّاً، فلمّا بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهله وحُرَمه ومَنْ عنده من أولاد الخلفاء إلى الجانب الغربيّ في ذي القعدة، مُظهراً للغضب والانتزاح عن بغداد إنْ قصدها السلطان، فلمّا خرج من داره بكى الناس جميعهم بكاء عظيماً لم يشاهد مثله، فلمّا علم السلطان ذلك اشتدّ عليه، وبلغ منه كلّ مبلغ، فأرسل يستعطف الخليفة، ويسأله العود إلى داره، فأعاد الجواب أنّه لا بدّ من عودك هذه الدفعة، فإن الناس هلكى بشدّة الغلاء، وخراب البلاد، وأنّه لا يرى في دينه أن يزداد ما بهم، وهو يشاهدهم، فإن عاد السلطان، وإلاّ رحل هو عن العراق لئلاّ يشاهد ما يلقى الناسُ بمجيء العساكر.

فغضب السلطان لقوله، ورحل نحو بغداد، وأقام الخليفة بالجانب الغربيّ، فلمّا حضر عيد الأضحى خطب الناسَ، وصلّى بهم، فبكى الناس لخطبته وأرسل عفيفاً الخادم، وهو من خواصّه، في عسكر إلى واسط ليمنع عنها نوّاب السلطان، فأرسل السلطان إليه عماد الدين زنكي بن آقسنقر، وكان له حينئذ البصرة، وقد فارق البرسقيّ، واتصل بالسلطان، فأقطعه البصرة.

فلمّا وصل عفيف إلى واسط سار إليه عماد الدين، فنزل بالجانب الشرقيّ، وكان عفيف بالجانب الغربيّ، فأرسل إليه عماد الدين يحذّره القتال، ويأمره بالانتزاح عنها، فأبى ولم يفعل، فعبر إليه عماد الدين، واقتتلوا، فانهزم (٦٣٧/١٠)عسكر عفيف، وقُتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر مثلهم، وتغافل عن عفيف حتّى نجا لمودّة كانت بينهما.

ثم إنّ الخليفة جمع السفن جميعها إليه، وسدّ أبواب دار الخلافة سوى باب النُّوبيّ، وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام فيه لحفظ الدار، ولم يبق من حواشي الخليفة بالجانب الشرقي سواه.

ووصل السلطان إلى بغداد في العشرين من ذي الحجّة، ونزل بباب الشمّاسيّة ودخل بعض عسكره إلى بغداد، ونزلوا في دور الناس، فشكا الناس ذلك إلى السلطان، فأمر بإخراجهم، وبقي فيها من له دار، وبقي السلطان يراسل الخليفة بالعود، ويطلب الصُّلح، وهو يمتنع.

وكان يجري بين العسكرَيْن مناوشة، والعامّة من الجانب الغربيّ يسبّون السلطان أفحش سبّ، ثم إنّ جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة، ونهبوا التاج، وحجر الخليفة، أوّل المحرّم سنة إحدى وعشرين [وخمسمائة]، وضجّ أهلُ بغداد من ذلك، فاجتمعوا ونادوا الغزاة، فأقبلوا من كلّ ناحية، ولمّا رآهم الخليفة خرج من السُّرادق والشمسة على رأسه، والوزير بين يدَيْه، وأمر بضرب الكوسات والبوقات، ونادى بأعلى صوته: يا آل هاشم! وأمر بتقديم السفن، ونصب الجسر وعبر الناس دفعةً واحدةً، وكان له في الدار ألف رجل مختفين في السراديب، فظهروا، وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب، فأُسر منهم جماعة من الأمراء، ونهب العامّة دار وزير السلطان، ودور جماعة من الأمراء، ودار عزيز الدين المستوفي، ودار الحكيم أوحد الزمان الطبيب، وقُتل منهم خلق كثير في الدروب.

ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقيّ، ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد، وأمر بحفر الخنادق، فحُفرت بالليل، وحفظوا بغداد من عسكر السلطان، ووقع الغلاء عند العسكر، واشتدّ الأمر عليهم، وكان القتال كلّ (٦٣٨/١٠)يوم عليهم عند أبواب البلد وعلى شاطئ دجلة، وعزم عسكر الخليفة على أن يكبسوا عسكر السلطان، فغدر بهم الأمير أبو الهيجاء الكرديّ، صاحب إربل، وخرج كأنّه يريد القتال، فالتحق هو وعسكره بالسلطان.

وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين بواسط يأمره أن يحضر هو بنفسه، ومعه المقاتلة في السفن، وعلى الدوابّ في البرّ، فجمع كلّ سفينة في البصرة إلى بغداد، وشحنها بالرجال المقاتلة، وأكثر من السلاح، وأصعد، فلمّا قارب بغداد أمر كلّ من معه في السفن وفي البرّ بلبس السلاح، وإظهار ما عندهم من الجَلَد والنهضة، فسارت السفن في الماء، والعسكر في البرّ على شاطئ دجلة قد انتشروا وملؤوا الأرض برّاً وبحراً، فرأى الناس منظراً عجيباً، كبر في أعينهم، وملأ صدورهم، وركب السلطان والعسكر إلى لقائهم، فنظروا إلى ما [لم] يروا مثله، وعظم عماد الدين في أعينهم، وعزم السلطان على قتال بغداد حينئذ، والجدّ في ذلك في البرّ والماء، فلمّا رأى الإمام المسترشد بالله الأمر على هذه الصورة، وخروج الأمير أبي الهيجاء من عنده، أجاب إلى الصلح، وتردّدت الرسل بينهما، فاصطلحا، واعتذر السلطان ممّا جرى، وكان حليماً يسمع سبّه بأذنه فلا يعاقب عليه، وعفا عن أهل بغداد جميعهم.

وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداد، فلم يفعل، وقال: لا تساوي الدنيا فعل مثل هذا. وأقام ببغداد إلى رابع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين [وخمسمائة]، وحمل الخليفة من المال إليه كما استقرّت القاعدة عليه، وأهدى له سلاحاً وخيلاً وغير ذلك، فمرض السلطان ببغداد، فأشار عليه الأطبّاء بمفارقتها، فرحل إلى هَمَذان، فلمّا وصلها عوفي. (٦٣٩/١٠)

ذكر مصاف بين طغتكين أتابك والفرنج بالشام

في هذه السنة اجتمعت الفرنج وملوكها وقمامصتها وكنودها وساروا إلى نواحي دمشق فنزلوا بمرج الصفّر عند قرية يقال لها سقحبا بالقرب من دمشق، فعظم الأمر على المسلمين واشتدّ خوفهم، وكاتب طغتكين أتابك صاحبها أُمراء التركمان من ديار بكر وغيرها وجمعهم وكان هو قد سار عن دمشق إلى جهة الفرنج واستخلف بها ابنه تاج الملوك بوري فكان بها، كما جاءت طائفة أحسن ضيافتهم وسيّرهم إلى أبيه، فلمّا اجتمعوا سار بهم طغتكين إلى الفرنج فالتقوا أواخر ذي الحجّة واقتتلوا، واشتدّ القتال، فسقط طغتكين عن فرسه، فظنّ أصحابه أنّه قُتل، فانهزموا وركب طغتكين فرسه ولحقهم وتبعهم الفرنج وبقي التركمان لم يقدروا أن يلحقوا بالمسلمين في الهزيمة فتخلّفوا،فلمّا رأوا فرسان الفرنج قد تبعوا المنهزمين وأنّ معسكرهم وراجلهم ليس له مانع ولا حامٍ حملوا في الرجّالة فقتلوهم ولم يسلم منهم إلاّ الشريد، ونهبوا معسكر الفرنج وخيامهم وأموالهم وجميع ما معهم وفي جملته كنيسة وفيها من الذهب والجواهر مالا يقوّم كثرةً فنهبوا ذلك جميعه وعادوا إلى دمشق سالمين لم يعدم منهم أحدٌ، ولمّا رجع الفرنج من أثر المنهزمين ورأوا رجّالتهم قتلى وأموالهم منهوبة تمّموا منهزمين لا يلوي الأخ على أخيه، وكان هذا من الغريب أنّ طائفتين تنهزمان كلّ واحدة منهما من صاحبتها. (٦٤٠/١٠)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة حصر الفرنج رَفَنِيَة من أرض الشام، وهي بيد المسلمين، وضيّقوا عليها فملكوها.

وفيها توفّي أبو الفتح أحمد بن محمّد بن محمّد الغزاليّ، الواعظ، وهو أخو الإمام أبي حامد محمّد، وقد ذمّه أبو الفرج بن الجوزيّ بأشياء كثيرة منها: روايته في وعظه الأحاديث التي ليست له بصحيحة، والعجب أنّه يقدح فيه بهذا، وتصانيفه هو ووعظه محشوّ به، مَمْلُوءٌ منه، نسأل الله أن يعيذنا من الوقيعة في الناس، ثم يا ليت شعري أما كان للغزاليّ حسنة تُذكر مع ما ذكر من المساوئ التي نسبها إليه لئلاّ يُنسب إلى الهوى والغرض؟ (٦٤١/١٠)

سنة إحدى وعشرين وخمسمائة

ذكر ولاية الشهيد أتابك زنكي شحنكيّة العراق

في هذه السنة، في ربيع الآخر، أسند السلطان محمود شحنكيّة العراق إلى عماد الدين زنكي بن آقسنقر.

وكان سبب ذلك: أنّ عماد الدين لمّا أصعد من واسط في التجمّل والجمع الذي ذكرناه، وقام في حفظ واسط والبصرة وتلك النواحي القيام الذي عجز غيره عنه، عظم في صدر السلطان وصدور أمرائه، فلمّا عزم السلطان على المسير عن بغداد نظر فيمن يصلح أن يلي شحنكيّة العراق ويأمن معه من الخليفة، فاعتبر أمراءه، وأعيان دولته، فلم ير فيهم من يقوم في هذا الأمر مقام عماد الدين، فاستشار في ذلك، فكلٌّ أشار به، وقالوا: لا نقدر على رقع هذا الخرق، وإعادة ناموس هذه الولاية، ولا تَقْوى نفس أحد على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكي، فوافق ما عنده، فأسند إليه الولاية وفوضها [إليه] مضافة إلى ماله من الأقطاع، وسار عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق فكان الأمر كما ظنّ. (٦٤٢/١٠)

ذكر عود السلطان عن بغداد ووزارة أنوشروان بن خالد

في هذه السنة، في عاشر ربيع الآخر، سار السلطان محمود عن بغداد، بعد تقرير القواعد بها، ولمّا عزم على المسير حمل إليه الخليفة الخِلع، والدوابّ الكثيرة، فقبل ذلك جميعه وسار.

ولمّا أبعد عن بغداد قبض على وزيره أبي القاسم عليّ بن القاسم الأنساباذيّ في رجب، لأنّه اتّهمه بمماألأة المسترشد باللّه لقيامه في أمره وإتمام الصُّلح مقاماً ظهر أثره، فسعى به أعداؤه، فلمّا قبض عليه أرسل السلطان إلى بغداد فأحضر شرف الدين أنوشِروان بن خالد، وكان مُقيماً بها، فلمّا علم بذلك جاءته الهدايا من كلّ أحد، حتّى من الخليفة، وسار عن بغداد خامس شعبان، فوصل إلى السلطان، وهو بأصبهان، فخلع عليه خِلع الوزارة، وبقي فيها نحو عشرة أشهر، ثم استعفى منها، وعزل نفسه، وعاد إلى بغداد في شعبان سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة.

وأما الوزير أبو القاسم فإنّه بقي مقبوضاً إلى أن خرج السلطان سنجَر إلى الريّ سنة اثنتين وعشرين، فأخرجه من الحبس في ذي الحجّة، وأعاده إلى وزارة السلطان محمود، وهي الوزارة الثانية.(٦٤٣/١٠)

ذكر وفاة عزّ الدين بن البُرسقيّ وولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها

في هذه السنة توفّي عزّ الدين مسعود بن البرسقيّ، وهو صاحب الموصل، وكان موته بمدينة الرَّحْبة، وسبب مسيره إليها: أنّه لمّا استقامت أموره في ولايته، وراسل السلطان محموداً، وخطب له ولاية ما كان أبوه يتولاّه من الموصل، وغيرها، أجاب السلطان إلى ما طلب، فرتّب الأمور وقرّرها، فكثر جنده؛ وكان شجاعاً، شهماً، فطمع في التغلّب على بلاد الشام، فجمع عساكره وسار إلى الشام يريد قصد دمشق، فابتدأ بالرَّحبة، فوصل إليها ونازلها، وقام يحاصرها، فأخذه مرض حادٌّ وهو محاصر لها، فتسلّم القلعة ومات بعد ساعة، فندم من بها على تسليمها إليه.

ولمّا مات بقي مطروحاً على بساط لم يُدْفن، وتفرّق عنه عسكره، ونهب بعضهم بعضاً، فشُغلوا عنه، ثم دُفن بعد ذلك، وقام بعده أخٌ له صغير، واستولى على البلاد مملوك للبرسقيّ يُعرف بالجاولي، ودبّر أمر الصبيّ، وأرسل إلى السلطان يطلب أن يقرّر البلاد على ولد البرسقيّ، وبذل الأموال الكثيرة على ذلك.

وكان الرسول في هذا الأمر القاضي بهاء الدين أبو الحسن عليُّ بن القاسم الشهرزوريُّ، وصلاح الدين محمّد أمير حاجب البرسقيّ، فحضرا دركاه السلطان ليخاطبا في ذلك، وكانا يخافان جاولي، ولا يرضيان بطاعته والتصرّف بما يحكم به، فاجتمع صلاح الدين، ونصير الدين جقر الذي صار نائباً عن أتابك عماد الدين بالموصل، وكان بينهما مصاهرة، وذكر له صلاح الدين ما (٦٤٤/١٠) ورد فيه، وأفشى إليه سرّه، فخوّفه نصير الدين من جاولي، وقبّح عنده طاعته، وقرّر في نفسه أنّه إنّما أبقاه وأمثاله لحاجته إليهم، ومتى أُجيب إلى مطلوبه لا يبقي على أحدٍ منهم.

وتحدّث معه في المخاطبة في ولاية عماد الدين زنكي، وضمن له الولايات والأقطاع الكثيرة، وكذلك للقاضي بهاء الدين الشهرزوريّ، فأجابه إلى ذلك وأحضره معه عند القاضي بهاء الدين، وخاطباه في هذا الأمر، وضمنا له كلّ ما أراده فوافقهما على ما طلبا، وركب هو وصلاح الدين إلى دار الوزير، وهو حينئذ شرف الدين أنوشِروان بن خالد، وقالا له: قد علمتَ أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكّن الفرنج منها، وقويت شوكتهم بها، فاستولوا على أكثرها، وقد أصبحَتْ ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر، ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين، وقد كان البرسقيّ مع شجاعته، وتجربته، وانقياد العساكر إليه، يكفّ بعض عاديتهم وشرّهم، فمُذ قُتل ازداد طمعهم، وهذا ولده طفلٌ صغيرٌ، ولا بدّ للبلاد من رجلٍ شهْمٍ، شجاع، ذي رأي وتجربة، يذبّ عنها ويحفظها ويحمي حوزتها، وقد أنهيْنا الحال لئلاّ يجري خللٌ، أو وهنٌ على الإسلام والمسلمين، فيختصّ اللوم بنا، ويقال: ألاّ أنهيتم إلينا جليّة الحال؟

فرفع الوزير قولهما إلى السلطان، فاستحسنه، وشكرهما عليه، وأحضرهما، واستشارهما فيمن يصلح للولاية، فذكرا جماعة منهم عماد الدين زنكي، (٦٤٥/١٠) وبذلا عنه، تقرّباً إلى خزانة السلطان، مالاً جليلاً، فأجاب السلطان إلى توليته، لما يعلمه من كفايته لما يليه، فأحضره وولاّه البلاد كلّها، وكتب منشوره بها.

وسار فبدأ بالبوازيج ليملكها ويتقوّى بها ويجعلها ظهره، لأنّه خاف من جاولي أنّه ربّما صدّه عن البلاد، فلمّا دخل البوازيج سار عنها إلى الموصل. فلمّا سمع جاولي بقربه من البلد خرج إلى تلقّيه ومعه جميع العسكر، فلمّا رآه جاولي نزل عن فرسه وقبّل الأرض بين يدَيْه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فدخلها في رمضان، وأقطع جاولي الرَّحبة وسيّره إليها، وأقام بالموصل يُصلح أمورها، ويقرّر قواعدها، فولّى نصير الدين دزداريّة القلعة بالموصل، وجعل إليه سائر دزداريّة القلاع، وجعل صلاح الدين محمّداً أمير حاجب، وبهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها، وزاده أملاكاً، وأقطاعاً، واحتراماً، وكان لا يصدر إلاّ عن رأيه.

فلمّا فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عُمَر، وبها مماليك البرسقيّ، فامتنعوا عليه، فحصرهم وراسلهم، وبذل لهم البذول الكثيرة إن سلّموا، فلم يجيبوه إلى ذلك، فجدّ في قتالهم،

وبينه وبين البلد دجلة، فأمر الناس، فألقوا أنفسهم في الماء ليعبروه إلى البلد، ففعلوا، وعبر بعضهم سباحةً، وبعضهم في السفن، وبعضهم في الأكلاك، وتكاثروا على أهل الجزيرة، وكانوا قد خرجوا عن البلد إلى أرض بين الجزيرة ودجلة، تُعرف بالزَّلاّقة، ليمنعوا من يريد عبور دجلة، فلمّا عبر العسكر إليهم قاتلوهم ومانعوهم، فتكاثر عسكر عماد الدين عليهم، فانهزم أهل البلد، ودخلوه، وتحصّنوا بأسواره، واستولى عماد الدين على الزَّلاّقة، فلمّا رأى من بالبلد ذلك ضعفوا، ووهنوا وأيقنوا أنّ البلد يُملك سلماً، أو عنوةً، فأرسلوا يطلبون الأمان، فأجابهم إلى (٦٤٦/١٠)ذلك، وكان هو أيضاً مع عسكره بالزَّلاّقة، فسلّموا البلد إليه، فدخله هو وعسكره.

ثم إنّ دجلة زادت تلك الليلة زيادة عظيمة لحقت سور البلد، وصارت الزَّلاّقة ماء، فلو أقام ذلك اليوم لغرق هو وعسكره، ولم ينج منهم أحد، فلمّا رأى الناس ذلك أيقنوا بسعادته، وأيقنوا أنّ أمراً هذا بدايته لعظيم.

ثم سار عن الجزيرة إلى نَصيبين، وكانت لحسام الدين تمرتاش، صاحب ماردين، فلمّا نازلها سار حسام الدين إلى ابن عمّه ركن الدولة داود بن سُقمان ابن أرتُق، وهو صاحب حصن كيفا وغيرها، فاستنجده على أتابك زنكي، فوعده النجدة بنفسه، وجمع عسكره، وعاد تمرتاش إلى ماردين، وأرسل رقاعاً على أجنحة الطيور إلى نَصيبين يعرّف مَن بها من العسكر أنّه وابن عمّه سائران في العسكر الكثير إليهم، وإزاحة عماد الدين عنهم، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام.

فبينما أتابك في خيمته إذ سقط طائر على خيمة تقابله، فأمر به فصيد، فرأى فيه رقعة، فقرأها وعرف ما فيها، فأمر أن يُكتب غيرها، يقول فيها: إنّني قصدتُ ابنَ عمّي وكن الدولة، وقد وعدني النُّصرة وجمع العساكر، وما يتأخّر عن الوصول أكثر من عشرين يوماً، ويأمرهم بحفظ البلد هذه المدّة إلى أن يصلوا؛ وجعلها في الطائر وأرسله، فدخل نصيبين، فلمّا وقف من بها على الرقعة سُقط في أيديهم، وعلموا أنّهم لا يقدرون أن يحفظوا البلد هذه المدّة، فأرسلوا إلى الشهيد وصالحوه، وسلّموا البلد إليه، فيطل على تمرتاش وداود ما كانا عزما عليه، وهذا من غريب ما يُسْمَع.

فلمّا ملك نصيبين سار عنها إلى سِنجار، فامتنع من بها عليه، ثم صالحوه (٦٤٧/١٠)وسلّموا البلد إليه، وسيّر منها الشحن إلى الخابور، فملكه جميعه، ثم سار إلى حَرّان، وهي للمسلمين، وكانت الرُّها، وسَروج، والبيرة، وتلك النواحي جميعها للفرنج، وأهل حَرّان معهم في ضرّ عظيم، وضيق شديد، لخلوّ البلد من حام يذبّ عنها، وسلطان يمنعها، فلمّا قارب حرّان خرج أهل البلد وأطاعوه وسلّموا إليه، فلمّا ملكها أرسل إلى جوسلين، صاحب الرُّها وتلك البلاد، وراسله، وهادنه مدّةً يسيرة، وكان غرضه أن يتفرّغ لإصلاح البلاد، وتجديد الأجناد، وكان أهمّ الأمور إليه أن يعبر الفُرات إلى الشام، ويملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشاميّة، فاستقرّ الصُّلح بينهم، وأمن الناس، ونحن نذكر ملك حلب، إن شاء الله تعالى.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قُتل مُعين الملك أبو نصر أحمد بن الفضل، وزير السلطان سنجَر، قتلته الباطنيّة، وكان له في قتالهم آثار حسنة، ونيّة صالحة، فرزقه الله الشهادة.

وفيها ولّى السلطان شحنكيّة بغداد مجاهد الدين بهروز، لمّا سار أتابك زنكي إلى الموصل.

وفيها رُتّب الحسن بن سليمان في تدريس النظاميّة ببغداد.

وفيها أوقع السلطان سنجَر بالباطنيّة في المَسُوت، فقتل منهم خلقاً كثيراً قيل كانوا يزيدون على عشرة آلاف نفس. (٦٤٨/١٠)

وتوفّي هذه السنة عليُّ بن المبارك أبو الحسن المقري، المعروف بابن الفاعوس، الحنبليُّ، في شوّال، وكان صالحاً.

وفي شوّال توفّي محمّد بن عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد أبو الحسن بن أبي الفضل الهمذانيُّ الفرضيُّ، صاحب التاريخ. (٦٤٩/١٠)

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة

ذكر ملك أتابك عماد الدين زنكي مدينة حلب

في هذه السنة، أوّل المحرّم، ملك عماد الدين زنكي بن آقسنقر مدينة حلب وقلعتها، ونحن نذكر كيف كان سبب ملكها، فنقول: قد ذكرنا مُلك البرسقيّ لمدينة حلب وقلعتها سنة ثماني عشرة [وخمسمائة]، واستخلافه بها ابنه مسعوداً، ولمّا قُتل البرسقيُّ سار مسعود عنها إلى الموصل وملكها، واستناب بحلب أميراً اسمه قومان، ثم إنّه ولّى عليها أميراً اسمه قتلغ أبه، وسيّره بتوقيع إلى قومان بتسليمها، فقال: بيني وبين عزّ الدين علامة لم أرها، ولا أسلّم إلاّ بها؛ وكانت العلامة بينهما صورة غزال، وكان مسعود بن البرسقيّ حسن التصوير، فعاد قتلغ أبه إلى مسعود، وهو يحاصر الرَّحبة، فوجده قد مات، فعاد إلى حلب مُسرعاً.

وعرف الناس موته، فسلّم الرئيس فضائل بن بديع البلد، وأطاعه المقدّمون به، واستزلوا قومان من القلعة، بعد أن منح عند وفاة صاحبه مسعود، وأعطوه ألف دينار، فتسلّم قلعة الحاضنة

في الرابع والعشرين من جُمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين [وخمسمائة]، فظهر منه بعد أيّام جور شديد، وظلم عظيم، ومدّ يده إلى أموال النّاس، لا سيّما التركات، فإنّه أخذها، وتقرب إليه الأشرار، فنفرت قلوب الناس منه.

وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبّار بن أُرتُق الذي كان قديماً (٦٥٠/١٠) صاحبها، فأطاعه أهلها، وقاموا ليلة الثلاثاء ثاني شوّال فقبضوا على كلّ من كان بالبلد من أصحاب قتلغ آبه، وكان أكثرهم يشربون في البلد صُبحة العيد، وزحفوا إلى القلعة، فتحصّن قتلغ آبه فيها بمن معه، فحصروه، ووصل إلى حلب حسّان صاحب مَنبج، وحسن صاحب بُزاعة، لإصْلاح الأمر فلم ينصلح.

وسمع الفرنج بذلك، فتقدّم جوسلين بعسكره إلى المدينة، فصونع بمال، فعاد عنها، ثم وصل بعده صاحب أنطاكية في جمع من الفرنج، فخندق الحلبيّون حول القلعة، فمنع الداخل والخارج إليها من ظاهر البلد، وأشرف النّاس على الخطر العظيم إلى منتصف ذي الحجّة من السنة.

وكان عماد الدين قد ملك الموصل والجزيرة، فسيّر إلى حلب الأميرَ سُنقر دراز، والأميرَ حسن قراقوش، وهما من أكابر أُمراء البرسقيّ، وقد صاروا معه في عسكر قوي، ومعه التوقيع من السلطان بالموصل، والجزيرة، والشام، فاستقرّ الأمر أن يسير بدر الدولة بن عبد الجبّار وقتلغ آبه إلى الموصل إلى عماد الدين، فسارا إليه، وأقام حسن قراقوش بحلب والياً عليها ولاية مستعارة، فلمّا وصل بدر الدولة وقتلغ آبه إلى عماد الدين أصلح بينهما، ولم يردّ واحداً منهما إلى حلب، وسيّر حاجبَهُ صلاح الدين محمّداً الياغيسيانيّ إليها في عسكر، فصعد إلى القلعة، ورتّب الأمور، وجعل فيها والياً.

وسار عماد الدين زنكي إلى الشام في جيوشه وعساكره، فملك في طريقه مدينة مَنبج وبُزاعة، وخرج أهل حلب إليه، فالتقوه، واستبشروا بقدومه، ودخل البلد واستولى عليه، ورتّب أموره، وأقطع أعماله الأجناد والأمراء، فلمّا فرغ من الذي أراده قبض على قتلغ آبه وسلّمه إلى ابن بديع، فكحله بداره بحلب، فمات قتلغ آبه، واستوحش ابن بديع، فهرب إلى قلعة جَعْبر واستجار بصاحبها، فأجاره. (٦٥١/١٠)

وجعل عماد الدين في رئاسة حلب أبا الحسن عليّ بن عبد الرزّاق، ولولا أنّ الله تعالى منّ على المسلمين بملك أتابك ببلاد الشام لملكها الفرنج لأنّهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشاميّة، وإذا علم ظهير الدين طغتكين بذلك جمع عساكره وقصد بلادهم وحصرها وأغار عليها، فيضطرّ الفرنج إلى الرحيل لدفعه عن بلادهم، فقدر الله تعالى أنّه توفّي هذه السنة، فخلا لهم الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله، فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين، ففعل بالفرنج ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر قدوم السلطان سَنْجَر إلى الرَّيّ

في هذه السنة خرج السلطان سنجَر من خُراسان إلى الرَّيّ في جيش كثير.

وكان سبب ذلك: أنّ دُبَيْس بن صدقة لمّا وصل إليه هو والملك طغرل على ما ذكرناه، لم يزل يُطمعه في العراق، ويُسهّل عليه قصده، ويُلقي في نفسه أنّ المسترشد بالله والسلطان محمود متّفقان على الامتناع منه، ولم يزل به حتّى أجابه إلى المسير إلى العراق، فلمّا ساروا وصل إلى الرَّيّ، وكان السلطان محمود بهمَذان، فأرسل إليه السلطان سنجَر يستدعيه إليه لينظر هل هو على طاعته أم قد تغيّر على ما زعم دُبَيْس، فلمّا جاءه الرسول بادر إلى المسير إلى عمّه، فلمّا وصل إليه أمر العسكر جميعه بلقائه، وأجلسه معه على التخت، وبالغ في إكرامه، وأقام عنده إلى منتصف ذي الحجّة، ثم عاد السلطان سنجَر إلى خُراسان، وسلّم دُبَيْسا إلى السلطان محمود، ووصّاه بإكرامه وإعادته إلى بلده، ورجع محمود إلى همَذان ودُبَيْس معه، ثم سارا إلى العراق، فلمّا (٦٥٢/١٠)قاربا بغداد خرج الوزير إلى لقائه، وكان قدومه تاسع المحرّم سنة ثلاث وعشرين [وخمسمائة].

وكان الوزير أبو القاسم الأنساباذيّ قد قبض السلطان محمود عليه، فلمّا اجتمع بالسلطان سنجَر أمر بإطلاقه فأطلقه، وقرّره سنجَر في وزارة ابنته التي زوّجها بالسلطان محمود، فلمّا وصل معه إلى بغداد أعاده محمود إلى وزارته في الرابع والعشرين من المحرّم، وهي وزارته الثانية.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ثامن صفر توفّي أتابك طغتكين صاحب دمشق، وهو مملوك الملك تُتُش بن ألب أرسلان، وكان عاقلاً، خيّراً، كثير الغزوات والجهاد للفرنج، حسن السيرة في رعيّته، مؤثراً للعدل فيهم، وكان لقبه ظهير الدين، ولمّا توفّي ملك بعده ابنه تاج الملوك بوري، وهو أكبر أولاده، بوصيّة من والده له بالملك، وأقرّ وزير أبيه أبو عليّ طاهر بن سعد المزدقانيّ على وزارته.

وفيها، مستهلّ رجب، توفّي الوزير جلال الدين أبو عليّ بن صدقة، وزير الخليفة، وكان حسن السيرة، جميل الطريقة، متواضعاً، محبّاً لأهل العلم، مكرماً لهم، وله شعر حسن، فمنه في مدح المسترشد بالله:

وجدتُ الورْقَ كالماء طَعماً ورقّةً ... وأنّ أميرَ المؤمنينَ زُلالُهُ

وصوّرتُ معْنى العقلِ شخصاً مصوّراً ... وأنّ أميرَ المؤمنينَ مِثالُهُ

ولولا طريقُ الدّينِ والشّرعِ والتُّقى ... لقلتُ من الإعظامِ جَلّ جَلالُهُ

(٦٥٣/١٠) وأُقيم في النيابة بعده شرف الدين عليُّ بن طِراد الزينبيُّ، ثم جُعل وزيراً، وخُلع عليه آخر شهور ربيع الآخر من سنة ثلاث وعشرين [وخمسمائة]، ولم يزرْ للخلفاء من بني العبّاس هاشميٌّ غيره.

وفيها هبّت ريح شديدة اسودّت لها الآفاق، وجاءت بتراب أحمر يُشْبه الرمل، وظهر في السماء أعمدة كأنّها نار، فخاف الناس، وعدلوا إلى الدعاء والاستغفار، فانكشف عنهم ما يخافونه. (٦٥٤/١٠)

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

ذكر قدوم السلطان محمود إلى بغداد

في هذه السنة، في المحرّم، قدم السلطان محمود بغداد، بعد عوده من عند عمّه السلطان سنجَر، ومعه دُبَيْس بن صدقة، ليصلح حاله مع الخليفة المسترشد باللّه، فتأخّر دُبَيْس عن السلطان، ثم دخل بغداد، ونزل بدار السلطان، واسترضى عنه الخليفة، فامتنع الخليفة من الإجابة إلى أن يُولّى دُبَيْس شيئاً من البلاد، وبذل مائة ألف دينار لذلك.

وعلم أتابك زنكي أنّ السلطان يريد أن يولّى دُبَيْس الموصل، فبذل مائة ألف دينار، وحضر بنفسه إلى خدمة السلطان، فلم يشعر السلطان به إلاّ وهو عند السِّتر، وحمل معه الهدايا الجليلة، فأقام عند السلطان ثلاثة أيّام، وخلع عليه، وأعاده إلى الموصل.

وخرج السلطان يتصيّد، فعمل له شيخ المَزْرَفة دعوةً عظيمة امتار منها جميع عسكر السلطان، وأدخله إلى حمّام في داره، وجعل فيه عِوَض الماء ماء الورد، فأقام السلطان إلى رابع جُمادى الآخرة، وسار عنها إلى هَمَذان، وجعل بهروز على شحنكيّة بغداد، وسُلّمت إليه الحِلّة أيضاً. (٦٥٥/١٠)

ذكر ما فعله دُبَيْس بالعراق وعود السلطان إلى بغداد

لمّا رحل السلطان إلى همَذان ماتت زوجته، وهي ابنة السلطان سنجَر، وهي التي كانت تُعنى بأمر دُبَيْس، وتُدافع عنه، فلمّا ماتت انحلّ أمر دُبَيْس.

ثم إن السلطان مرض مرضاً شديداً، فأخذ دُبَيْس ابناً له صغيراً وقصد العراق، فلمّا سمع المسترشد باللّه بذلك جَنّد الأجناد، وحشد، وكان بهروز بالحِلّة، فهرب منها، فدخلها دُبَيْس في شهر رمضان، فلمّا سمع السلطان الخبر عن دُبَيْس أحضر الأميرَيْن قَزل، والأحمديليّ، وقال: أنتما ضمنتما دُبَيْساً منّي، وأزيده متكمّا. فسار الأحمديليّ إلى العراق، إلى دُبَيْس، ليكفّ شرّه عن البلاد، ويحضره إلى السلطان، فلمّا سمع دُبَيْس الخبر أرسل إلى الخليفة يستعطفه، ويقول: إن رضيتَ عنّي فأنا أردّ أضعاف ما أخذتُ، وأكون العبد المملوك؛ فتردّد الرسل ودُبَيْس يجمع الأموال، والرجال، فاجتمع معه عشرة آلاف فارس، وكان قد وصل في ثلاثمائة فارس، ووصل الأحمديليُّ بغداد في شوّال، وسار في أثر دُبَيْس.

ثم إنّ السلطان سار إلى العراق، فلمّا سمع دُبَيْس بذلك أرسل إليه هدايا جليلة المقدار، وبذل ثلاثمائة حصان مُعلية بالذهب، ومائتَيْ ألف دينار، ليرضى عنه السلطان والخليفة، فلم يجبه إلى ذلك، ووصل السلطان إلى بغداد في ذي القعدة، فلقيه الوزير الزينبيُّ، وأرباب المناصب، فلمّا تيقّن دُبَيْس وصوله رحل إلى البرّيّة، وقصد البصرة وأخذ منها أموالاً كثيرة، وما للخليفة والسلطان هناك من الدخل، فسيّر السلطان إثره عشرة آلاف فارس، ففارق البصرة ودخل البرّيّة. (٦٥٦/١٠)

ذكر قتل الإسماعيليّة بدمشق

قد ذكرنا فيما تقدّم قَتْل إبراهي الأسداباذيّ ببغداد، وهَرب ابن أخته بَهرام إلى الشام، ومُلْكه قلعة بانياس، ومسيره إليها، ولمّا فارق دمشق أقام له بها خليفة يدعو الناس إلى مذهبه، فكثروا وانتشروا، وملك هو عدّة حصون من الجبال منها القدموس وغيره، وكان بوادي التَّيْم، من أعمال بعلبك، أصحاب مذاهب مختلفة من النُّصيريّة، والدرزيّة، والمجوس، وغيرهم، وأميرهم اسمه الضحّاك، فسار إليهم بهرام سنة اثنتين وعشرين [وخمسمائة] وحصرهم وقاتلهم، فخرج إليه الضحّاك في ألف رجل، وكبس عسكر بَهرام فوضع السيف فيهم، وقتل منهم مقتلة كثيرة، وقُتل بَهرام وانهزم من سلم، وعادوا إلى بانياس على أقبح صورة.

وكان بَهرام قد استخلف في بانياس رجلاً من أعيان أصحابه اسمه إسماعيل، فقام مقامه، وجمع شمل من عاد إليه منهم، وبثّ دُعاته في البلاد، وعاضده المزدقانيُّ أيضاً، وقوّى نفسه على ما عنده من الامتعاض بهذه الحادثة، والهمّ بسببها.

ثم إنّ المَزْدقانيّ أقام بدمشق عَوَضاً عن بهرام إنساناً اسمه أبو الوفاء، فقوي أمره وعلا شأنه وكثر أتباعه، وقام بدمشق، فصار المتولّي على من بها من المسلمين وحكمه أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك. ثم إنّ المزدقانيّ راسل الفرنج ليسلّم إليهم مدينة دمشق، ويسلّموا إليه مدينة صور، ويستقرّ الأمر بينهم على ذلك، وتقرر بينهم الميعاد يوم جمعة ذكروه، وقرر المزدقانيُّ مع الإسماعيليّة أن (٦٥٧/١٠) يحتاطوا ذلك اليوم بأبواب الجامع فلا يمكّنوا أحداً من الخروج منه ليجيء الفرنج ويملكوا البلاد، فبلغ الخبر تاج الملوك، صاحب دمشق، فاستدعى المزدقانيَّ إليه، فحضر، وخلا معه، فقتله تاج الملوك، وعلّق رأسه على باب

القلعة، ونادى في البلد بقتل الباطنيّة، فقُتل منهم ستّة آلاف نفس، وكان ذلك منتصف رمضان من السنة، وكفى اللّه المسلمين شرّهم، وردّ على الكافرين كيدهم.

ولمّا تمّت هذه الحادثة بدمشق على الإسماعيليّة خاف إسماعيل والي بانياس أن يثور به وبمن معه الناس فيهلكوا، فراسل الفرنجَ، وبذل لهم تسليم بانياس إليهم، والانتقال إلى بلادهم، فأجابوه، فسلّم القلعة إليهم، وانتقل هو ومن معه من أصحابه إلى بلادهم، ولقوا شدّة وذلّة وهواناً، وتوفّي إسماعيل أوائل سنة أربع وعشرين [وخمسمائة]، وكفى اللّه المؤمنين شرّهم.

ذكر حصر الفرنج دمشق وانهزامهم

لمّا بلغ الفرنجَ قتلُ المزدقانيّ والإسماعيليّة بدمشق عظم عليهم ذلك، وتأسّفوا على دمشق حيث لم يتمّ لهم ملكها، وعمّتهم المصيبة، فاجتمعوا كلّهم: صاحب القدس، وصاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، وغيرهم من الفرنج وقمامصتهم، ومن وصل إليهم في البحر للتجارة، والزيارة، فاجتمعوا في خلق عظيم نحو ألفَيْ فارس، وأمّا الراجل فلا يحصى، وساروا إلى دمشق ليحصروها.

ولمّا سمع تاج الملوك بذلك جمع العرب والتركمان، فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس، ووصل الفرنج في ذي الحجّة، فنازلوا البلد، وأرسلوا إلى أعمال (٦٥٨/١٠)دمشق لجمع الميرة والإغارة على البلاد، فلمّا سمع تاج الملوك أنّ جمعاً كثيراً قد ساروا إلى حَوْران لنهبه، وإحضار الميرة، سيّرَ أميراً من أمرائه، يُعرف بشمس الخواصّ، في جمع من المسلمين إليهم، وكان خروجهم في ليلة شاتية، كثيرة المطر، ولقوا الفرنج من الغد، فواقعوهم، واقتتلوا، وصبر بعضهم لبعض، فظفر بهم المسلمون وقتلوهم، فلم يفلتْ منهم غير مقدّمهم ومعه أربعون رجلاً، وأخذوا ما معهم، وهي عشرة آلاف دابّة موقّرة، وثلاثمائة أسير، وعادوا إلى دمشق لم يمسَسْهم قرح، فلمّا علم من عليها من الفرنج ذلك ألقى اللّه في قلوبهم الرعب، فرحلوا عنها شبه المنهزمين، وأحرقوا ما تعذّر عليهم حَمْله من سلاح وميرة وغير ذلك، وتبعهم المسلمون، والمطر شديد، والبرد عظيم، يقتلون كلّ من تخلّف منهم، فكثر القتلى منهم، وكان نزولهم ورحيلهم في ذي الحجّة من هذه السنة.

ذكر ملك عماد الدين زنكي مدينة حماة

في هذه السنة ملك عماد الدين زنكي بن آقسنقَر، صاحب الموصل، مدينة حماة.

وسبب ذلك: أنّه عبر الفرات إلى الشام، وأظهر أنّه يريد جهاد الفرنج، وأرسل إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين، صاحب دمشق، يستنجده، ويطلب منه المعونة على جهادهم، فأجاب إلى المراد، وأرسل من أخذ له العهود والمواثيق، فلمّا وصلت الوثقة جرّد عسكراً من دمشق مع جماعة من الأمراء، وأرسل إلى (٦٥٩/١٠)ابنه سونج، وهو بمدينة حَماة، يأمره بالنزول إلى العسكر، والمسير معهم إلى زنكي، ففعل ذلك، فساروا جميعهم، فوصلوا إليه، فأكرمهم، وأحسن لقاءهم، وتركهم أيّاماً.

ثم إنّه غدر بهم، فقبض على سونج ولد تاج الملوك، وعلى جماعة الأمراء المقدّمين، ونهب خيامهم وما فيها من الكراع، واعتقلهم بحلب، وهرب من سواهم، وسار من يومه إلى حماة، فوصل إليها وهي خالية من الجند الحُماة الذابّين، فملكها واستولى عليها، ورحل عنها إلى حمص، وكان صاحبها قرجان بن قراجة معه في عسكره، وهو الذي أشار عليه بالغدر بولد تاج الملوك، فقبض عليه، ونزل على حمص وحصرها، وطلب من قرجان صاحبها أن يأمر نوّابه وولده الذين فيها بتسليمها، فأرسل إليهم بالتسليم، فلم يقبلوا منه، ولا التفتوا إلى قوله، فأقام عليها محاصراً لها، ومقاتلاً لمن فيها مدّة طويلة، فلم يقدر على ملكها، فرحل عنها عائداً إلى الموصل، واستصحب معه سونج بن تاج الملوك ومن معه من الأمراء الدمشقيّين.

وتردّدت الرسل في إطلاقهم بينه وبين تاج الملوك، واستقرّ الأمر على خمسين ألف دينار، فأجاب تاج الملوك إلى ذلك، ولم ينتظم بينهم أمر.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ملك بيمند، صاحب أنطاكية، حصن القدموس من المسلمين.

وفي هذه السنة أيضاً وثب الإسماعيليّة على عبد اللطيف بن الخجنديّ، رئيس (٦٦٠/١٠)الشافعيّة بأصبهان، فقتلوه، وكان ذا رئاسة عظيمة وتحكّم كثير.

وفي هذه السنة توفّي الإمام أبو الفتح أسعد بن أبي نصر الميهنيّ، الفقيه الشافعيّ، مدرّس النّظاميّة ببغداد، وله طريقة مشهورة في الخلاف، وتفقّه على أبي المظفّر السمعانيّ، وكان له قبول عظيم عند الخليفة، والسلطان، وسائر الناس.

وفيها توفّي حمزة بن هبة اللّه بن محمّد بن الحسن الشريف العلويّ، الحسنيّ، النّيسابوريّ، سمع الحديث الكثير، ورواه، ومولده سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وجمع مع شرف النسب شرف النفس والتقوى، وكان زيديّ المذهب.(٦٦١/١٠)

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

ذكر ملك السلطان ينجر مدينة سمرقند من محمّد خان ملك محمود بن محمّد خان المذكور

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، ملك السلطان سنجَر مدينة سَمَرْقَند.

وسبب ذلك: أنّه كان قد رتّب فيها، لمّا ملكها أوّلاً، أرسلان خان محمّد ابن سليمان بن بغراخان داود، فأصابه فالج، فاستناب ابناً له يُعرف بنصرخان، وكان شهماً، شجاعاً، وكان بسمرقند إنسان علويّ، فقيه، مدرّس، إليه الحلّ والعقد، والحكم في البلد، فاتّفق هو ورئيس البلد على قتل نصرخان، فقتلاه ليلاً، وكان أبوه محمّد خان غائباً، فعظم عليه واشتدّ، وكان له ابن آخر غائب في بلاد تركستان، فأرسل إليه واستدعاه، فلمّا قارب سَمَرْقَند خرج العلويّ ورئيس البلد إلى استقباله، فقتل العلويّ في الحال، وقبض على الرئيس.

وكان والده أرسلان خان قد أرسل إلى السلطان سنجَر رسولاً يستدعيه، ظنّاً منه أنّ ابنه لا يتمّ أمره مع العلويّ والرئيس، فتجهّز سنجَر وسار يريد سمرقند، فلمّا ظفر ابن أرسلان خان بهما ندم على استدعاء السلطان سنجَر، فأرسل إليه يعرّفه أنّه قد ظفر بالعلويّ والرئيس، وأنّه وابنه على الطاعة، ويسأله العود إلى خراسان، فغضب سنجَر من ذلك، وأقام أيّاماً، فبينما هو في الصيد إذ رأى اثني عشر رجلاً في السلاح التامّ، فقبض عليهم وعاقبهم فأقرّوا أنّ محمّد خان أرسلهم ليقتلوه، فقتلهم، ثم سار إلى سمرقند فملكها (٦٦٢/١٠)عنوةً، ونهب بعضها، ومنع من الباقي، وتحصّن منه محمّد خان ببعض تلك الحصون، فاستنزله السلطان سنجَر بأمان، بعد مدّة، فلمّا نزل إليه أكرمه وأرسله إلى ابنته زوجة السلطان سنجَر، فبقي عندها إلى أن توفّي.

وأقام سنجَر بسَمَرْقَند مدّةً حتّى أخذ المال والسلاح والخزائن، وسلّم البلد إلى الأمير حسن تكين، وعاد إلى خُراسان، فلم يلبث حسن تكين أن مات، فملّك سنجر بعده عليها محمود بن محمّد خان بن سليمان بن داود، المقدّم ذكره، وقيل إنّ السبب غير ما ذكرناه، وسيرد ذكره سنة ستّ وثلاثين للحاجة إلى ذكره هناك.

ذكر فتح عماد الدين زنكي حصن الأثارب وهزيمة الفرنج

لمّا فرغ عماد الدين زنكي من أمر البلاد الشاميّة، حلب وأعمالها، وما ملكه، وقرّر قواعده، عاد إلى الموصل، وديار الجزيرة، ليستريح عسكره، ثم أمرهم بالتجهّز للغزاة، فتجهّزوا وأعدّوا واستعدّوا، وعاد إلى الشام، وقصد حلب، فقوي عزمه على قصد حصن الأثارب، ومحاصرته، لشدّة ضرره على المسلمين.

وهذا الحصن بينه وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربيّة، حتّى على رحىً لأهل حلب بظاهر باب الجنان، بينها وبين البلد عرض الطريق؛ وكان أهل البلد معهم في ضرّ شديد، وضيق، كلّ يوم قد أغاروا عليهم، ونهبوا أموالهم. فلمّا رأى الشهيد هذه الحال صمّم العزم على حصر هذا الحصن، فسار إليه ونازله. (٦٦٣/١٠)

فلمّا علم الفرنج بذلك جمعوا فارسهم وراجلهم، وعلموا أنّ هذه وقعة لها ما بعدها، فحشدوا وجمعوا، ولم يتركوا من طاقتهم شيئاً إلاّ استنفذوه، فلمّا فرغوا من أمرهم ساروا نحوه، فاستشار أصحابه فيما يفعل، وكلٌّ أشار بالعود عن الحصن، فإن لقاء الفرنج في بلادهم خطر لا يُدرى على أي شيء تكون العاقبة، فقال لهم: إنّ الفرنج متى رأونا قد عُدنا من أيديهم طمعوا وساروا في أثرنا، وخربوا بلادنا، ولا بدّ من لقائهم على كلّ حال.

ثم ترك الحصن وتقدّم إليهم، فالتقوا، واصطفّوا للقتال، وصبر كلّ فريق لخصْمه، واشتدّ الأمر بينهم، ثم إن الله تعالى أنزل نصره على المسلمين، فظفروا، وانهزم الفرنج أقبح هزيمة، ووقع كثير من فرسانهم في الأسر، وقُتل منهم خلق كثير، وتقدّم عماد الدين إلى عسكره بالإنجاز، وقال: هذا أوّل مصافٍ عملناه معهم، فلنُذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم؛ ففعلوا ما أمرهم؛ ولقد اجتزت بتلك الأرض سنة أربع وثمانين وخمسمائة ليلاً، فقيل لي: إنّ كثيراً من العظام باقٍ إلى ذلك الوقت.

فلمّا فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا إلى الحصن فتسلّموه عنوةً، وقتلوا وأسروا كلّ من فيه، وأخربه عماد الدين، وجعله دكّاً، وبقي إلى الآن خراباً، ثم سار منه إلى قلعة حارم، وهي بالقرب من أنطاكية، فحصرها وهي أيضاً للفرنج، فبذل له أهلها نصف دخل بلد حارم، وهادنوه، فأجابهم إلى ذلك، وعاد عنهم وقد استدار المسلمون بتلك الأعمال، وضعفت قُوَى الكافرين، وعلموا أنّ البلاد قد جاءها مالم يكن لهم في حساب، وصار قُصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع. (٦٦٤/١٠)

ذكر ملك عماد الدين زنكي أيضاً مدينة سرجي ودارا

لمّا فرغ من أمر الأثارب وتلك النواحي، عاد إلى ديار الجزيرة، وكان قد بلغه عن حسان الدين تمرتاش بن إيلغازي، صاحب ماردين، وابن عمّه ركن الدولة داود بن سُقمان، صاحب حصن كيفا، قوارص، فعاد إليهم، وحصر مدينة سرجي، وهي بين ماردين ونصيبين، فاجتمع حسام الدين، وركن الدولة، وصاحب آمِد، وغيرهم، وجمعوا خلقاً كثيراً من التركمان بلغت عدّتهم عشرين ألفاً، وساروا إليه، فتصافّوا بتلك النواحي، فهزمهم عماد الدين وملك سرجي.

فحكى لي والدي قال: لمّا انهزم ركن الدولة داود قصد بلد جزيرة ابن عمر ونهبه، فبلغ الخبر إلى عماد الدين، فسار نحو الجزيرة، وأراد دخول بلد داود، ثم عاد عنه لضيق مسالكه، وخشونة الجبال التي في الطريق، وسار إلى دَارَا فملكها، وهي من القلاع في تلك الأعمال.

ذكر وفاة الآمر وخلافة الحافظ العلويّ

في هذه السنة، ثاني ذي القعدة، قُتل الآمر بأحكام اللّه أبو عليّ بن المستعلي العلويُّ، صاحب مصر، خرج إلى متنزّهٍ له، فلمّا عاد وثب عليه الباطنيّة فقتلوه، لأنّه كان سيّئ السيرة في رعيّته، وكانت ولايته تسعاً وعشرين سنة (٦٦٥/١٠)وخمسة أشهر، وعمرُه أربعاً وثلاثين سنة، وهو العاشر من ولد المهديّ عبيد اللّه الذي ظهر بسِجِلْمَاسَةَ وبنى المَهديّة بإفريقية، وهو أيضاً العاشر من الخلفاء العلويّين من أولاد المهديّ أيضاً.

ولمّا قُتل لم يكن له ولد بعده، فولىَ بعده ابن عمّه الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم بن المستنصر باللّه، ولم يبايع بالخلافة، وإنّما بويع له لينظر في الأمر نيابة، حتّى يكشف عن حمل إن كان للآمر فتكون الخلافة فيه، ويكون هو نائباً عنه.

ومولد الحافظ بعَسقلان، لأنّ أباه خرج من مصر إليها في الشدّة، فأقام بها، فولد ابنه عبد المجيد هناك ولمّا ولىَ استوزر أبا عليّ أحمد بن الأفضل ابن بدر الجماليّ، واستبدّ بالأمر، وتغلّب على الحافظ، وحجر عليه، وأودعه في خزانة، ولا يدخل إليه إلاّ من يريده أبو عليّ، وبقي الحافظ له اسم لا معنى تحته، ونقل أبو عليّ كلّ ما [كان] في القصر إلى داره من الأموال وغيرها، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن قُتل أبو عليّ سنة ستّ وعشرين [وخمسمائة] فاستقامت أمور الحافظ، وحكم في دولته، وتمكّن من ولايته وبلاده.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّيت الخاتون ابنة السلطان سنجَر، وهي زوجة السلطان محمود. (٦٦٦/١٠)

وفيها قُتل بيمند الفرنجيُّ صاحب أنطاكية.

وفيها توفّي نصير الدين محمود بن مؤيّد الملك بن نظام الملك، في شعبان، ببغداد، ووقع الحريق في داره بعد وفاته، وفي حظائر الحطب، والسوق التُّشيّ، فذهب من الناس أموال كثيرة.

وفيها وزر الرئيس أبو الذواد المفرج بن الحسن بن الصوفيّ لصاحب دمشق تاج الملوك.

وفيها كان الرصد بالدار السلطانيّة، شرقيّ بغداد، تولاّه البديع الاصطرلابي، ولم يتمّ.

وفيها ظهر ببغداد عقارب طيارة ذوات شوكتَيْن، فنال الناسَ منها خوف شديد، وأذىً عظيم.

وفيها، في ذي الحجّة، خرج الملك مسعود بن محمّد من خُراسان، وكان عند عمّه السلطان سنجَر، ووصل إلى ساوة، ووقع الإرجاف أنّ عَزْمه على مخالفة أخيه السلطان محمود قويّ، وأنّ عمّه سنجَر أمره بذلك، فاستشعر السلطان محمود، وسار عن بغداد إلى همذان، فلمّا وصل إلى كَرمانْشاهان، وصل إليه أخوه الملك مسعود وخدمه، ولم يظهر للإرجاف أثر، فأقطعه السلطان مدينة كَنْجَةَ وأعمالها وسيّره إليها.

وفيها كانت زلزلة عظيمة، في ربيع الأوّل، بالعراق، وبلد الجبل، والموصل، والجزيرة، فخرّبت كثيراً.

وفيها ملك السلطان محمود قلعة أَلَمُوت.

وفيها توفّي إبراهيم بن عثمان بن محمّد أبو إسحاق الغَزّيُّ من أهل غزّة، مدينة بفلسطين من الشام، ومولده سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وهو من الشعراء المجيدين، فمن قوله من قصيدة يصف فيها الأتراك: (٦٦٧/١٠)

في فِتيةٍ من جُيوشِ التُّرْكِ ما تركَت ... للرعدِ كرّاتُهم صَوتاً ولا صِيَتا
قومٌ إذا قوبلوا كانوا ملائكةً ... حُسناً، وإن قُوتلوا كانوا عَفاريتا

وله في الزهد:

إنّما هذه الحياةُ مَتاعٌ، ... والسفيه الغويُّ مَن يَصْطَفيها
ما مضى فات والمؤمّلُ غيبٌ ... ولك الساعة التي أنت فيها

وفيها توفّي الحسين بن محمّد بن عبد الوهّاب بن أحمد بن محمّد الدبّاس أبو عبد اللّه النحويُّ، الشاعر، المعروف بالبارع، أخو أبي الكرم بن فاخر النحويّ لأمّه، وُلد سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، وله شعر مليح، فمنه قوله:

رُدّي عليّ الكَرَى ثم اهجري سَكَني ... فقد قنِعتُ بطَيفٍ منكِ في الوسَنِ
لا تحسَبي النّوم قد أوشكتُ أطلبُه، ... إلاّ رجاء خيالٍ منكِ يُؤنسُني
تركتِني والهوى فرداً أُغالِبُه، ... ونام ليلُكِ عن همٍ يُؤرّقني

وهي طويلة.

وفيها توفّي هبة اللّه بن القاسم بن محمّد بن عطا بن محمّد أبو سعد المهروانيُّ، النّيسابوريُّ، ومولده سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وكان محدّثاً، حافظاً، صالحاً. (٦٦٨/١٠)

سنة خمس وعشرين وخمسمائة

ذكر أسر دُبَيْس بن صدقة وتسليمه إلى عماد الدين زنكي

في هذه السنة، في شعبان، أسر تاج الملوك بوري بن طُغتكين، صاحب دمشق، الأميرَ دُبَيْس بن صدقة، صاحب الحِلّة، وسلّمه إلى أتابك الشهيد زنكي بن آقسنقر.

وسبب ذلك: أنّه لمّا فارق البصرة، على ما ذكرناه، جاءه قاصد من الشام، من صَرْخَد، يستدعيه إليها، لأنّ صاحبها كان خصيّاً، فتوفّي هذه السنة، وخلّف جارية سُرِّيّة له، فاستولت على القلعة وما فيها، وعلمتْ أنّها لا يتمّ لها ذلك إلاّ بأن تتّصل برجل له قوّة ونجدة، فوُصف لها دُبَيْس بن صدقة وكثرة عشيرته، وذُكر لها حاله، وما هو عليه بالعراق، فأرسلت تدعوه إلى صَرْخَد لتتزوّج به، وتسلّم القلعة وما فيها من مال وغيره إليه، فأخذ الأدلاء معه، وسار من أرض العراق إلى الشام، فضلّ به الأدلاء بنواحي دمشق، فنزل بناس من كلب كانوا شرقيّ الغُوطة، فأخذوه وحملوه إلى تاج الملوك صاحب دمشق، فحبسه عنده.

وسمع أتابك عماد الدين زنكي الخبر، وكان دُبَيْس يقع فيه وينال منه، فأرسل إلى تاج الملوك يطلب منه دُبَيْساً ليسلّمه إليه، ويُطلق ولدَهُ، ومن (٦٦٩/١٠)معه من الأمراء المأسورين، وإن امتنع من تسليمه سار إلى دمشق وحصرها وخرّبها ونهب بلدها، فأجاب تاج الملوك إلى ذلك، وأرسل أتابك سونجَ بن تاج الملوك، والأمراء الذين معه، وأرسل تاج الملوك دُبَيْساً، فأيقن دُبَيْس بالهلاك، ففعل زنكي معه خلاف ما ظنّ، وأحسن إليه، وحمل له الأقوات، والسلاح والدوابّ وسائر أمتعة الخزائن، وقدّمه حتّى على نفسه، وفعل معه ما يفعل أكابر الملوك.

ولمّا سمع المسترشد باللّه بقبضه بدمشق أرسل سديدَ الدولة بن الأنباريّ، وأبا بكر بن بشر الجزريّ، من جزيرة ابن عُمَر، إلى تاج الملوك يطلب منه أن يسلّم دُبَيْساً إليه، لما كان متحقّقاً به من عداوة الخليفة، فسمع سديد الدولة ابن الأنباريّ بتسليمه إلى عماد الدين، وهو في الطريق، فسار إلى دمشق ولم يرجع، وذمّ أتابك زنكي بدمشق، واستخفّ به، وبلغ الخبر عماد الدين، فأرسل إلى طريقه من يأخذه إذا عاد، فلمّا رجع من دمشق قبضوا عليه، وعلى ابن بشر، وحملوهما إليه، فأمّا ابن بشر فأهانه وجرى في حقّه مكروه، وأمّا ابن الأنباريّ فسجنه.

ثم إنّ المسترشد باللّه شفع فيه فأُطلق، ولم يزل دُبَيْس مع زنكي حتّى انحدر معه إلى العراق، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود

في هذه السنة، في شوّال، توفّي السلطان محمود ابن السلطان محمّد بهَمَذان، وكان قبل مرضه قد خاف وزيره أبو القاسم الأنساباذيُّ من جماعة من الأمراء وأعيان الدولة، منهم: عزيز الدين أبو نصر أحمد بن حامد المستوفي، والأمير أنوشتكين المعروف بشيركير، وولده عمر، وهو أمير حاجب السلطان، (٦٧٠/١٠)وغيرهم، فأمّا عزيز الدين فأرسله مقبوضاً عليه إلى مجاهد الدين بهروز بتكريت، ثم قُتل بها، وأمّا شيركير وولده فقُتلا في جُمادى الآخرة.

ثم أنّ السلطان مرض وتوفّي في شوّال، وأُقعد ولده الملك داود في السلطنة باتّفاق من الوزير أبي القاسم وأتابكه آقسنقر الأحمديليّ، وخُطب له في جميع بلاد الجبل وأذربيجان، ووقعت الفتنة بهمَذان وسائر بلاد الجبل، ثم سكنت، فلمّا اطمأنّ الناس وسكنوا سار الوزير بأمواله إلى الرَّيّ، فأمن فيها حيث هي للسلطان سنجَر.

وكان عمر السلطان محمود لمّا توفّي نحو سبع وعشرين سنة، وكانت ولايته للسلطنة اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، وكان حليماً، كريماً عاقلاً، يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه، مع القدرة، قليل الطمع في أموال الرعايا، عفيفاً عنها، كافّاً لأصحابه عن التطرّق إلى شيء منها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ثار الباطنيّة بتاج الملوك بوري بن طغتكين، صاحب دمشق، فجرحوه جرحَيْن، فبرأ أحدهما، وتنسّر الآخر، وبقي فيه ألمه، إلاّ أنّه يجلس للناس، ويركب معهم على ضعف فيه.

وفيها توفّي الأمير أبو الحسن بن المستظهر باللّه أخو المسترشد باللّه في رجب.

وفيها، في شوّال، توفّي الحسن بن سلمان بن عبد اللّه أبو عليّ الفقيه الشافعيُّ (٦٧١/١٠)الواعظ، مدرّس النظاميّة ببغداد، وأصله من الزَّوْزان.

والخطيب أبو نصر أحمد بن عبد القاهر المعروف بابن الطُّوسيّ، خطيب الموصل، توفّي في ربيع الأوّل.

وحمّاد بن مُسلّم الدبّاس الرَّحبيّ الزاهد المشهور، صاحب الكرامات، وسمع الحديث، وله أصحاب وتلامذة كثيرون ساروا، ورأيتُ الشيخ أبا الفرج بن الجوزيّ قد ذمّه وثلبه، ولهذا الشيخ أسوة بغيره من الصالحين، فإنّ ابن الجوزيّ قد صنّف كتاباً سمّاه تلبيس إبليس لم يُبقِ فيه على أحدٍ من سادة المسلمين وصالحيهم.

وهبة اللّه بن محمّد بن عبد الواحد بن الحصين الشيبانيُّ الكاتب، ومولده سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، سمع أبا عليّ بن المهذّب، وأبا طالب بن غيلان وغيرهما، وهو راوي مسند أحمد بن حَنْبَل والغيلانيات وغيرهما.

ومحمّد بن الحسن بن عليّ بن الحسن أبو غالب الماورديُّ، وُلد سنة خمسين وأربعمائة بالبصرة، وسمع الحديث الكثير، وروى سُنن أبي داود السِّجِسْتانيّ، وكان صالحاً. (٦٧٢/١٠)

سنة سِت وعشرين وخمسمائة

ذكر قتل أبي عليّ وزير الحافظ ووزارة يانس وموته

في هذه السنة، في المحرّم، قُتل الأفضل أبو عليّ بن الأفضل بن بدر الجماليّ وزير الحافظ لدين اللّه العلويّ، صاحب مصر.

وسبب قتله: أنّه كان قد حجر على الحافظ، ومنعه أن يحكم في شيء من الأمور، قليل أو جليل، وأخذ ما في قصر الخلافة إلى داره، وأسقط من الدعاء ذكر إسماعيل الذي هو جدّهم، وإليه تُنسب الإسماعيليّة، وهو ابن جعفر بن محمّد الصادق، وأسقط من الأذان حيّ على خير العمل، ولم يخطب للحافظ، وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم، وهي: السيّد الأفضل الأجل، سيّد مماليك أرباب الدول، والمحامي عن حَوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتَيْ غيبته وحضوره، والقائم بنصره بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين اللّه على عباده، وهادي القُضاة إلى اتّباع الحقّ واعتماده، ومُرشد دُعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، ومالك فضيلتَي السيف والقلم، أبو عليّ أحمد بن السيّد الأجلّ الأفضل، شاهنشاه أمير الجيوش.

وكان إماميّ المذهب، يُكثر ذمّ الآمر، والتناقض به، فنفرت منه شيعة (٦٧٣/١٠)العلويّين ومماليكهم، وكرهوه، وعزموا على قتله، فخرج في العشرين من المحرّم من هذه السنة إلى الميدان يلعب بالكرة مع أصحابه، فكمن له جماعة منهم مملوك فرنجيّ كان للحافظ، فخرجوا عليه، فحمل الفرنجيُّ عليه، فطعنه فقتله، وحزّوا رأسه، وخرج الحافظ من الخزانة التي كان فيها، ونهب الناس دار أبي عليّ، وأُخذ منها ما لا يحصى، وركب الناس والحافظ إلى داره، فأخذ ما بقي فيها وحمله إلى القصر.

وبويع يومئذ الحافظ بالخلافة، وكان قد بويع له بولاية العهد، وأن يكون كافلاً لحمل إن كان للآمر، فلمّا بويع بالخلافة استوزر أبا الفتح يانس الحافظيّ في ذلك اليوم بعينه، ولُقّب أمير الجيوش، وكان عظيم الهيبة، بعيد الغور، كثير الشرّ، فخافه الحافظ على نفسه، وتخيّل منه يانس، فاحتاط، ولم يأكل عنده شيئاً، ولا شرب، فاحتال عليه الحافظ بأن وضع له فرّاشه في بيت الطهارة ماء مسموماً، فاغتسل به، فوقع الدود في سفله، وقيل له: متى قمتَ من مكانك هلكتَ؛ فكان يعالَج بأن يجعل اللحم الطريّ في المحلّ، فيعلق به الدود فيخرج ويجعل عوضه، فقارب الشفاء، فقيل للحافظ :إنّه قد صلح، وإن تحرّك هلك؛ فركب إليه الحافظ كأنّه يعوده، فقام له ومشى إلى بين يدَيْه، وقعد الحافظ عنده، ثم خرج من عنده، فتوفّي من ليلته، وكان موته في السادس والعشرين من ذي الحجّة من هذه السنة.

ولمّا مات يانس استوزر الحافظ ابنه حسناً، وخطب له بولاية العهد، وسيرد ذكر قتله سنة تسع وعشرين [وخمسمائة].

وإنّما ذكرتُ ألقاب أبي عليّ تعجّباً منها، ومن حماقة ذلك الرجل، فإن وزير صاحب مصر وحدها إذا كان هكذا فينبغي أن يكون وزير السلاطين (٦٧٤/١٠)السلجوقيّة كنظام الملك وغيره يدّعون الربوبيّة، على أنّ تربة مصر هكذا تولد، ألا ترى إلى فرعون يقول :﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[النازعات:٢٤]، وإلى أشياء أُخر لا نطيل ذكرها.

ذكر حال السلطان مسعود والملكين سلجوقشاه وداود واستقرار السلطنة بالعراق لمسعود

لمّا توفّي السلطان محمود ابن السلطان محمّد، وخُطب، ببلاد الجبل وأذربيجان، لولده الملك داود، على ما ذكرناه، سار الملك داود من همَذان في ذي القعدة من سنة خمس وعشرين [وخمسمائة] إلى زَنْجَان، فأتاه الخبر أنّ عمّه السلطان مسعوداً قد سار من جُرجان ووصل إلى تِبريز واستولى عليها، فسار الملك داود إليه وحصره بها، وجرى بينهما قتال، إلى سلخ المحرّم سنة ستّ وعشرين [وخمسمائة] ثم اصطلحا.

وتأخّر الملك داود مرحلة، وخرج السلطان مسعود بن تِبريز، واجتمعت عليه العساكر، وسار إلى همَذان، وأرسل يطلب الخطبة ببغداد، وكانت رسل الملك داود قد تقدّمت في طلب الخطبة، فأجاب المسترشد باللّه أنّ الحكم في الخطبة إلى السلطان سنجَر من أراد خُطب له، وأرسل إلى السلطان سنجَر أن لا يأذن لأحد في الخطبة، فإن الخطبة ينبغي أن تكون له وحده، فوقع ذلك منه موقعاً حسناً. (٦٧٥/١٠)

ثم إن السلطان مسعوداً كاتب عمادَ الدين زنكي، صاحب الموصل وغيرهما، يستنجده، ويطلب مساعدته، فوعده النصر، فقويت بذلك نفس مسعود على طلب السلطنة.

ثم إنّ الملك سَلْجوقشاه ابن السلطان محمّد سار أتابكه قراجة الساقي، صاحب فارس وخُوزستان، في عسكر كثير إلى بغداد،

فوصل إليها قبل وصول السلطان مسعود، ونزل في دار السلطان، وأكرمه الخليفة، واستخلفه لنفسه.

ثم وصل رسول السلطان مسعود يطلب الخطبة، ويتهدّد إن منعها، فلم يجب إلى ما طلبه، فسار حتّى نزل عبّاسيّة الخالص، وبرز عسكر الخليفة وعسكر سلجوقشاه وقراجة الساقي إلى أن يفرغ من حرب أتابك عماد الدين زنكي، وسار يوماً وليلة إلى المعشوق، وواقع عماد الدين زنكي فهزمه، وأسر كثيراً من أصحابه، وسار زنكي منهزماً إلى تكريت، فعبر فيها دجلة، وكان الدزدار بها حينئذ نجم الدين أيّوب، فأقام له المعابر، فلمّا عبر أمِن الطلب، وسار إلى بلاده لإصلاح حاله وحال رجاله، وهذا الفعل من نجم الدين أيّوب كان سبباً لاتّصاله به والمصير في جملته، حتّى آل بهم الأمر إلى مُلْك مصر والشام وغيرهما على ما نذكره.

وأمّا السلطان مسعود فإنّه سار من العبّاسيّة إلى الملكيّة، ووقعت الطلائع بعضها عن بعض، ثم لم تزل المناوشة تجري بينه وبين أخيه سلجوقشاه يومَيْن.

وأرسل سلجوقشاه إلى قراجة يستحثّه على المبادرة، فعاد سريعاً وعبر (٦٧٦/١٠)دجلة إلى الجانب الشرقي، فلمّا علم السلطان مسعود بانهزام عماد الدين زنكي رجع إلى ورائه، وأرسل إلى الخليفة يعرّفه وصول السلطان سنجَر إلى الرَّيّ، وأنّه عازم [على] قصد الخليفة وغيره، وإن رأيتم أن تتّفق على قتاله، ودَفْعه عن العراق، ويكون العراق لوكيل الخليفة، فأنا موافق على ذلك، فأعاد الخليفة الجواب يستوقفه.

وتردّدت الرسل في الصُّلح، فاصطلحوا على أن يكون العراق لوكيل الخليفة، وتكون السلطنة لمسعود، ويكون سلجوقشاه وليّ عهده، وتحالفوا على ذلك، وعاد السلطان مسعود إلى بغداد، فنزل بدار السلطان، ونزل سلجوقشاه في دار الشحنكيّة، وكان اجتماعهم في جُمادى الأولى.

ذكر الحرب بين السلطان مسعود وعمّه السلطان سنجر

لمّا توفّي السلطان محمود سار السلطان سنجَر إلى بلاد الجبال، ومعه الملك طغرل ابن السلطان محمّد، وكان عنده قد لازمه، فوصل إلى الرَّيّ، ثم سار منها إلى همَذان، فوصل الخبر إلى الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود بوصوله إلى همَذان، فاستقرّت القاعدة بينهما على قتاله، وأن يكون الخليفة معهم، وتجهّز الخليفة، فتقدّم قراجة الساقي، والسلطان مسعود، وسلجوقشاه نحو السلطان سنجَر، وتأخّر المسترشد بالله عن المسير معهم، فأرسل إلى قراجة، وألزمه، وقال : إنّ الذي تخاف من سنجَر آجلاً أنا أفعله عاجلاً. فبرز حينئذ وسار على تريّث، وتوقّف إلى أن بلغ إلى خانقين وأقام بها.

وقُطعت خطبة سنجَر من العراق جميعه، ووصلت الأخبار بوصول عماد الدين زنكي ودُبيس بن صدقة إلى قريب بغداد، فأمّا دُبَيْس فإنّه ذكر أنّ السلطان سنجَر أقطعه الحِلّة، وأرسل إلى المسترشد بالله يضرع ويسأل (٦٧٧/١٠)الرضا عنه، فامتنع من إجابته إلى ذلك.

وأمّا عماد الدين زنكي فإنّه ذكر أنّ السلطان سنجَر قد أعطاه شحنكيّة بغداد، فعاد المسترشد بالله إلى بغداد، وأمر أهلها بالاستعداد للمدافعة عنها، وجنّد أجناداً جعلهم معهم.

ثم إنّ السلطان مسعوداً وصل إلى دامرج، فلقيتهم طلائع السلطان سنجَر في خلق كثير، فتأخّر السلطان مسعود إلى كَرمانشاهان، ونزل السلطان سنجَر في أسداباذ في مائة ألف فارس، فسار مسعود وأخوه سلجوقشاه إلى جَبَلَيْن يقال لهما :كاو، وماهي، فنزلا بينهما، ونزل السلطان سنجَر كِنْكَورَ، فلمّا سمع بانحرافهم أسرع في طلبهم، فرجعوا إلى ورائهم مسيرة أربعة أيّام في يوم وليلة، فالتقى العسكران بعُولان، عند الدِّينَوَر، وكان مسعود يدافع الحرب انتظاراً لقدوم المسترشد، فلمّا نازله السلطان سنجَر لم يجدْ بدّاً من المصافّ، وجعل سنجَر على ميمنته طغرلَ ابن أخيه محمّد، وقماج، وأمير أميران، وعلى ميسرته خوارزمشاه أتسيز بن محمّد مع جمع من الأمراء، وجعل مسعود على ميمنته قراجة الساقي، والأمير قَزل، وعلى ميسرته يرنقش بازدار، ويوسف جاووش، وغيرهما، وكان قزل قد واطأ سنجَر على الانهزام.

ووقعت الحرب، وقامت على ساق، وكان يوماً مشهوداً، فحمل قراجة الساقي على القلب، وفيه السلطان سنجَر في عشرة آلاف فارس من شجعان العسكر، وبين يديْه الفِيَلة، فلمّا حمل قراجة على القلب، رجيع الملك طغرل، وخُوارزمشاه إلى وراء ظهره، فصار قراجة في الوسط، فقاتل إلى أن جُرح عدّة جراحات، وقُتل كثير من أصحابه، وأُخذ هو أسيراً وبه جراحات كثيرة، فلمّا رأى السلطان مسعود ذلك انهزم وسلم من المعركة، (٦٧٨/١٠)وقُتل يوسف جاووش، وحسين أزبك، وهما من أكابر الأمراء، وكانت الوقعة ثامن رجب من هذه السنة.

فلمّا تمّت الهزيمة على مسعود نزل سنجَر وأحضر قراجة، فلمّا حضر قراجة سبّه وقال له : يا مفسد أيّ شيء كنتَ ترجو بقتالي؟ قال : كنتُ أرجو أن أقتلك وأُقيم سلطاناً أحكم عليه. فقتله صبراً، وأرسل إلى السلطان مسعود يستدعيه، فحضر عنده، وكان قد بلغ خُونجَ، فلمّا رآه قبّله، وأكرمه، وغاثبه على العصيان عليه، ومخالفته، وأعاده إلى كَنْجَة، وأجلس الملك طغرل ابن أخيه محمّد في السلطنة، وخطب له في جميع البلاد، وجعل في وزارته أبا القاسم الأنساباذيّ، وزير السلطان محمود، وعاد إلى خُراسان،

فوصل إلى نَيسابور في العشرين من رمضان سنة ستّ وعشرين [وخمسمائة].

وأمّا المسترشد باللّه فكان منه ما نذكره.

ذكر مسير عماد الدين زنكي إلى بغداد وانهزامه

لمّا سار المسترشد باللّه من بغداد، وبلغه انهزام السلطان مسعود، عزم على العود إلى بغداد، فأتاه الخبر بوصول عماد الدين زنكي إلى بغداد، ومعه دُبَيْس بن صدقة، وكان السلطان سنجَر قد كاتبهما، وأمرهما بقصد العراق، والاستيلاء عليه، فلمّا علم الخليفة بذلك أسرع العود إليها، وعبر إلى الجانب الغربيّ، وسار فنزل بالعبّاسيّة، ونزل عماد الدين بالمَنارية من دُجَيْل، والتقيا بحصن البرامكة في السابع والعشرين من رجب، فابتدأ زنكي فحمل على ميمنة الخليفة، وبها جمال الدولة إقبال، فانهزموا منه، وحمل نظر الخادم من ميسرة الخليفة على (٦٧٩/١٠)ميمنة عماد الدين ودُبَيْس، وحمل الخليفة بنفسه، واشتدّ القتال، فانهزم دُبَيْس، وأراد عماد الدين الصبر، فرأى الناس قد تفرّقوا عنه، فانهزم أيضاً، وقُتل من العسكر جماعة، وأُسر جماعة، وبات الخليفة هناك ليلته، وعاد من الغد إلى بغداد.

ذكر حال دُبَيْس بعد الهزيمة

وفيها عاد دُبَيْس، بعد انهزامه المذكور، يلوذ ببلاد الحِلّة وتلك النواحي، وجمع جمعاً، وكانت تلك الولاية بيد إقبال المسترشديّ، فأمدّ بعسكر من بغداد، فالتقى هو ودُبَيْس، فانهزم دُبَيْس واختفى في أجمةٍ هناك، وبقي ثلاثة أيّام لم يطعم شيئاً، ولم يقدر على التخلّص منها، حتّى أخرجه حمّاس على ظهره.

ثم جمع جمعاً وقصد واسط، وانضمّ إليه عسكرها، وبختيار وشاق، وابن أبي الجبر، ولم يزل فيها إلى أن دخلت سنة سبع وعشرين [وخمسمائة]، فنفذ إليهم يرنقش بازدار، وإقبال الخادم المسترشديّ، في عسكر، فاقتتلوا في الماء والبرّ، فانهزم الواسطيّون ودُبَيْس، وأُسر بختيار وشاق وغيره من الأمراء.

ذكر وفاة تاج الملوك صاحب دمشق

في هذه السنة، في رجب، توفّي تاج الملوك بوري بن طغتكين، صاحب دمشق. (٦٨٠/١٠)

وسبب موته أنّ الجرح الذي كان به من الباطنيّة، وقد ذكرناه، اشتدّ عليه الآن، وأضعفه، وأسقط قوّته، فتوفّي في الحادي والعشرين من رجب، ووصّى بالملك بعده لولده شمس الملوك إسماعيل، ووصّى بمدينة بعلبكّ وأعمالها لولده شمس الدولة محمّد.

وكان بوري كثير الجهاد، شجاعاً، مقداماً، سدّ مسدّ أبيه، وفاق عليه، وكان مُمدّحاً، أكثر الشعراء مدائحه، لا سيّما ابن الخيّاط، وملك بعده ابن شمس الملوك، وقام بتدبير الأمر بين يدَيْه الحاجب يوسف بن فيروز، شِحنة دمشق، وهو حاجب أبيه، واعتمد عليه، وابتدأ أمره بالرفق بالرعيّة، والإحسان إليهم، فكثر الدعاء له والقصاد عليه.

ذكر ملك شمس الملوك حصن اللبوة وحصن راس وحصره بعلبكّ

في هذه السنة ملك شمس الملوك إسماعيل، صاحب دمشق، حصن اللّبوة، وحصن راس.

وسبب ذلك :أنّهما كانا لأبيه تاج الملوك، وفي كلّ واحد منهما مستحفظ يحفظه، فلمّا ملك شمس الملوك بلغه أنّ أخاه شمس الدولة محمّداً، صاحب بعلبكّ، وقد راسلهما، واستمالهما إليه، فسلّما الحصنَيْن إليه، وجعل فيهما من الجند ما يكفيهما، فلم يظهر بذلك أثر بل راسل أخاه بلطفٍ يقبح هذه الحال، ويطلب أن يعيدهما إليه، فلم يفعل، فأغضى على ذلك، وتجهّز من غير أن يُعلم أحداً. (٦٨/١٠)

وسار هو وعسكره، آخر ذي القعدة، فطلب جهة الشمال، ثم عاد مغرّباً، فلم يشعر من بحصن اللّبوة إلاّ وقد نزل عليهم، وزحف لوقته، فلم يتمكّنوا من نصب منجنيق ولا غيره، فطلبوا الأمان، فبذله لهم، وتسلّم الحصن من يومه، وسار من آخر النهار إلى حصن راس، فبغتهم، وجرى الأمر فيه على تلك القضيّة، وتسلّمه، وجعل فيهما من يحفظهما.

ثم رحل إلى بعلبكّ وحصرها، وفيها أخوه شمس الدولة محمّد، وقد استعدّ، وجمع في الحصن ما يحتاج إليه من رجال وذخائر، فحصرهم شمس الملوك، وزحف في الفارس والراجل، وقاتله أهل البلد على السور، ثم زحف عدّة مرّات، فملك البلد بعد قتال شديد، وقتلى كثيرة، وبقي الحصن، فقاتله، وفيه أخوه، ونصب المجانيق، ولازم القتال؛ فلمّا رأى أخوه شمس الدولة شدّة الأمر أرسل يبذل الطاعة، ويسأل أن يُقَرّ على ما بيده، وجعله أبوه باسمه، فأجابه إلى مطلوبه، وأقرّ عليه بعلبكّ وأعمالها، وتحالفوا، وعاد شمس الملوك إلى دمشق وقد استقامت له الأمور.

ذكر الحرب بين السلطان طُغرل والملك داود

في هذه السنة، في رمضان، كانت الحرب بين الملك طغرل وبين ابن أخيه الملك داود بن محمود، وكان سببها، أنّ السلطان سنجَر أجلس الملك طُغرل في السلطنة، كما ذكرناه، وعاد إلى خُراسان لأنّه بلغه أنّ صاحب(٦٨٢/١٠) ما وراء النهر أحمد خان قد عصى عليه، فبادر إلى العود لتلافي ذلك الخرق، فلمّا عاد إلى

خراسان عصى الملك داود على عمّه طغرل، وخالفه، وجمع العساكر بأذربيجان، وبلاد كَنْجَة، وسار إلى هَمَذان، فنزل، مستهلّ رمضان، عند قرية يقال لها وَهَان، بقرب هَمَذان.

وخرج إليه طُغرل، وعبّأ كلّ واحد منهما أصحابه ميمنة وميسرة، وكان على ميمنة السلطان طغرل بن بُرسُق، وعلى ميسرته قزل، وعلى مقدّمته قراسُنقر؛ وكان على ميمنة داود يرنقش الزكويّ، ولم يقاتل، فلمّا رأى التركمان ذلك نهبوا خيمه وبركه جميعه، ووقع الخلف في عسكر داود، فلمّا رأى أتابكه آقسنقر الأحمديليّ ذلك ولّى هرباً، وتبعه الناس في الهزيمة، وقبض طغرل على يرنقش الزكويّ، وعلى جماعة من الأمراء.

وأمّا الملك داود فإنّه لمّا انهزم بقي متحيّراً إلى أوائل ذي القعدة، فقدم بغداد ومعه أتابكه آقسنقر الأحمديليّ، فأكرمه الخليفة وأنزله بدار السلطان، وكان الملك مسعود بكَنْجَة، فلمّا سمع بانهزام الملك داود توجّه نحو بغداد، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قبض المسترشد بالله على وزيره شرف الدين عليّ بن طِراد الزينبيّ، واستوزر أنوشِيروان بن خالد، بعد أن امتنع، وسأله الإقالة. (٦٨٣/١٠)

وفي هذه السنة قُتل أحمد بن حامد بن محمّد أبو نصر مستوفي السلطان محمود، الملقّب بالعزيز، بقلعة تكريت، وقد تقدّم سبب ذلك سنة خمس وعشرين [وخمسمائة].

وفي المحرّم منها قُتل محمّد بن محمّد بن الحسين أبو الحسين بن أبي يعلى بن الفرّاء الحنبليّ، مولده في شعبان سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وسمع الحديث من الخطيب أبي بكر، وابن الحسين بن المهتدي، وغيرهما، وتفقّه، قتله أصحابه غيلةً، وأخذوا ماله.

وفي جُمادى الأولى توفّي أحمد بن عبيد الله بن كادش أبو العزّ العُكْبريّ، وكان محدّثاً مكثراً.

وتوفّي فيها أبو الفضل عبد الله بن المظفّر بن رئيس الرؤساء، وكان أديباً، وله شعر حسن، فمنه ما كتبه إلى جلال الدين بن صدقة الوزير.

أمولانا جلالَ الدين، يا مَن ... أذكّرُهُ بخِدمتيَ القديمَهْ
ألم تكُ قد عَزَمتَ على اصطناعي، ... فماذا صَدَّ عن تلكَ العَزيمَهْ؟
(٦٨٤/١٠)

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

ذكر ملك شمس الملوك بانياس

في هذه السنة، في صفر، ملك شمس الملوك، صاحب دمشق، حِصن بانياس من الفرنج.

وسبب ذلك: أنّ الفرنج استضعفوه وطمعوا فيه، وعزموا على نقض الهدنة التي بينهم، فتعرّضوا إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت وأخذوها، فشكا التجار إلى شمس الملوك، فراسل في إعادة ما أخذوه، وكرّر القول فيه، فلم يردّوا شيئاً، فجملته الأنفَة من هذه الحالة، والغيظ، على أن جمع عسكره وتأهّب، ولا يعلم أحد أين يريد.

ثم سار، وسبق خبَرُه، أواخر المحرّم من هذه السنة، ونزل على بانياس أوّل صفر، وقاتلها لساعته، وزحف إليها زحفاً متتابعاً، وكانوا غير متأهّبين، وليس فيها من المقاتلة من يقوم بها وقرب من سور المدينة، وترجّل بنفسه، وتبعه الناس من الفارس والراجل، ووصلوا إلى السور فنقبوه ودخلوا البلد عنوةً، (٦٨٥/١٠)والتجأ من كان من جند الفرنج إلى الحصن، وتحصّنوا به، فقُتل من البلد كثير من الفرنج، وأُسر كثير، ونُهبت الأموال، وقاتل القلعة قتالاً شديداً ليلاً ونهاراً، فملكها رابع صفر بالأمان، وعاد إلى دمشق فوصلها سادسه.

وأمّا الفرنج فإنّهم لمّا سمعوا نزوله على بانياس شرعوا يجمعون عسكراً يسيرون به إليه، فأتاهم خبر فتحها، فبطل ما كانوا فيه.

ذكر حرب بين المسلمين والفرنج

في هذه السنة، في صفر، سار ملك الفرنج، صاحب البيت المقدّس، في خيّالته، ورجّالته إلى أطراف أعمال حلب، فتوجّه إليه الأمير أسوار، النائب بحلب، في مَن عنده من العسكر، وانضاف إليه كثير من التركمان، فاقتتلوا عند قِنّسْرين، فقُتل من الطائفتين جماعة كثيرة، وانهزم المسلمون إلى حلب، وتردّد ملك الفرنج في أعمال حلب، فعاد أسوار وخرج إليه فيمن معه من العسكر، فوقع على طائفة منهم، فأوقع بهم، وأكثر القتل فيهم، والأسر، فعاد من سلم منهزماً إلى بلادهم، وانجبر ذلك المصاب بهذا الظفر، ودخل أسوار حلب، ومعه الأسرى، ورؤوس القتلى، وكان يوماً مشهوداً.

ثم إنّ طائفة من الفرنج من الرُّها قصدوا أعمال حلب للغارة عليها، فسمع بهم أسوار، فخرج إليهم هو والأمير حسّان البعلبكيّ، فأوقعوا بهم، وقتلوهم عن آخرهم في بلد الشمال، وأسروا من لم يُقتَل، ورجعوا إلى حلب سالمين.(٦٨٦/١٠)

ذكر عود السلطان مسعود إلى السلطنة وانهزام الملك طغرل

قد تقدّم ذكر انهزام السلطان مسعود من عمّه السلطان سنجَر، وعوده إلى كَنْجَةَ، وولاية الملك طغرل السلطنة، وأنّه تحارب هو والملك داود ابن أخيه محمود، وانهزام داود ودخوله بغداد، فلمّا بلغ السلطانَ مسعوداً، انهزام داود وقصده بغداد، سار هو إلى بغداد أيضاً، فلمّا قاربها لقيه داود، وترجّل له وخدمه، ودخلا بغداد.

ونزل مسعود بدار السلطنة في صفر من هذه السنة، وخاطب في الخطبة له، فأُجيب إلى ذلك، وخُطب له ولداود بعده، وخُلع عليهما، ودخلا إلى الخليفة فأكرمهما، ووقع الاتّفاق على مسير مسعود وداود إلى أذربيجان، وأن يرسل الخليفة معهما عسكراً، فساروا، فلمّا وصلوا إلى مَراغة حمل آقسنقَر الأحمديليُّ مالاً كثيراً، وإقامة عظيمة، وملك مسعود سائر بلاد أذربيجان، وانهزم مَن بها من الأمراء مثل قراسنقر، وغيره من بين يدَيْه، وتحصّن منه كثير منهم بمدينة أرْدَبيل، فقصدهم وحصرهم بها، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وانهزم الباقون.

ثم سار بعد ذلك إلى هَمَذان لمحاربة أخيه الملك طغرل، فلمّا سمع طغرل بقربه برز إلى لقائه، فاقتتلوا إلى الظُّهر، ثم انهزم طغرل وقصد الرَّيّ، واستولى السلطان مسعود على هَمَذان في شعبان، ولمّا استقرّ مسعود بهمذان قُتل آقسنقَر الأحمديليُّ، قتله الباطنيّة، فقيل إنّ السلطان مسعوداً وضع عليه مَن قتله. (٦٨٧/١٠)

ثم إنّ طغرل لمّا بلغ قُمَّ عاد إلى أصبهان ودخلها، وأراد التحصّن بها، فسار إليه أخوه مسعود ليحاصره بها، فرأى طغرل أنّ أهل أصبهان لا يطاوعونه على الحصار، فرحل عنهم إلى بلاد فارس، واستولى مسعود على أصبهان، وفرح أهلُها به، وسار من أصبهان نحو فارس يقتصّ أثر أخيه طغرل، فوصل إلى موضع بقرب البيضاء، فاستأمن إليه أمير من أمراء أخيه معه أربعمائة فارس، فأمّنه، فخاف طغرل من عسكره أن ينحازوا إلى أخيه، فانهزم من بين يدَيْه، وقصد الرَّيّ في رمضان، وقُتل وزيره أبو القاسم الأنسـاباذيُّ في الطريق، في شوّال، قتله غلمان الأمير شيركير الذي سعى في قتله، كما تقدّم ذكره.

وسار السلطان مسعود يتبعه، فلحقه بموضع يقال له ذكراور، فوقع بينهما المصافّ هناك، فلمّا اشتبكت الحرب انهزم الملك طغرل، فوقع عسكره في أرض قد نضب عنها الماء، وهي وحل، فأُسر منهم جماعة من الأمراء منهم: الجانب تنكر، وابن بغرا، فاطلقهم السلطان مسعود، ولم يُقتَل في هذا المصافّ إلاّ نفر يسير ورجع السلطان مسعود إلى همذان. (٥/١١)

ذكر حصر المسترشِد باللّه المَوصِل

في هذه السنة (٥٢٧) حصر المسترشد باللّه مدينة الموصل في العشرين من شهر رمضان، وسبب ذلك ما تقدّم من قصْد الشهيد زنكي بغداد على ما ذكرناه قبل. فلمّا كان الآن قصد جماعة من الأمراء السلجُوقيّة باب المسترشد باللّه وصاروا معه فقوي بهم.

واشتغل السلاطين السلجُوقية بالخلف الواقع بينهم، فأرسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الأسفراييني الواعظ إلى عِماد الدين زنكي برسالة فيها خشونة وزادها أبو الفتوح زيادةً ثقةً بقوّة الخليفة وناموس الخلافة، فقبض عليه عماد الدين زنكي وأهانه ولقيه بما يكره، فأرسل المسترشد باللّه إلى السلطان مسعود يعرّفه الحال الذي جرى من زنكي ويُعلمه أنّه على قصد الموصل وحصرها، وتمادت الأيّام إلى شعبان فسار عن بغداد في النصف منه في ثلاثين ألف مقاتل.

فلمّا قارب الموصل فارقها أتابك زنكي في بعض عسكره وترك الباقي بها (٦/١١) مع نائبه نصير الدين جقر دزدارها والحاكم في دولته وأمرهم بحفظها ونازلها الخليفة وقاتلها وضيّق على من بها، وأمّا عماد الدين فإنّه سار إلى سِنجار وكان يركب كلّ ليلة ويقطع الميرة عن العسكر ومتى ظفر بأحد من العسكر أخذه ونكل به.

وضاقت الأمور بالعسكر أيضاً وتواطأ جماعة من الجصّاصين بالموصل على تسليم البلد فسُعي بهم فأُخذوا وصُلبوا.

وبقي الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر ولم يظفر منها بشيء ولا بلغه عمّن بها وهنٌ ولا قلّة ميرة وقوت فرحل عنها عائداً إلى بغداد، فقيل إنّ نظر الخادم وصل إليه من عسكر السلطان وأبلغه عن السلطان مسعود ما أوجب مسيره وعوده إلى بغداد: وقيل بل بلغه أنّ السلطان مسعوداً عزم على قصد العراق فعاد بالجملة وأنّه رحل عنها منحدراً في شبّارة في دجلة فوصل إلى بغداد يوم عرفة.

ذكر مُلك شمس الملوك مدينة حماة

وفي هذه السنة أيضاً، في شوال، ملك شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماة وقلعتها، وهي لأتابك زنكي بن آقْسُنْقَر أخذها من تاج الملوك كما ذكرناه. ولما ملك شمس الملوك قلعة بانيس أقام بدمشق إلى شهر رمضان من هذه السنة وسار منها إلى حماة في العشر الأخير منه.

وسبب طمعه أنّه بلغه أنّ المسترشد باللّه يريد [أن] يحصر الموصل فطمع وكان الوالي بحماة قد سمع الخبر فتحصّن واستكثر من الرجال والذخائر، ولم (٧/١١) يبقَ أحد من أصحاب

شمس الملوك إلاّ وأشار عليه بترك قصدها لقوّة صاحبها، فلم يسمع منهم، وسار إليها وحصر المدينة وقاتَل مَن بها يوم العيد، وزحف إليها من وقته، فتحصّنوا منه وقاتلوه فعاد عنهم ذلك اليوم.

فلمّا كان الغد بكّر إليهم وزحف إلى البلد من جوانبه فملكه قهراً وعَنوةً وطلب مَن به الأمان فأمّنهم وحصر القلعة، ولم تكن في الحصانة والعُلوّ على ما هي عليه اليوم، فإنّ تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين قطع جبلها وعملها هكذا في سنين كثيرة، فلمّا حصرها عجز الوالي بها عن حفظها فسلّمها إليه، فاستولى عليها وعلى ما بها من ذخائر وسلاح وغير ذلك، وسار منها إلى قلعة شَيزَر وبها صاحبها من بني منقذ فحصرها ونهب بلدها، فراسله صاحبها وصانعه بمال حمله إليه فعاد عنه إلى دمشق فوصل إليها في ذي القعدة من السنة المذكورة.

ذكر هزيمة صاحب طرابلس الفرنجي

وفي هذه السنة عبر إلى الشام جمعٌ كثير من التركُمان من بلاد الجزيرة، وأغاروا على بلاد طرابلس وغنموا وقتلوا كثيراً: فخرج القُمّص صاحب طرابلس في جموعه فانزاح التركُمان من بين يديه، فتبعهم فعادوا إليه وقاتلوه فهزموه وأكثروا القتل في عسكره، ومضى وهو ومَن سلم معه إلى قلعة بعرين فتحصّنوا فيها وامتنعوا على التركمان، فحصرهم التركمان فيها. فلمّا طال الحصار عليهم نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارساً من أعيان أصحابه سرّاً فنجوا وساروا إلى طرابلس وترك الباقين في بعرين يحفظونها، فلمّا وصل (٨/١١) إلى طرابلس كاتب جميع الفرنج فاجتمع عنده منهم خلق كثير وتوجّه بهم نحو التركمان ليرحّلهم عن بعرين، فلمّا سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوهم وقُتل بينهم خلق كثير وأشرف الفرنج على الهزيمة، فحملوا نفوسهم ورجعوا على حامية إلى رفنية فتعذّر على التركمان اللّحاق بهم إلى وسط بلادهم فعادوا عنهم.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة اشترى الإسماعيليّة بالشام حصن القَدمُوس من صاحبه ابن عمرون، وصعدوا إليه وقاموا بحرب مَن بجاورهم من المسلمين والفرنج وكانوا كلّهم يكرهون مجاورتهم.

وفيها وقع الخلف بين الفرنج بالشام فقاتل بعضهم بعضاً ولم تجرِ لهم بذلك عادة قبل هذه السنة وقُتل بينهم جماعة.

وفيها، في جُمادى الآخرة، أغار الأمير أسوار مُقدّم عسكر زنكي بحلب على ولاية تل باشر فغنم الكثير، فخرج إليه الفرنج في جمع كثير فقاتلوه، فظفر بهم وأكثر القتل فيهم، وكان عدّة القتلى نحو ألف قتيل، وعاد سالماً.

وفيها، تاسع ربيع الآخر، وثب على شمس الملوك صاحب دمشق بعض مماليك جدّه طغدكين، فضربه بسيف فلم يعمل فيه شيئاً، وتكاثر عليه مماليك شمس الملوك فأخذوه وقُرّر ما الذي حمله على ما فعل فقال: أردتُ إراحة المسلمين من شرّك وظلمك: ولم يزل يُضرب حتى أقرّ على جماعة أنّهم وضعوه (٩/١١) على ذلك، فقتلهم شمس الملوك من غير تحقيق، وقتل معهم أخاه سونج، فعظم ذلك على الناس ونفروا عنه.

وفيها توفّي الشيخ أبو الوفاء الفارسيُّ، وكان له جنازة مشهودة حضرها أعيان بغداد.

وفيها، في رجب توفّي القاضي أبو العبّاس أحمد بن سلامة بن عبد اللّه ابن مُخلِد المعروف بابن الرّطبي الفقيه الشافعيّ قاضي الكرخ، وتفقّه على أبي إسحاق وأبي نصر بن الصبّاغ، وسمع الحديث ورواه، وكان قريباً من الخليفة يُؤدّب أولاده.

وتوفّي أبو الحسين عليّ بن عبد اللّه بن نصر المعروف بابن الزاغونيّ الفقيه الحنبليّ الواعظ، وكان ذا فنون: توفّي في المحرّم.

وتوفّي عليُّ بن يَعلَى بن عوض بن القاسم الهرويّ العلوي: كان واعظاً، وله بخراسان قبول كثير، وسمع الحديث الكثير: ومحمّد بن أحمد بن عليّ أبو عبد اللّه العثماني الديباجي، وهو من أولاد محمّد بن عبد اللّه بن عمرو بن عثمان بن عفّان. وكان محمّد يلقّب بالديباج لحسنه، وأصله من مكّة، وهو من أهل نابلس، وكان مغالياً في مذهب الأشعريّ، وكان يعظ توفّي في صفر.

وفيها توفي أبو فُلَيتَة أمير مكّة، ووليَ الإمارة بعده ابنه القاسم.

وفيها توفّي العزيز بن هبة اللّه بن عليّ الشريف العلويّ الحسينيّ فجأةً بنيسابور. وكان جدّه نقيب النقباء بخراسان. وعُرض على العزيز هذا نقابة (١٠/١١) العلويّين بنيسابور فامتنع، وعُرض عليه وزارة السلطان فامتنع، ولزم الانقطاع والاشتغال بأمر آخرته.

وفيها توفّي قاضي قضاة خراسان أبو سعيد محمّد بن أحمد بن صاعد، وكان خيّراً صالحاً. (١١/١١)

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

ذكر مُلك شمس الملوك شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج

في هذه السنة، في المحرّم، سار شمس الملوك إسماعيل من دمشق إلى شقيف تيرون وهو في الجبل المطلّ على بيروت وصيدا، وكان بيد الضحّاك بن جَندل رئيس وادي التّيم، قد تغلّب عليه وامتنع به، فتحاماه المسلمون والفرنج، يحتمي على كلّ طائفة بالأخرى، فسار شمس الملوك إليه هذه السنة، وأخذه منه في

المحرّم، وعظم أخذه على الفرنج لأنّ الضحّاك كان لا يتعرّض لشيء من بلادهم المجاورة له: فخافوا شمس الملوك، فشرعوا في جمع عساكرهم، فلمّا اجتمعت ساروا إلى بلد حوران، فخرّبوا أمّهات البلد، ونهبوا ما أمكنهم نهبه نهبةً عظيمةً.

وكان شمس الملوك، لما رآهم يجمعون، جمع هو أيضاً وحشد وحضر عنده جمع كثير من التركمان وغيرهم، فنزل بإزاء الفرنج، وجرت بينهم مناوشة عدّة أيّام، ثمّ شمس الملوك نهض ببعض عسكره، وجعل الباقي قبالة الفرنج، وهم لا يشعرون، وقصد بلادهم طَبَرية والناصرة وعكّا وما يجاورها من (١٢/١١) البلاد، فنهب وخرّب وأحرق وأهلك أكثر البلاد وسبى النساء والذرّية، وامتلأت أيدي مَن معه من الغنائم: واتّصل الخبر بالفرنج، فانزعجوا، ورحلوا في الحال لا يُلوي أخ على أخيه وطلبوا بلادهم.

وأما شمس الملوك فإنّه عاد إلى عسكره على غير الطريق الذي سلكه الفرنج، فوصل سالماً ووصل الفرنج إلى بلادهم ورأوها خراباً ففُتّ في أعضادهم وتفرّقوا، وراسلوا في تجديد الهُدنة فتمّ ذلك في ذي القعدة للسنة.

ذكر عود الملك طُغْرُل إلى الجبل وانهزام الملك مسعود

في هذه السنة عاد الملك طُغْرُل بن محمّد بن ملكشاه ملك بلاد الجبل جميعها وأجلى عنها أخاه السلطان مسعوداً.

وسبب ذلك أنّ مسعوداً لما عاد من حرب أخيه بلغه عصيان داود ابن أخيه السلطان محمود بأذربيجان، فسار إليه وحصره بقلعة روئين دز وكان قد تحصّن بها واشتغل بحصره، فجمع الملك طُغرل العساكر ومال إليه بعض الأمراء الذين مع السلطان مسعود ولم يزل يفتح البلاد، فكثرت عساكره وقصد مسعوداً، فلمّا قارب قزوين سار مسعود نحوه، فلمّا تراءى العسكران فارق مسعوداً من أمرائه مَن كان قد استماله طُغرل فبقي في قلّة من العسكر، فولّى منهزماً أواخر رمضان.

وأرسل إلى المسترشد بالله في القدوم [إلى] بغداد، فأذن له، وكان نائبه بأصفهان البقش السلاحيّ، ومعه الملك سلجوقشاه، فلمّا سمع بانهزام مسعود قصد بغداد أيضاً، فنزل سلجوقشاه بدار السلطان، فأكرمه (١٣/١١) الخليفة، وأنفذ إليه عشرة آلاف دينار، ثمّ قصد مسعود بغداد وأكثر أصحابه ركّاب جمال لعدم ما يركبونه، ولقي في طريقه شدّة، فأرسل إليه الخليفة الدوابّ والخيام والآلات وغيرها من الأموال والثياب، فدخل الدار السلطانيّة ببغداد منتصف شوّال وأقام طغرل بهَمذان.

ذكر حصر أتابك زنكي آمِد والحرب بينه وبين داود وملك زنكي قلعة الصور

في هذه السنة اجتمع أتابك زنكي صاحب الموصل وتمرتاش صاحب ماردين وقصدا مدينة آمِد فحصراها، فأرسل صاحبها إلى داود بن سقمان بن أُرتق صاحب حصن كيفا يستنجده، فجمع مَنْ أمكنه جمعه وسار نحو آمِد ليرحّلهما عنها، فالتقوا على باب آمد، وتصافّوا في جمادى الآخرة، فانهزم داود، وعاد مفلولاً، وقُتل جماعة من عسكره.

وأقام زنكي وتمرتاش على آمِد محاصرين لها، وقطعا الشجر، وشعّثا البلد وعادا عنها من غير بلوغ غرض، فقصد زنكي قلعة الصور من ديار بكر وحصرها وضايقها، فملكها في رجب من هذه السنة، واتّصل به ضياء الدين أبو سعيد بن الكفرتُوثيّ فاستَوزره زنكي، وكان حسن الطريقة، عظيم الرئاسة والكفاية، محبّاً للخير وأهله. (١٤/١١)

ذكر مُلك زنكي قلاع الأكراد الحميديّة

في هذه السنة استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الأكراد الحميديّة منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما.

وكان لما ملك الموصل أقرّ صاحبها الأمير عيسى الحميديّ على ولايتها وأعمالها، ولم يعترضه على شيء ممّا هو بيده: فلمّا حصر المسترشد الموصل حضر عيسى هذا عنده وجمع الأكراد عنده فأكثر، فلمّا رحل المسترشد عن الموصل أمر زنكي أن تُحصر قلاعهم فحُصرت مدّة طويلة وقُوتلت قتالاً شديداً إلى أن مُلكت هذه السنة، فاطمأن إذاً أهل سواد الموصل المجاورون لهؤلاء القوم فإنّهم كانوا معهم في ضائقة كبيرة من نهب أموالهم وخراب البلاد.

ذكر مُلك قلاع الهكّارية وكواشي

وحُكي عن بعض العلماء من الأكراد ممّن له معرفة بأحوالهم أن أتابك زنكي لما ملك قلاع الحميديّة وأجلاهم عنها خاف أبو الهيجاء بن عبد الله صاحب قلعة أشَب والجزيرة ونوشى، فأرسل إلى أتابك زنكي من استحلفه له وحمل إليه مالاً: وحضر عند زنكي بالموصل فبقي مدّة ثمّ مات فدُفن بتل توبة. ولما سار عن أشب إلى الموصل أخرج ولده أحمد بن أبي الهيجاء (١٥/١١) منها خوفاً أن يتغلّب عليها، وأعطاه قلعة نوشى: وأحمد هذا هو والد عليّ بن أحمد المعروف بالمشطوب من أكابر أمراء صلاح الدين بن أيّوب بالشام.

ولما أخرجه أبوه من أشب استناب بها كرديّاً يقال له باو الأرجيّ، فلمّا مات أبو الهيجاء سار ولده أحمد بن نوشى إلى أشب ليملكها، فمنعه باو، وأراد حفظها لولد صغير لأبي الهيجاء اسمه

عليّ، فسار زنكي بعسكره فنزل على أشب وملكها.

وسبب مُلكها أنّ أهلها نزلوا كلّهم إلى القتال، فتركهم زنكي حتى قاربوه واستجرّهم حتى أبعدوا عن القلعة ثمّ عطف عليهم فانهزموا، فوضع السيف فيهم، فأكثر القتل والأسر، وملك زنكي القلعة في الحال وأحضر جماعة من مقدّمي الأكراد فيهم باو فقتلهم وعاد عنها إلى الموصل، ثم سار عنها، ففي غيبته أرسل نصير الدين جقر نائب زنكي وخرّب أشب وخلّى كُهَيجَة ونوشى وقلعة الجلاّب، وهي قلعة العِماديّة، وأرسل إلى قلعة الشعبانيّ وفرح وكوشر والزعفران وألقى ونيروة، وهي حصون المهرانيّة، فحصرها فملك الجميع، واستقام أمر الجبل والزُّوزان، وأمنت الرعايا من الأكراد.

وأما باقي قلاع الهكّارية جل صورا، وهَرُور، والملاسي، وما بَرها وبابوخا وباكزا ونسباس، فإنّ قراجة صاحب العماديّة فتحها من مدّة طويلة بعد قتل زنكي، وقراجة هذا كان أميراً قد أقطعه زين الدين عليّ بلد الهكّاريّة بعد قتل زنكي، ولم أعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلهذا ذكرتُه هاهنا.

وحكى غير هذا بعض فضلاء الأكراد وخالف فيه فقال: إنّ زنكي لما فتح قلعة أشب وخرّبها وبنى قلعة العماديّة ولم يبقَ في الهكّارية إلاّ صاحب جلّ صورا وصاحب هرور، ولم يكن لهما شوكة يخاف منها، عاد إلى الموصل، (١٦/١١) فخافه أصحاب القلاع الجبليّة، فاتفق أن عبد اللّه بن عيسى بن إبراهيم صاحب الربيّة وألقى وفرح وغيرها توفّي وملكها بعده ولده عليّ، وكانت والدته خديجة بنت الحسن أخت إبراهيم وعيسى، وهما من الأمراء، مع زنكي، وكانا بالموصل، فأرسلها ولدها عليّ إلى أخويها وطلبا له الأمان من زنكي وحلّفاه له ففعل، ونزل إلى خدمة زنكي وأقرّه على قلاعه واشتغل زنكي بفتح قلاع الهكّارية، وكان الشعبانيّ بيد أمير من المهرانيّة اسمه الحسن بن عُمر، فأخذه منه وقرّبه منه لكبره وقلّة أعماله.

وكان نصير الدين جقر يكره علياً صاحب الربيّة وغيرها، فحسّن لزنكي القبض عليه، فأذن له في ذلك، فقبض عليه ثمّ ندم زنكي على قبضه فأرسل إلى نصير الدين أن يطلقه فرآه قد مات، قيل إنّ نصير الدين قتله. ثمّ أرسل العسكر إلى قلعة الربيّة فنازلوها بغتةً، فملكوها في ساعة، وأسروا كلّ مَن بها من ولد عليّ وإخوته وأخواته، وكانت والدة عليّ خديجة غائبة فلم توجد، فلمّا سمع زنكي الخبر بفتح الربيّة سرّه، وأمر أن تسير العساكر إلى باقي القلاع التي لعليّ، فسارت العساكر، فحصروها، فرأوها منيعة، فراسلهم زنكي ووعدهم الإحسان، فأجابوه إلى التسليم على شرط أن يطلق كلّ مَن في السجن منهم، فلم يجبهم إلى ذلك، إلاّ أن يسلّموا أيضاً قلعة كواشى، فمضت خديجة والدة عليّ إلى صاحب كواشى واسمه خول وهرون وهو من المهرانيّة، فسألته النزول عن كواشى، فأجابها إلى ذلك، وتسلّم زنكي القلاع وأطلق الأسرى، فلم يُسمع بمثل هذا، فقال ينزل من مثل كواشى لقول امرأة فإمّا أن يكون أعظم النّاس مروءةً لا يردّ من دخل بيته، وإمّا أن يكون أقلّ النّاس عقلاً: واستقامت ولاية الجبال. (١٧/١١)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أوقع الدانشمند صاحب مَلَطْية بالفرنج الذين بالشام، فقتل كثيراً منهم وأسر كثيراً.

وفيها اصطلح وأتابك زنكي: وفيها في ربيع الأوّل، عُزل شرف الدين أنوشروان بن خالد عن وزارة الخليفة.

وفيها توفّيت أمّ المسترشد باللّه.

وفيها سيّر المسترشد عسكراً إلى تكريت فحصروا مجاهد الدين بهروز فصانع عنها بمال فعادوا عنه.

وفيها اجتمع جمع من العساكر السنجريّة مع الأمير أرغش وحصروا قلعة كردكوه بخراسان، وهي للإسماعيليّة، وضيقوا على أهلها وطال حصرها، وعُدمت عندهم الأقوات، فأصاب أهلها تشنّج وكزاز، وعجز كثير منهم عن القيام فضلاً عن القتال، فلمّا ظهرت أمارات الفتح رحل الأمير أرغش فقيل إنّهم حملوا إليه مالاً كثيراً وأعلاقاً نفيسة، فرحل عنهم.

وفيها توفّي الأمير سليمان بن مهارش العقيليّ أمير بني عقيل ووليَ الإمارة بعده أولاده مع صغر سنّهم، وطيف بهم في بغداد رعايةً لحقّ جَدّهم مهارش، فإنّه هو الذي كان الخليفة القائم بأمر اللّه عنده في الحديثة لما فعل به البساسيريُّ ما ذكرنا.

وفيها، في المحرّم، توفّي الفقيه أبو عليّ الحسن بن إبراهيم بن فرهون الشافعيُّ الفارقيُّ، ومولده بميافارقين سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، وتفقّه بها على أبي عبد اللّه الكازروني، فلمّا توفّي الكازروني انحدر إلى بغداد وتفقّه على أبي إسحاق الشيرازي وأبي نصر الصبّاغ، ووليَ القضاء بواسط، وكان خيّراً فاضلاً لا يواري ولا يحابي أحداً في الحكم. (١٨/١١)

وفيها توفي عبد [اللّه] بن محمّد بن أحمد بن الحسن أبو محمّد بن أبي بكر الفقيه الشافعيّ: تفقه على أبيه وأقتى وناظر، وكان يعظ ويُكثر في كلامه من التجانُس، فمن ذلك قوله: أين القدود العالية، والخدود الورديّة، ملئت بها واللّه العالية والورديّة، وهما مقبرتان بنهر المعلّى. ومن شعره:

الدمعُ دَمعاً يَسيلُ مِنْ أجْفاني إن عشتُ مَعَ البكا فما أجْفاني

سِجني شَجَني وهَمّني سِمّاني العاذِلُ بالمَلامِ قَد سَمّاني
والذِّكرُ لهَم يَزيدُ في أشجاني والنَّوحُ معَ الحمَامِ قد أشجاني
ضَاقَتْ بِعادِ مُنَيّتي أعطاني وَاليَأسُ يَدَ الهمومِ قد أعطاني

وفيها توفّي ابن أبي الصّلت الشاعر، ومن شعره يذمّ ثقيلاً :

لي صَديق عجبتُ كيفَ استطاعتْ هَذهِ الأرْضُ وَالجبالُ تُقِلّهْ
أنا أرْعاهُ مُكْرِماً ويَقَلْبي منهُ ما يَنسِفُ الجبالَ أقَلّهْ
هوَ مثلُ المَشيبِ أكْرَهُ رُؤيا هُ وَلَكِن أصُونُهُ وأُجِلّهْ

وله أيضاً :

سادَ صِغارُ النّاسِ في عصرِنا لا دامَ مِن عَصرٍ وَلا كانَا
كالسّتِ مهما همّ أن يَقضي صارَ بهِ اليَأسُ فِرزانَا

وفيها توفّي محمّد بن عليّ بن عبد الوهّاب أبو رشيد الفقيه الشافعيُّ من أهل طَبَرستان، وسمع الحديث أيضاً ورواه، وكان زاهداً عابداً أقام بجزيرة في البحر سنين منفرداً يعبدُ اللّه، سبحانه وتعالى، وعاد إلى آمل فتوفّي فيها وقبره يزار. (١٩/١١)

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

ذكر وفاة الملك طُغرُل ومُلك مسعود بلد الجبل

قد ذكرنا قدوم السلطان مسعود إلى بغداد منهزماً من أخيه الملك طُغرُل بن محمد، فلمّا وصل إلى بغداد أكرمه الخليفة وحمل إليه ما يحتاج إليه مثله، وأمره بالمسير إلى همذان وجمْع العساكر ومنازعة أخيه طغرل في السلطنة والبلاد، ومسعود يَعِد ويدافع الأيّام، والخليفة يحثّه على ذلك، ووعده أن يسير معه بنفسه، وأمر أن تُبرز خيامه إلى باب الخليفة.

وكان قد اتّصل الأمير البَقش السلاحيّ وغيره من الأمراء بالخليفة. وطلبوا خدمته، فاستخدمهم واتّفق معهم. واتّفق أنّ إنساناً أخذ فوُجد معه مُلطّفاتٌ من طُغرُل إلى هؤلاء الأمراء وخاتمه بالإقطاع لهم، فلمّا رأى الخليفة ذلك قبض على أمير منهم اسمه أغلبك ونهب ماله، فاستشعر غيره من الأمراء الذين مع الخليفة، فهربوا إلى عسكر السلطان مسعود، فأرسل الخليفة إلى مسعود في إعادتهم إليه، فلم يفعل واحتجّ بأشياء، فعظم ذلك على الخليفة وحدث بينهما وحشة أوجبت تأخّره عن المسير معه، وأرسل إليه يُلزمه بالمسير معه أمراً جزماً، فبينما الأمر على هذا إذ جاءه الخبر بوفاة أخيه طغرل، وكانت وفاته في المحرّم من هذه السنة، وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة في المحرّم، وكان خيّراً عاقلاً عادلاً قريباً إلى الرعيّة محسناً إليها، وكان قبل موته قد خرج من داره يريد السفر إلى أخيه السلطان مسعود، فدعا له النّاس، فقال: (٢٠/١١) ادعوا بخيرنا للمسلمين.

ولما توفّي ووصل الخبر إلى مسعود سار من ساعته نحو همذان، وأقبلت العساكر جميعها إليه، واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد، وكان قد خرج في صحبته هو وأهله، ووصل مسعود إلى همذان واستولى عليها وأطاعته البلاد جميعها وأهلها.

ذكر قَتْل شمس الملوك ومُلك أخيه

في هذه السنة رابع عشر ربيع الآخر، قُتل شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري بن طغدكين صاحب دمشق، وسبب قتله أنّه ركب طريقاً شنيعاً من الظلم ومصادرات العمّال وغيرهم من أعمال البلد، وبالغ في العقوبات لاستخراج الأموال، وظهر منه بخلٌ زائد ودناءة نفس بحيث إنّه لا يأنف من أخذ الشيء الحقير بالعدوان، إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة وكرهه أهله وأصحابه ورعيته.

ثم ظهر عنه أنّه كاتب عماد الدين زنكي يُسلّم إليه دمشق ويحثّه على سرعة الوصول، وأخلى المدينة من الذخائر والأموال، ونقل الجميع إلى صرخد، وتابع الرسل إلى زنكي يحثّه على الوصول إليه ويقول له: إن أهملتَ المجيء سلّمتها إلى الفرنج: فسار زنكي، فظهر الخبر بذلك في دمشق فامتعض أصحاب أبيه وجدّه لذلك وأقلقهم، وأنهوا الحال لوالدته فساءها وأشفقت منه، ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر.

ثم إنّها ارتقبت الفرصة في الخلوة من غلمانه، فلمّا رأته على ذلك أمرت غلمانها بقتله فقُتل، وأمرت بإلقائه في موضع من الدار ليشاهده غلمانه (٢١/١١) وأصحابه، فلمّا رأوه قتيلاً سُرّوا لمصرعه وبالراحة من شرّه.

وكان مولده ليلة الخميس سابع جمادى الآخرة سنة ستّ وخمسمائة، وقيل كان سبب قتله أنّ والده كان له حاجب اسمه يوسف بن فيروز وكان متمكناً منه حاكماً في دولته، ثمّ في دولة شمس الملوك بعده، فاتُّهم بأمّ شمس الملوك، ووصل الخبر إليه بذلك فهَمّ بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر، وتحصّن بها، وأظهر الطاعة لشمس الملوك، فأراد قتل أمّه، فبلغها الخبر فقتلته خوفاً منه، واللّه أعلم.

ولما قُتل ملك بعده أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري وجلس في منصبه وحلف له النّاس كلهّم واستقرّ في المُلك، واللّه أعلم.

ذكر حصر أتابك زنكي دمشق

في هذه السنة حصر أتابك زنكي دمشق، وكان نزوله عليها أوّل جُمادى الأولى، وسببه ما ذكرنا من إرسال شمس الملوك صاحبها إليه واستدعائه ليسلّمها إليه، فلمّا [وصلت] كتبه ورسله

بذلك سار إليها، فقُتل شمس الملوك قبل وصوله، ولما عبر الفرات أرسل إليه رسلاً في تقرير قواعد التسليم، فرأوا الأمر قد فات إلاّ أنّهم أكرموا وأُحسن إليهم وأعيدوا بأجمل جواب، وعرف زنكي قتل شمس الملوك، وأنّ القواعد عندهم مستقرة لشهاب الدين، والكلمة متفقة على طاعته، فلم يحفل زنكي بهذا الجواب، (٢٢/١١) وسار إلى دمشق فنازلها، وأجفل أهلُ السواد إلى دمشق، واجتمعوا فيها على محاربته.

ونزل أوّلاً شماليها ثمّ انتقل إلى ميدان الحصار، وزحف وقاتل. فرأى قوّة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتّفاقاً تاماً على محاربته: وقام معين الدين أنز مملوك جدّه طغدكين في هذه الحادثة بدمشق قياماً مشهوداً، وظهر من معرفته بأمور الحصار والقتال وكفايته ما لم يُرَ وما كان سبب تقدّمه واستيلائه على الأمور بأسرها، على ما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

فبينما هو يحاصرها وصل رسول الخليفة المسترشد باللّه وهو أبو بكر بن بشر الجزريّ من جزيرة ابن عمر بخِلع لأتابك زنكي، ويأمره بمصالحة صاحب دمشق الملك ألب أرسلان محمود الذي مع أتابك زنكي، فرحل عنها لليلتين بقيتا من جُمادى الأولى من السنة المذكورة.

ذكر قتل حسن بن الحافظ

قد ذكرنا سنة ستّ وعشرين وخمسمائة أنّ الحافظ لدين اللّه صاحب مصر استوزر ابنه حسناً، وخطب له بولاية العهد، فبقي إلى هذه السنة ومات مسموماً: وسبب ذلك أن أباه الحافظ استوزره وكان جريئاً على سفك الدماء، وكان في نفس الحافظ على الأمراء الذين أعانوا أبا عليّ بن الأفضل حقد، ويريد الانتقام منهم من غير أن يباشر ذلك بنفسه، فأمر ابنه حسناً بذلك، فتغلب على الأمر جميعه، واستبدّ به، ولم يبقَ لأبيه معه حكمٌ، وقتل من الأمراء المصريّين ومن أعيان البلاد أيضاً حتى إنّه قتل في ليلة واحدة أربعين أميراً. (٢٣/١١)

فلمّا رأى أبوه تغلّبه عليه أخرج له خادماً من خدم القصر الأكابر، فجمع الجموع وحشد من الرجّالة خلقاً كثيراً، وتقدّم إلى البلد، فأخرج إليهم حسن جماعة من خواصّه وأصحابه، فقاتلوهم، فانهزم الخادم وقُتل من الرجّالة الذين معه خلق كثير، وعبر الباقون إلى برّ الجزيرة، فاستكان الحافظ، فصبر تحت الحجر. ثمّ إنّ الباقين من الأمراء المصريّين اجتمعوا واتّفقوا على قتل حسن، وأرسلوا إلى أبيه الحافظ وقالوا له: إمّا أنّك تسلّم ابنك إلينا لنقتله أو نقتلكما جميعاً: فاستدعى ولده إليه واحتاط عليه، وأرسل إلى الأمراء بذلك، فقالوا: لا نرضى إلاّ بقتله. فرأى أنّه إن سلّمه إليهم طمعوا فيه وليس إلى إبقائه سبيل، فأحضر طبيبَين كانا له أحدهما مسلم والآخر يهوديّ، فقال لليهوديّ: نريد سمّاً نسقيه لهذا الولد ليموت ونخلص من هذه الحادثة. فقال: أنا لا أعرف غير النقوع وماء الشعير وما شاكل هذا من الأدوية. فقال: أنا أريد ما أخلص به من هذه المصيبة. فقال له: لا أعرف شيئاً. فأحضر الطبيب المسلم وسأله عن ذلك، فصنع له شيئاً فسقاه الولد فمات لوقته: فأرسل الحافظ إلى الجند يقول لهم: إنّه قد مات. فقالوا: نريد [أن] ننظر إليه: فأحضر بعضهم عنده فرأوه وظنّوه قد عمل حيلة، فجرحوا أسافل رجليه فلم يجر منها دم، فعلموا موته وخرجوا.

ودُفن حسن وأحضر الحافظ الطبيب المسلم وقال له: ينبغي أن تخرج من عندنا من القصر، وجميع ما لك من الإنعام والجامكيّة باقٍ عليك. وأحضر اليهوديّ وزاده وقال له: أعلم أنّك تعرف ما طلبتهُ منك ولكنّك عاقل فتقيم في القصر عندنا.

وكان حسن سيّئَ السيرة ظالماً جريئاً على سفك الدماء وأخذ الأموال، فهجاه الشعراء، فمن ذلك ما قال المعتمد بن الأنصاريّ صاحب الترسّل المشهور:

لم تأتِ يا حسنٌ بينَ الورَى حسَناً ... ولم تَرَ الحَقّ في دنيا ولا دينِ (٢٤/١١)

قتلُ النّفوسِ بلا جُرمٍ ولا سببٍ ... والجورُ في أخذِ أموالِ المساكينِ

لقد جَمَعتَ بلا علمٍ ولا أدبٍ ... سيرةَ المُلوكِ وأخلاقَ المجانينِ

وقيل إنّ الحافظ لما رأى ابنه تغلّب على الملك وضع عليه مَن سقاه السمّ فمات، واللّه أعلم.

ولما مات حسن استوزر الحافظ الأميرَ تاج الدولة بهرام، وكان نصرانياً، فتحكّم واستعمل الأرمن على النّاس، فاستذلّوا المسلمين، وسيأتي ذكر ذلك سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة إن شاء اللّه تعالى.

ذكر مسير المسترشد إلى حرب السلطان مسعود وانهزامه

في هذه السنة كانت الحرب بين الخليفة المسترشد باللّه وبين السلطان مسعود في شهر رمضان، وسبب ذلك أنّ السلطان مسعوداً لما سافر من بغداد إلى همذان، بعد موت أخيه طُغرُل، وملكها، فارقه جماعة من أعيان الأمراء منهم يرنقش بازدار وقزل آخُر وسُنْقُر الخمارتكين والي هَمَذان، وعبد الرحمن بن طغايرك، وغيرهم، خائفين منه، مستوحشين، ومعهم عددٌ كثيرٌ وانضاف إليهم دُبيس بن صدقة. وأرسلوا إلى الخليفة يطلبون منه الأمان ليحضروا خدمته، فقيل له: إنّها مكيدة لأن دُبيساً معهم. وساروا نحو خوزستان، واتّفقوا مع برسق بن برسق، فأرسل الخليفة إليهم سديد الدولة ابن الأنباريّ بتوقيعات إلى الأمراء المذكورين بتطييب نفوسهم والأمر بحضورهم. (٢٥/١١)

وكان الأمراء المذكورون قد عزموا على قبض دبيس والتقرّب إلى الخليفة بحمله إليه، فبلغه ذلك فهرب إلى السلطان مسعود. وسار الأمراء إلى بغداد في رجب، فأكرمهم الخليفة وحمل إليهم الإقامات والخِلَع، وقُطعت خُطب السلطان مسعود من بغداد، وبرز الخليفة في العشرين من رجب على عزم المسير إلى قتال مسعود وأقام في الشفيعيّ، فعصى عليه بكبه صاحب البصرة فهرب إليها، فراسله وبذل له الأمان فلم يعُد إليه.

وتريّث الخليفة عن المسير وهؤلاء الأمراء يحسّنون له الرحيل، ويسهّلون عليه الأمر، ويضعّفون عنده أمر السلطان مسعود، فسيّر مقدّمته إلى حُلوان فنهبوا البلاد، وأفسدوا ولم ينكر عليهم أحد شيئاً، ثمّ سار الخليفة ثامن شعبان ولحق به في الطريق الأمير برسق بن برسق فبلغت عدّتهم سبعة آلاف فارس وتخلّف بالعراق مع إقبال خادم المسترشد باللّه ثلاثة آلاف فارس.

وكان السلطان مسعود بهمذان في نحو ألف وخمس مائة فارس، وكان أكثر أصحاب الأطراف يكاتبون الخليفة ويبذلون له الطاعة، فتريّث في طريقه، فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم حتى صاروا في نحو خمسة عشر ألف فارس، وتسلّل جماعة كثيرة من عسكر الخليفة حتى بقي في خمسة آلاف، وأرسل أتابك زنكي نجدة فلم تلحق.

وأرسل الملك داود ابن السلطان محمود وهو بأذربيجان إلى الخليفة يشير بالميل إلى الدِّينَوَر ليحضر بنفسه وعسكره، فلم يفعل المسترشد ذلك وسار حتى بلغ دايمرج، وعبّأ أصحابه، فجعل في الميمنة يرنقش بازدار ونور الدولة سُنقُر وقزل آخُر وبرسق بن برسق، وجعل في الميسرة جاولي (٢٦/١١) وبرسق شراب سلار وأغلبك الذي كان الخليفة قد قبض عليه وأخرجه من محبسه.

ولما بلغ السلطانَ مسعوداً خبرهم سار إليهم مجدّاً، فواقعهم بدايمرج عاشر رمضان، وانحازت ميسرة الخليفة مخامرة عليه إلى السلطان مسعود فصارت معه، واقتتلت ميمنته وميسرة السلطان قتالاً ضعيفاً، ودار به عسكر السلطان وهو ثابت لم يتحرّك من مكانه، وانهزم عسكره وأُخذ هو أسيراً ومعه جمع كثير من أصحابه منهم الوزير شرف الدين عليُّ بن طراد الزينبيّ وقاضي القضاة وصاحب المخزن ابن طلحة، وابن الأنباري والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم، وأُنزل الخليفة في خيمة وغنموا ما في معسكره وكان كثيراً، فحُمل الوزير وقاضي القضاة وابن الأنباري وصاحب المخزن وغيرهم من الأكابر إلى قلعة سرجهان، وباعوا الباقين بالثمن الطفيف، ولم يُقتل في هذه المعركة أحدٌ وهذا من أعجب ما يُحكى.

وعاد السلطان إلى همذان وأمر فنودي: مَن تبعنا إلى همذان من البغداديّين قتلناه: فرجع النّاس كلّهم على أقبح حالة لا يعرفون طريقاً وليس معهم ما يحملهم، وسيّر السلطان الأمير بك أبه المحموديّ إلى بغداد شحنةً فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد، فقبضوا جميع أملاك الخليفة وأخذوا غلاّتها.

وثار جماعة من عامّة بغداد، فكسروا المنبر والشبّاك، ومنعوا من الخطبة، وخرجوا إلى الأسواق يَحْثُون التراب على رؤوسهم ويبكون ويصيحون، وخرج النساء حاسرات في الأسواق يلطمن، واقتتل أصحاب الشحنة وعامّة بغداد فقُتل من العامّة ما يزيد على مائة وخمسين قتيلاً، وهرب الوالي وحاجب الباب. (٢٧/١١)

وأمّا السلطان فإنّه سار في شوّال من همذان إلى مراغة لقتال الملك داود ابن أخيه محمود، وكان قد عصى عليه، فنزل على فرسخَيْن من مَراغة، والمسترشد معه، فتردّدت الرسل بين الخليفة وبين السلطان في الصلح، فاستقرّت القاعدة على ما نذكره إن شاء اللّه، واللّه الموفّق.

ذكر قَتْل المسترشد باللّه وخلافة الراشد باللّه

لما قُبض المسترشد باللّه أبو منصور بن الفضل بن المستظهر باللّه أبي العبّاس أحمد، على ما ذكرناه، أنزله السلطان مسعود في خيمة، ووكّل به مَن يحفظه، وقام بما يجب من الخدمة، وتردّدت الرسل بينهما في الصُّلح وتقرير القواعد على مال يؤدّيه الخليفة، وأن لا يعود يجمع العساكر وأن لا يخرج من داره، فأجاب السلطان إلى ذلك، وأركب الخليفة وحمل الغاشية بين يديه ولم يبقَ إلاّ أن يعود إلى بغداد. فوصل الخبر أنّ الأمير قرّان خوان قد قدم رسولاً من السلطان سَنجَر، فتأخرّ مسير المسترشد لذلك، وخرج النّاس والسلطان مسعود إلى لقائه، وفارق الخليفةَ بعضُ مَن كان موكّلاً به، وكانت خيمته منفردة عن العسكر، فقصده أربعة وعشرون رجلاً من الباطنيّة ودخلوا عليه فقتلوه، وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة، ومثّلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً، وقُتل معه نفر من أصحابه منهم أبو عبد اللّه بن سُكينة، وكان قتله يوم الخميس سابع عشر ذي القعدة على باب مَراغة، وبقي حتى دفنه أهل مَراغة.

وأمّا الباطنيّة فقُتل منهم عشرة، وقيل: بل قُتلوا جميعهم، واللّه أعلم.(٢٨/١١) وكان عمره لما قُتل ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وستّة أشهر وعشرين يوماً، وأُمّه أمّ ولد، وكان شهماً شجاعاً، كثير الإقدام، بعيد الهمّة، وأخباره المذكورة تدلّ على ما ذكرناه. وكان فصيحاً بليغاً حسن الخطّ، ولقد رأيتُ خطّه في غاية الجودة ورأيتُ أجوبته على الرقاع من أحسن ما يُكتب وأفصحه.

ولما قُتل المسترشد باللّه بويع ولده أبو جعفر المنصور، ولُقّب

الراشد باللّه، وكان المسترشد قد بايع له بولايةِ العهد في حياته، وجُدّدت له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي القعدة: وكتب السلطان مسعود إلى بك أبه الشحنة ببغداد فبايع له، وحضر النّاس البيعة، وحضر بيعته أحدٌ وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء: وبايع له الشيخ أبو النجيب، ووعظه، وبالغ في الموعظة. وأمّا جمال الدولة إقبال فإنّه كان ببغداد في طائفة من العسكر،فلمّا جرت هذه الحادثة عبر إلى الجانب الغربيّ، وأصعد إلى تكريت وراسل مجاهد الدين بهروز، وحلّفه وصعد إليه بالقلعة.

ذكر مسير السلطان سَنجَر إلى غزنة وعوده عنها

في هذه السنة، في ذي القعدة، سار السلطان سَنجَر من خُراسان إلى غَزنَة، وسبب ذلك أنّه نُقل إليه عن صاحبها بَهرام شاه أنّه تغيّر عن طاعته، وأنّه قد مدّ يده إلى ظلم الرعّايا واغتصاب أموالهم. (٢٩/١١)

وكان السلطان سَنجَر هو الذي ملك غَزنة، وقد ذكرناه سنة تسع وخمسمائة، فلمّا سمع هذه الأخبار المزعجة سار إلى غزنة ليأخذها أو يصلحه، فلمّا سلك الطريق وأبعد أدركهم شتاء شديد البرد، كثير الثلج، وتعذّرت عليهم الأقوات والعلوفات، فشكا العسكر إلى السلطان ذلك وذكروا له ما هم فيه من الضيق وتعذّر ما يحتاجون إليه، فلم يجدوا عنده غير التقدّم أمامه: فلمّا قارب غَزنة أرسل بَهرام شاه رُسلاً يضرع إلى سَنجَر ويسأل الصفح عن جرمه، والعفو عن ذنبه، فأرسل إليه سَنجر المقرّب جوهراً الخادم، وهو أكبر أمير عنده، ومن جملة أقطاعه مدينة الرَّيّ، في جواب رسالته يجيبه عن العفو عنه إن حضر عنده وعاد إلى طاعته، فلمّا وصل إلى بهرام شاه أجابه إلى ما طلب منه من الطاعة وحمل المال والحضور بنفسه في خدمته، وأظهر من الطاعة والانقياد لما يحكم به السلطان سنجر شيئاً كثيراً.

وعاد المقرّب جوهر ومعه بهرام شاه إلى سنجر، فسبقه المقرّب إلى السلطان سنجر وأعلمه بوصول بهرام شاه، وأنّه بُكرة غد يكون عنده، وعاد المقرّب إلى بهرام شاه ليجيء بين يديه، وركب سنجر من الغد في موكبه لتلقّيه، وتقدّم بهرام شاه ومعه المقرّب إلى سنجر، فلمّا عاين موكب سنجر والجتر على رأسه نكص على عقبيه عائداً، فأمسك المقرّب عنانه وقبّح فعله، وخوّفه عاقبة ذلك، فلم يرجعْ وولّى هارباً ولم يصدق بنجاته ظنّاً منه أنّ سنجر يأخذه ويملك بلده: وتبعه طائفة من أصحابه وخواصّه، ولم يعرّج على غزنة، وسار سنجر إلى غزنة فدخلها وملكها واحتوى على ما فيها وجبى أموالها، وكتب إلى بهرام شاه كتاباً يلومه على ما فعله ويحلف له أنّه ما أراد به سوءاً، ولا له في بلده مطمع، ولا هو ممّن يكدّر صنيعته وتعقب حسنته معه بسيّئة، وإنّما قصده لإصلاحه، فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنصّل ويقول إنّ الخوف (٣٠/١١) منعه من الحضور، ولا لوم على مَن خاف مثل السلطان، ويضرع في عوده إلى الإحسان، فأجابه سنجر إلى إعادة بلده إليه وفارق غزنة عائداً إلى بلاده، فوصل إلى بلخ في شوّال سنة ثلاثين وخمسمائة واستقرّ مُلك غزنة لبهرام شاه ورجع إليها مالكاً لها ومستولياً عليها.

ذكر قتل دُبيس بن صدقة بالتاريخ

في هذه السنة قتل السلطان مسعودٌ دُبيس بن صدقة على باب سرادقة بظاهر خُوَنج، أمر غلاماً أرمنيّاً بقتله، فوقف على رأسه وهو ينكت الأرض بإصبعه، فضرب رقبته وهو لا يشعر، وكان ابنه صدقة بالحِلّة، فاجتمع إليه عسكر أبيه ومماليكه، وكثر جمعه واستأمن إليه الأمير قتلغ تكين، وأمر السلطان مسعود بك أبه أن يأخذ الحِلّة، فسار بعض عسكره إلى المدائن، وأقاموا مدّة ينتظرون لحاق بك أبه بهم فلم يسر إليهم جُبْناً وعجزاً عن قصد الحِلّة لكثرة العسكر بها مع صدقة. وبقي صدقة بالحِلّة إلى أن قدم السلطان مسعود إلى بغداد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فقصده وأصلح حاله معه ولزم وخدمته.

ومثل هذه الحادثة تقع كثيراً وهي قرب موت المتعادِيين، فإنّ دُبيساً كان يُعادي المسترشد باللّه ويكره خلافته، ولم يكن يعلم أنّ السلاطين إنّما كانوا يُبقون عليه ليجعلوه عُدّة لمقاومة المسترشد، فلمّا زال السبب زال المسبّب، واللّه أعلم بذلك. (٣١/١١)

ذكر حصر عسكر يحيى المهديّة

في هذه السنة سيّر يحيَى بن العزيز بن حمّاد صاحب بَجاية عسكراً ليحضروا المهديّة، وبها صاحبها الحسن بن عليّ بن تميم بن المعزّ بن باديس، وكان سبب ذلك أنّ الحسن أحبّ ميمون بن زياد أمير طائفة كبيرة من العرب، وزاده على سائر العرب، فحسده العرب فسار أمراؤها إلى يحيَى بن العزيز بأولادهم، وجعلوهم رهائن عنده، وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكراً ليملكوا له المهديّة، فأجابهم إلى ذلك وهو متباطئ. فاتّفق أنّه وصله كتب من بعض مشايخ المهديّة بمثل ذلك، فوثق بما أتاه وسيّر عسكراً كثيفاً واستعمل عليهم قائداً كبيراً من فقهاء أصحابه يقال له مطرف بن حمدون.

وكان يحيَى هذا هو وآباؤه يحسدون أولاد المنصور أبي الحسن هذا، فسارت العساكر الفارس والراجل ومعهم من العرب جمع كثير حتى نزلوا على المهديّة وحصروها برّاً وبحراً. وكان مطرّف يُظهر التقشّف والتورّع عن الدماء، وقال: إنّما أتيتُ الآن لأتسلّم البلد بغير قتال: فخاب ظنّه، فبقي أياماً لا يُقاتل، ثم إنّهم باشروا القتال فظهر أهل المهديّة عليهم وأثّروا فيهم، وتوالى القتال

وفي كلّ ذلك الظفر لأهل البلد، وقُتل من الخارجين جمٌّ غفير.

وجمع مطرّف عسكره وزحف برّاً وبحراً لما يئس من التسليم، وقاتل أشدّ قتال، فملكت شوانيه شاطىء البحر، وقربوا من السور، فاشتد الأمر، فأمر الحسن بفتح الباب من الشاطىء وخرج أوّل النّاس، وحمل هو ومَن معه عليهم وقال: أنا الحسن! فلمّا سمع مَن يقاتله دعواه سلّموا عليه، (٣٢/١١) وانهزموا عنه إجلالاً له، ثمّ أخرج الحسن شوانيه تلك الساعة من الميناء، فأخذ من تلك الشواني أربع قطع، وهُزم الباقي.

ثم وصلته نجدة من رجّار الفرنجيّ، صاحب صقلّية، في البحر، في عشرين قطعة، فحصرت شواني صاحب بجاية، فأمرهم الحسن بإطلاقها فأطلقوها، ثم وصل ميمون بن زياد في جمع كثير من العرب لنصرة الحسن، فلمّا رأى ذلك مطرّف وأنّ النجدات تأتي الحسن في البرّ والبحر، علم أنّه لا طاقة له بهم، فرحل عن المهدية خائباً، وأقام رجّار الفرنجي مظهراً للحسن أنّه مهادنه وموافقه وهو مع ذلك يعمر الشواني ويكثر عددها.

ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة

كانت جزيرة جربة من بلاد إفريقية قد استوت في كثرة عمارتها وخيراتها، غير أنّ أهلها طغوا فلا يدخلون تحت طاعة سلطان، ويُعرفون بالفساد وقطع الطريق، فخرج إليها جمع من الفرنج، أهل صقلّية، في أسطول كثير وجمّ غفير، فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة، فنزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها.

واجتمع أهلها وقاتلوا قتالاً شديداً، فوقع بين الفريقين حرب شديدة، فثبت أهل جربة، فقُتل منهم بشرٌ كثير، فانهزموا وملك الفرنج الجزيرة، وغنموا أموالها وسبوا نساءها وأطفالها، وهلك أكثر رجالها، ومَن بقي منهم أخذوا لأنفسهم أماناً من رجّار ملك صقلّية، وافتكّوا أسراهم وسبيهم وحريمهم، واللّه أعلم بذلك. (٣٣/١١)

ذكر مُلك الفرنج حصن روطة من بلاد الأندلس

في هذه السنة اصطلح المستنصر باللّه بن هود والسُّليطين الفرنجيّ صاحب طُليطُلة من بلاد الأندلس مدّة عشر سنين. وكان السليطين قد أدمن غزو بلاد المستنصر وقتاله، حتى ضعف المستنصر عن مقاومته لقلّة جنوده وكثرة الفرنج، فرأى أن يصالحه مدّة يستريحُ فيها هو وجنوده، ويعتدّون للمعاودة، فتردّدت الرسل بينهم، فاستقرّ الصلح على أن يسلّم المستنصر إلى السليطين حصن روطة من الأندلس، وهو من أمنع الحصون وأعظمها، فاستقرّت القاعدة واصطلحوا وتسلّم منه الفرنج الحصن، وفعل المستنصر فعلة لم يفعلها قبله أحدٌ.

ذكر حصر ابن رُدمير مدينة أفراغة وهزيمته وموته

وفي هذه السنة حصر ابن رُدمير الفرنجي مدينة أفراغة من شرق الأندلس وكان الأمير يوسف بن تاشفين بن عليّ بن يوسف بمدينة قُرطُبة، فجهّز الزّبير بن عمرو اللمتوني والي قرطبة ومعه ألفا فارس وسيّر معه ميرة كثيرة إلى أفراغة.

وكان يحيَى بن غانية، الأمير المشهور، أمير مُرسية وبَلَنْسية من شرق الأندلس ووالي أمرها لأمير المسلمين عليّ بن يوسف، فتجهّز في خمس مائة فارس، وكان عبد اللّه بن عِياض صاحب مدينة لاردة، فتجهّز في مائتي فارس، فاجتمعوا وحملوا الميرة وساروا حتى أشرفوا على مدينة أفراغة، وجعل الزبير الميرة أمامه وابن غانية أمام الميرة، وابن عياض أمام ابن غانية، وكان شجاعاً بطلاً وكذلك جميع مَنْ معه. (٣٤/١١)

وكان ابن ردمير في اثني عشر ألف فارس، فاحتقر جميع الواصلين من المسلمين، فقال لأصحابه: اخرجوا وخذوا هذه الهديّة التي أرسلها المسلمون إليكم، وأدركه العُجب، ونفّذ قطعة كبيرة من جيشه. فلمّا قربوا من المسلمين حمل عليهم ابن عياض وكسرهم، وردّ بعضهم على بعض، وقتل فيهم، والتحم القتال، وجاء ابن ردمير بنفسه وعساكره جميعها مُدلّين بكثرتهم وشجاعتهم، فحمل ابن غانية وابن عياض في صدورهم واستحر الأمر بينهم وعظم القتال فكثر القتل في الفرنج، وخرج في الحال أهل أفراغة ذكرهم وأنثاهم، صغيرهم وكبيرهم، إلى خيام الفرنج، فاشتغل الرجال بقتل مَن وجدوا في المخيم، واشتغل النساء بالنهب، فحُمل جميع ما في المخيّم إلى المدينة من قوت وعُدَد وآلات وسلاح وغير ذلك.

وبينما المسلمون والفرنج في القتال إذ وصل إليهم الزبير في عسكره فانهزم ابن ردمير وولّى هارباً واستولى القتل على جميع عسكره فلم يسلم منهم إلاّ القليل، ولحق ابن ردمير بمدينة سَرقُسطَة، فلمّا رأى ما قُتل من أصحابه مات مفجوعاً بعد عشرين يوماً من الهزيمة، وكان أشدّ ملوك الفرنج بأساً، وأكثرهم تجرّداً لحرب المسلمين، وأعظمهم صبراً، وكان ينام على طارقته بغير وطاء، وقيل له: هلاّ تسرّيتَ من بنات أكابر المسلمين اللاتي سبيتَ؟ فقال: الرجل المحارب ينبغي أن يعاشر الرجال لا النساء، وأراح اللّه منه وكفى المسلمين شرّه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في شوّال، زُلزلت الأرض بالعراق والموصل وبلاد الجبل وغيرها، وكانت الزلزلة شديدة، وهلك فيها كثير من النّاس، واللّه أعلم. (٣٥/١١)

سنة ثلاثين وخمسمائة

ذكر الحرب بين عسكر الراشد وعسكر السلطان مسعود

في المحرّم من هذه السنة وصل يرنقش الزكويّ من عند السلطان مسعود يطالب الخليفة بما كان قد استقرّ على المسترشد من المال، وهو أربعمائة ألف دينار، فذكر أنّه لا شيء عنده، وأنّ المال جميعه كان مع المسترشد باللّه، فنُهب في الهزيمة المذكورة. ثمّ بلغ الراشد باللّه أنّ يرنقش يريد الهجوم على دار الخلافة وتفتيشها لأخذ المال، فجمع العساكر لمنع داره، وأمّر عليهم كج أبه، وأعاد عمارة السور.

فلمّا علم يرنقش بذلك اتّفق هو وبك أبه شحنة بغداد، وهو من أمراء السلطان، على أن يهجموا على دار الخليفة يوم الجمعة، فبلغ ذلك الراشد باللّه فاستعدّ لمنعهم، وركب يرنقش ومعه العسكر السُّلطاني والأمراء البكجيّة، ومحمّد بن عكر، في نحو خمسة آلاف فارس، ولقيهم عسكر الخليفة ومتقدّمهم كج أبه واقتتلوا قتالاً شديداً، وساعد العامّة عسكر الخليفة على قتال العسكر السُّلطاني حتى أخرجهم إلى دار السلطان، فلمّا جنّهم الليل ساروا إلى طريق خراسان، ثم انحدر بك أبه إلى واسط، وسار يرنقش إلى البندنيجين، ونهب أهل بغداد دار السلطان.(٣٦/١١)

ذكر اجتماع أصحاب الأطراف على حرب مسعود ببغداد وخروجهم عن طاعته

في هذه السنة اجتمع كثير من الأمراء وأصحاب الأطراف على الخروج عن طاعة السلطان مسعود فسار الملك داود ابن السلطان محمود في عسكر أذربيجان إلى بغداد، فوصلها رابع صفر، ونزل بدار السلطان، ووصل أتابك عماد الدين زنكي بعدّه من الموصل، ووصل يرنقش بازدار صاحب قزوين وغيرها، والبقش الكبير صاحب أصفهان، وصدقة بن دُبيس صاحب الحلّة، ومعه عنتر بن أبي العسكر الجاواني يدبّره، ويتمّم نقص صباه، وابن برسق، وابن الأحمديلي، وخرج إليهم من عسكر بغداد كج أبه والطرنطاي وغيرهما، وجعل الملك داود في شحنكية بغداد يرنقش بازدار، وقبض الخليفة الراشد باللّه على ناصح الدولة أبي عبد اللّه الحسن بن جُهير أستاذ الدار، وهو كان السبب في ولايته، وعلى جمال الدولة إقبال المسترشدي، وكان قد قدم إليه من تكريت ــ وعلى غيرهما من أعيان دولته، فتغيّرتْ نيّات أصحابه عليه وخافوه.

فأمّا جمال الدولة فإنّ أتابك زنكي شفع فيه شفاعة تحتها إلزام، فأُطلق وصار إليه ونزل عنده.

وخرج موكب الخليفة مع وزيره جلال الدين أبي الرضى بن صدقة إلى عماد الدين لتهنئته بالقدوم، فأقام عنده وسأله أن يمنعه من الخليفة، فأجابه إلى ذلك، وعاد الموكب بغير وزير، وأرسل زنكي مَن حرس دار (٣٧/١١) الوزير من النهّب، ثمّ أصلح حاله مع الخليفة، وأعاده إلى وزارته.

وكذلك أيضاً عبر عليه قاضي القضاة الزينبيُّ، وسار معه إلى الموصل، ثمّ إنّ الخليفة جدّ في عمارة السور، فأرسل الملك داود مَن قلع أبوابه وأخرب قطعة منه، فانزعج النّاس ببغداد، ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة، وقُطعت خطبة السلطان مسعود، وخُطب للملك داود وجَرَتِ الأيمان بين الخليفة والملك داود وعماد الدين زنكي، وأرسل الخليفة إلى أتابك زنكي ثلاثين ألف دينار لينفقها.

ووصل الملك سلجوقشاه إلى واسط فدخلها وقبض على الأمير بك أبه ونهب ماله وانحدر أتابك زنكي إليه لدفعه عنها واصطلحا وعاد زنكي إلى بغداد وعبر إلى طريق خُراسان، وحثّ على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود.

وسار الملك داود نحو طريق خُراسان أيضاً، فنهب العسكر البلاد وأفسدوا، ووصلت الأخبار بمسير السلطان مسعود إلى بغداد لقتال الملك، وفارق الملك داود وأتابك زنكي، فعاد أتابك زنكي إلى بغداد، وفارق الملك داود، وأظهر له أن يمضي إلى مراغة إذا فارق السلطان مسعود همذان، فبرز الراشد باللّه إلى ظاهر بغداد أوّل رمضان، وسار إلى طريق خراسان، ثمّ عاد بعد ثلاثة أيّام ونزل عند جامع السلطان، ثمّ دخل إلى بغداد خامس رمضان، وأرسل إلى داود وسائر الأمراء يأمرهم بالعود إلى بغداد، فعادوا، ونزلوا في الخيام، وعزموا على قتال السلطان مسعود من داخل سور بغداد.

ووصلت رسل السلطان مسعود يبذل من نفسه الطاعة والموافقة للخليفة والتهديد لمن اجتمع عنده، فعرض الخليفة الرسالة عليهم، فكلّهم رأى قتاله، فقال الخليفة: وأنا أيضاً معكم على ذلك. (٣٨/١١)

ذكر مُلك شهاب الدين حمص

في هذه السنة، في الثاني والعشرين من ربيع الأوّل. تسلّم شهاب الدين محمود، صاحب دمشق، مدينة حمص وقلعتها وسبب ذلك أنّ أصحابها أولاد الأمير خيرخان بن قراجا، والوالي بها من قِبَلهم، ضجروا من كثرة تعرّض عسكر عماد الدين زنكي إليها وإلى أعمالها، وتضييقهم على مَن بها من جنديّ وعاميّ، فراسلوا شهاب الدين في أن يسلّموها إليه، ويعطيهم عوضاً عنها تدمر، فأجابهم إلى ذلك، وسار إليها وتسلّمها منهم في التاريخ المذكور، وسلّم إليهم تدمر، وأقطع حمص مملوك جدّه معين الدين أنز، وجعل فيها نائباً عنه ممّن يثق به من أعيان أصحابه وعاد عنها إلى دمشق.

فلمّا رأى عسكر زنكي الذين بحلب وحماة خروجَ حمص عن

أيديهم تابعوا الغارات إلى بلدها والنهب له، والاستيلاء على كثير منه، فجرى بينهم عدّة وقائع، وأرسل شهاب الدين إلى زنكي في المعنى واستقرّ الصلح بينهم، وكف كلّ منهم عن صاحبه.

ذكر الفتنة بدمشق

في هذه السنة وقعت الفتنة بدمشق بين صاحبها والجند. وسبب ذلك أنّ الحاجب يوسف بن فيروز كان أكبر حاجب عند أبيه وجدّه، ثم إنّه خاف أخاه شمس الملوك، وهرب منه إلى تدمر، فلمّا كانت هذه السنة سأل (٣٩/١١) أن يحضر إلى دمشق، وكان يخاف جماعة المماليك لأنّه كان أساء إليهم وعاملهم أقبح معاملة، فكلّهم عليه حنق، لا سيّما في الحادثة التي خرج فيها شمس الملوك، وقد تقدمّت، فإنّه أشار بقتل جماعة أبرياء وبقتل سونج بن تاج الملوك، فصاروا كلّهم أعداء مبغضين.

فلمّا طلب الآن الحضور إلى دمشق أجيب إلى ذلك، فأنكر جماعة الأمراء والمماليك قربه، وخافوه أن يفعل بهم مثل فعله الأوّل، فلم يزل يتوصّل معهم حتى حلف لهم واستحلفهم، وشرط على نفسه أنّه لا يتولّى من الأمور شيئاً.

ثمّ إنّه جعل يُدخل نفسَه في كثير من الأمور، فاتّفق أعداؤه على قتله، فبينما هو يسير مع شمس الملوك في الميدان وإلى جانبه أمير اسمه بزاوش يحادثه، إذ ضربه بزاوش بالسيف فقتله، فحُمل ودُفن عند تربة والده بالعقيبة.

ثمّ إنّ بزاوش والمماليك خافوا شمس الملوك، فلم يدخلوا البلد، ونزلوا بظاهره، وأرسلوا يطلبون قواعد استطالوا فيها، فأجابهم إلى البعض، فلم يقبلوا منه، ثمّ ساروا إلى بعلبكّ، وبها شمس الدولة محمّد بن تاج الملوك صاحبها، فصاروا معه، فالتحق بهم كثير من التركمان وغيرهم، وشرعوا في العيث والفساد، واقتضت الحال مراسلتهم وملاطفتهم وإجابتهم إلى ما طلبوا، واستقرّت الحال على ذلك، وحلف كلّ منهم لصاحبه، فعادوا إلى ظاهر دمشق ولم يدخلوا البلد.

وخرج شهاب الدين، صاحب دمشق، إليهم واجتمع بهم وتجدّدت الأيمان، وصار بزاوش مقدّم العسكر وإليه الحلّ والعقد، وذلك في شعبان، وزال الخلف، ودخلوا البلد، واللّه أعلم. (٤٠/١١)

ذكر غزاة العسكر الأتابكيّ لبلاد الفرنج

في هذه السنة، في شعبان، اجتمعت عساكر أتابك زنكي، صاحب حلب وحماة، مع الأمير أسوار نائبه بحلب، وقصدوا بلد الفرنج على حين غفلة منهم، وقصدوا أعمال اللاذقيّة بغتة، ولم يتمكّن أهلها من الانتقال عنها والاحتراز، فنهبوا منها ما يزيد عن الوصف، وقتلوا وأسروا، وفعلوا في بلد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم.

وكان الأسرى سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبيّ، ومائة ألف رأس من الدوابّ ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم، وأمّا ما سوى ذلك من الأقمشة والعَين والحليّ فيخرج عن الحدّ، وأخربوا بلد اللاذقيّة وما جاورها ولم يسلم منها إلاّ القليل، وخرجوا إلى شَيزر بما معهم من الغنائم سالمين، منتصف رجب، فامتلأ الشام من الأسارى والدوابّ، وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً، ولم يقدر الفرنج على شيء يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزاً ووهناً.

ذكر وصول السلطان مسعود إلى العراق وتفرّق أصحاب الأطراف ومسير الراشد باللّه إلى الموصل وخلعه

لما بلغ السلطانَ مسعوداً اجتماع الملوك والأمراء، ببغداد، على خلافه، (٤١/١١) والخطبة للملك داود ابن أخيه السلطان محمود، جمع العساكر وسار إلى بغداد، فنزل بالمالكية، فسار بعض العسكر حتى شارفوا عسكره وطاردوهم، وكان في الجماعة زين الدين عليّ أمير من أمراء أتابك زنكي، ثم عادوا، ووصل السلطان فنزل على بغداد وحصرها وجميع العساكر فيها.

وثار العيّارون ببغداد وسائر محالّها، وأفسدوا ونهبوا، وقتلوا حتى إنّه وصل صاحبٌ لأتابك زنكي ومعه كتبٌ، فخرجوا عليه وأخذوها منه وقتلوه، فحضر جماعة من أهل المحالّ عند الأتابك زنكي، وأشاروا عليه بنهب المحالّ الغربيّة، فليس فيها غير عيّار ومُفسد، فامتنع من ذلك، ثمّ أرسل بنهب الحريم الطاهريّ فأُخذ منه من الأموال الشيء الكثير ، وسبب ذلك أنّ العيّارين [كثروا] فيه وأخذوا أموال النّاس. ونهبت العساكر غير الحريم من المحالّ، وحصرهم السلطان نيّفاً وخمسين يوماً فلم يظفر بهم، فعاد إلى النهروان عازماً على العود إلى همذان، فوصله طرنطاي صاحب واسط ومعه سفن كثيرة، فعاد إليها وعبر فيها إلى غربيّ دجلة، وأراد العسكر البغداديّ منعه، فسبقهم إلى العبور، واختلفت كلمتهم، فعاد الملك داود إلى بلاده في ذي القعدة وتفرّق الأمراء.

وكان عماد الدين زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الخليفة الراشد باللّه وسار معه إلى الموصل في نفر يسير من أصحابه، فلمّا سمع السلطان مسعود بمفارقة الخليفة وزنكي بغداد سار إليها، ومنع أصحابه من الأذى والنهب. وكان وصوله منتصف ذي القعدة، فسكن النّاس واطمأنّوا بعد الخوف الشديد، وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرض عليهم اليمين التي حلف بها الراشد (٤٢/١١) باللّه لمسعود وفيها بخطّ يده: إنّي متى جئتُ أو خرجتُ أو لقيتُ أحداً من أصحاب السلطان بالسيف، فقد خلعتُ

نفسي من الأمر، فأفتوا بخروجه من الخلافة، وقيل غير ذلك وسنذكره في خلافة المقتفي لأمر الله.

وكان الوزير شرف الدين عليُّ بن طراد وصاحب المخزن كمال الدين بن البقشلاميّ وابن الأنباريّ قد حضروا مع السلطان لأنّهم كانوا عنده مُذ أسرهم مع المسترشد بالله، فقدحوا في الراشد ووافقهم على ذلك جميع أصحاب المناصب ببغداد، إلاّ اليسير، لأنّهم كانوا يخافونه، وكان قد قبض بعضهم وصادر بعضاً، واتّفقوا على ذمّه، فتقدّم السلطان بخلعه وإقامة مَن يصلح للخلافة، فخُلع وقُطعت خطبته في بغداد في ذي القعدة وسائر البلاد. وكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً، وقتله الباطنيّة على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر خلافة المقتفي لأمر الله

لما قُطعت خطبة الراشد بالله استشار السلطانُ جماعةً من أعيان بغداد منهم الوزير عليُّ بن طراد، وصاحب المخزن، وغيرهما، فيمَن يصلح أن يلي الخلافة. فقال الوزير: أحد عُمومة الراشد، وهو رجل صالح. قال: مَن هو؟ قال: مَن لا أقدر أن أُفصح باسمه لئلاّ يُقتل، فتقدّم إليهم بعمل محضر في خلع الراشد، فعملوا محضراً ذكروا فيه ما ارتكبه من أخذ الأموال وأشياء تقدح في الإمامة ثمّ كتبوا فتوى: ما يقول العلماء فيمَن هذه صفته، هل يصلح للإمامة أم لا؟ فأفتوا أن مَن هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً. فلمّا فرغوا (٤٣/١١) من ذلك أحضروا القاضي أبا طاهر بن الكرخيّ، فشهدوا عنده بذلك، فحكم بفسقه وخلعه، وحكم بعده غيره، ولم يكن قاضي القضاة حاضراً ليحكم فإنّه كان عند أتابك زنكي بالموصل.

ثمّ إنّ شرف الدين الوزير ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين، وقيل محمّد ابن المستظهر بالله، ودينه، وعقله، وعفّته، ولين جانبه، فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبيُّ، وصاحب المخزن ابن البقشلاميّ وغيرهما، وأمر بإحضار الأمير أبي عبد الله بن المستظهر من المكان الذي يسكن فيه، فأُحضر وأُجلس في المثمّنة، ودخل السلطان إليه والوزير شرف الدين وتحالفا، وقرّر الوزير القواعد بينهما، وخرج السلطان من عنده وحضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوا ثامن عشر ذي الحجّة ولُقّب المقتفي لأمر الله.

قيل سبب اللّقب أنّه رأى النبيﷺ قبل أن يلي الخلافة بستّة أيام، وهو يقول له: إنّ هذا الأمر يصير إليك، فاقتف بي، فلُقّب بذلك. ولما استخلف سُيّرت الكتب الحكميّة بخلافته إلى سائر الأمصار واستوزر شرف الدين عليّ بن طراد الزينبيّ فأُرسل إلى الموصل، وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم عليّ بن الحسين الزينبيّ عم الوزير، وأعاده إلى منصبه، وقرّر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن، وجرت الأمور على أحسن نظام.

وبلغني أنّ السلطان مسعوداً أرسل إلى الخليفة المقتفي لأمر الله في تقرير إقطاع يكون لخاصّته، فكان جوابه: إنّ في الدار ثمانين بغلاً تنقل الماء من دجلة، فلينظر السلطان ما يحتاج إليه مَن يشرب هذا الماء ويقوم به، فتقرّرت القاعدة (٤٤/١١) على أن يجعل له ما كان للمستظهر بالله، فأجاب إلى ذلك.

وقال السلطان لما بلغه قوله: لقد جعلنا في الخلافة رجلاً عظيماً نسأل.

والمقتفي عمّ الراشد هو والمسترشد ابنا المستظهر، وليا الخلافة، وكذلك السفّاح والمنصور أخوان، وكذلك المهدي والرشيد أخوان، وكذلك الواثق والمتوكّل أخوان، وأمّا ثلاثة إخوة ولوا الخلافة فالأمين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد، والمكتفي والمقتدر والقاهر بنو المعتضد، والرضي والمتّقي والمطيع بنو المقتدر، وأمّا أربعة إخوة ولوها فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان لا يُعرف غيرهم.

وحين استقرّت الخلافة للمقتفي أرسل إليه الراشد بالله رسولاً من الموصل مع رسول أتابك زنكي، فأمّا رسول الراشد فلم تُسمع رسالته، وأمّا رسول أتابك زنكي فكان كمال الدين محمّد بن عبد الله الشهرزوريّ، فأُحضر في الديوان وسُمعت رسالته، وحكى لي والدي عنه قال: لما حضرتُ الديوان قيل لي: تبايع أمير المؤمنين؟ فقلتُ أمير المؤمنين عندنا في الموصل وله في أعناق الخلق بيعة متقدّمة. وطال الكلام وعُدتُ إلى منزلي.

فلمّا كان اللّيل جاءتني امرأة عجوز سرّاً، واجتمعتْ بي وأبلغتني رسالة عن المقتفي لأمر الله مضمونها عتابي على ما قلتُه واستنزالي عنه. فقلتُ: غداً أخدم خدمة يظهر أثرها.

فلمّا كان [الغد] أُحضرتُ الديوان وقيل لي في معنى البيعة، فقلتُ: أنا رجل فقيه قاضٍ، ولا يجوز لي أن أبايع إلاّ بعد أن يثبت عندي خلع المتقدّم. فأحضروا الشهود وشهدوا عندي في الديوان بما أوجب خلعه، فقلتُ: هذا ثابت لا كلام فيه، ولكن لا بدّ لنا في هذه الدعوة من نصيب، لأنّ أمير (٤٥/١١) المؤمنين قد حصل له خلافةُ الله في أرضه، والسلطان، فقد استراح ممّن كان يقصده، ونحن بأيّ شيء نعود؟ فرُفع الأمر إلى الخليفة، فأمر أن يعطى أتابك زنكي صريفين ودرب هرون وحربى مُلكاً، وهي من خاصّ الخليفة، ويزاد في ألقابه، وقال: هذه قاعدة لم يُسمح بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون لهم نصيبٌ في خاصّ الخليفة.

فبايعتُ وعدتُ مقضيّ الحوائج قد حصل لي جملة صالحة من المال والتُحف. وكانت بيعة وخطب للمقتفي في الموصل في رجب سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، ولما عاد كمال الدين بن الشهرزوريّ سُيّر على يده المحضر الذي عُمل بخلع الراشد، فحكم به قاضي القضاة الزينبيُّ بالموصل، وكان عند أتابك زنكي.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة عزل السلطان مسعود وزيره شرف الدين أنوشروان بن خالد وعاد إلى بغداد، وأقام بداره معزولاً، ووزر بعده كمال الدين أبو البركات ابن سلمة الدركزينيّ وهو من خُراسان.

وفيها ثار العيّارون ببغداد عند اجتماع العساكر بها، وقتلوا في البلد ونهبوا الأموال ظاهراً وكَثُر الشرّ، فقصد الشحنة شارع دار الرقيق، وطلب العيّارين، فثار عليه أهل المحالّ الغربيّة، فقاتلهم، وأحرق الشارع، فاحترق فيه خلق كثير، ونقل النّاس أموالهم إلى الحريم الطاهريّ، فدخله الشحنة، ونهب منه مالاً كثيراً. (٤٦/١١)

ثمّ وقعت فتنة ببغداد بين أهل باب الأزج وبين أهل المأمونيّة، وقُتل بينهم جماعة ثمّ اصطلحوا.

وفيها سار قراسُنقُر في عساكر كثيرة في طلب الملك داود ابن السلطان محمود، فأقام السلطان مسعود ببغداد، ولم يزل قراسنقر يطلب داود حتى أدركه عند مراغة، فالتقيا وتصافّا، واقتتل العسكران قتالاً عظيماً، فانهزم داود وأقام قراسُنقُر بأذربيجان ; وأمّا داود فإنّه قصد خوزستان فاجتمع عليه هناك عساكر كثيرة من التركمان وغيرهم وبلغت عدّتهم نحو عشرة آلاف فارس، فقصد تُستَر وحاصرها، وكان عمّه الملك سلجوقشاه ابن السلطان محمّد بواسط، فأرسل إلى أخيه السلطان مسعود يستنجده، فأمدّه بالعساكر، فسار إلى داود وهو يحاصر تُستر، فتصافّا، فانهزم سلجوقشاه.

وفيها توفّي محمّد بن حموية أبو عبد اللّه الجوينيُّ، وهو من مشايخ الصوفيّة المشهورين، وله كرامات كثيرة ورواية الحديث.

وتوفّي أيضاً محمّد بن عبد اللّه بن أحمد بن حبيب العامريُّ الصوفيُّ مصنّف شرح الشهاب وأنشد لما حضره الموت :

ها قد مَددتُ يَدي إليكَ فرتّعا ... بالفَضلِ لا بشَماتةِ الأعْداء

وتوفّي أيضاً أبو عبد اللّه محمّد بن الفضل بن أحمد الفُراويّ الصاعديّ راوي صحيح مُسلم عن عبد الغافر الفارسيّ، وطريقه اليوم أعلى الطرق، وإليه الرحلة من الشرق والغرب، وكان فقيهاً مناظراً ظريفاً يخدم الغرباء بنفسه، وكان يقال: الفراوي ألف راو، رحمه اللّه ورضي عنه.(٤٧/١١)

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

ذكر تفرّق العساكر عن السلطان مسعود

في هذه السنة، في المحرّم، أذن السلطان مسعود للعساكر التي عنده ببغداد بالعود إلى بلادهم، لما بلغه أنّ الراشد باللّه قد فارق أتابك زنكي من الموصل، فإنّه كان يتمسّك بالعساكر عنده خوفاً أن ينحدر به إلى العراق فيملكه عليه، فلمّا أراد أن يأذن للأمير صدقة بن دُبيس، صاحب الحلّة، زوّجه ابنتَه تمسّكاً به.

وقدم على السلطان مسعود جماعة من الأمراء الذين حاربوه مع الملك داود منهم البقش السلاحي وبرسق بن برسق صاحب تستر، وسُنقر الخمارتكين شحنة همذان، فرضي عنهم، وأمّنهم، وولى البقش شحنكيّة بغداد، فعسف النّاس وظلمهم.

وكان السلطان مسعود بعد تفرُّق العساكر عنه قد بقي معه ألف فارس. وتزوّج الخليفة فاطمة خاتون أخت السلطان مسعود في رجب، والصداق مائة ألف دينار، وكان الوكيل في قبول النكاح وزير الخليفة عليّ بن طراد الزينبيّ والوكيل عن السلطان وزيره الكمال الدركزينيّ، ووثق السلطان حيث صار الخليفة وصدقة بن دبيس بن صدقة صهريه، وحيث سار الراشد باللّه من عند زنكي الأتابك، واللّه أعلم.(٤٨/١١)

ذكر عزل بهرام عن وزارة الحافظ ووزارة رضوان

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، هرب تاج الدولة بهرام وزير الحافظ لدين اللّه العلويّ صاحب مصر، وكان قد استوزره بعد قتل ابنه حسن سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وكان نصرانيّاً أرمنيّاً، فتمكّن في البلاد واستعمل الأرمن وعزل المسلمين، وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والأرمن الذين ولاّهم وطمعوا فيهم، فلم يكن في أهل مصر مَن أنف من ذلك إلاّ رضوان بن الريحينيّ، فإنّه لما ساءه ذلك وأقلقه جمع جمعاً كثيراً وقصد القاهرة، فسمع به بهرام، فهرب إلى الصعيد من غير حرب ولا قتال، وقصد مدينة أسوان فمنعه واليها من الدخول إليها وقاتله فقتل السودان من الأرمن كثيراً ، فلمّا لم يقدر على الدخول إلى أسوان أرسل [إلى] الحافظ الأمان، فأمّنه، فعاد إلى القاهرة، فسُجن بالقصر، فبقي مدّة، ثمّ ترهّب وخرج من الحبس.

وأمّا رضوان فإنّه وزر للحافظ ولُقّب بالملك الأفضل، وهو أوّل وزير للمصريّين لُقّب بالملك، ثمّ فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ في إخراجه، فثار النّاس عليه متصف شوّال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وهرب من داره وتركها بما فيها، فنهب النّاس منها ما لا يُحدّ ولا يُحصى، وركب الحافظ فسكّن النّاس. ونقل ما بقي في دار رضوان إلى قصره.

وأمّا رضوان فإنّه سار يريد الشام يستنجد الأتراك ويستنصرهم، فأرسل إليه الحافظ الأميرَ ابن مَصّال ليردّه بالأمان والعهد أنّه لا يؤذيه، فرجع إلى القاهرة، فحبسه الحافظ عنده في القصر، وقيل إنّه توجّه إلى الشام، وهو (٤٩/١١) الصحيح، وقصد صَرخد فوصل إليها في ذي القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشتكين، فأكرمه وعظّمه، وأقام عنده.

ثمّ عاد إلى مصر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، ومعه عسكر، فقاتل المصريّين عند باب النصر وهزمهم، وقتل منهم جماعة كثيرة، وأقام ثلاثة أيّام، فتفرق عنه كثير ممّن معه، فعزم على العود إلى الشام، فأرسل إليه الحافظ الأمير ابن مَصّال، فردّه وحبسه عنده في القصر، وجمع بينه وبين عياله، فأقام في القصر إلى سنة ثلاث وأربعين [وخمسمائة]، فنقب الحبس وخرج منه، وقد أُعدّت له خيل، فهرب عليها، وعبر النيل إلى الجيزة فحشد وجمع المغاربة وغيرهم، وعاد إلى القاهرة، فقاتل المصريّين عند جامع ابن طولون وهزمهم، ودخل إلى القاهرة فنزل عند جامع الأقمر، فأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالاً ليفرّقه على عادتهم فإنّهم كانوا إذا وزّروا وزيراً أرسلوا إليه عشرين ألف دينار ليفرّقها، فأرسل إليه الحافظ عشرين ألف دينار، فقسمها، وكثر عليه النّاس، وطلب زيادة، فأرسل إليه عشرين ألف دينار أُخرى، ففرّقها، فتفرّق النّاس عنه وخفّوا عنده، فإذا الصوت قد وقع، وخرج إليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه، فحملوا على غلمانه فقاتلوهم، فقام يركب، فقدّم إليه بعض أصحابه فرساً ليركبه، فلمّا أراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله، وحمل رأسه إلى الحافظ، فأرسله إلى زوجته، فوُضع في حجرها، فألْقته وقالت: هكذا يكون الرجال، ولم يستوزر الحافظ بعده أحداً، وباشر الأمور بنفسه إلى أن مات. (٥٠/١١)

ذكر فتح المسلمين حصن وادي ابن الأحمر من الفرنج

وفي هذه السنة، في رجب، سار عسكر دمشق مع مقدّمهم الأمير بزاوش إلى طرابلس الشام، فاجتمع معه من الغزاة المتطوّعة والتركمان أيضاً خلق كثير، فلمّا سمع القمّص صاحبها بقربهم من ولايته سار إليهم في جموعه وجيوشه، فقاتلهم وانهزم الفرنج وعادوا إلى طرابلس على صورة سيئة قد قُتل كثير من فرسانهم وشجعانهم فنهب المسلمون من أعمالهم الكثير وحصروا حصن وادي ابن الأحمر فملكوه عنوة ونهبوا ما فيه، وقتلوا المقاتلة، وسبوا الحريم والذرّية، وأسروا الرجال فاشتروا أنفسهم بمال جليل، وعادوا إلى دمشق سالمين، والله أعلم.

ذكر حصار زنكي مدينة حمص

في هذه السنة، في شعبان سار أتابك زنكي إلى مدينة حمص وقدّم إليها صلاح الدين محمّد الياغيسيانيّ، وهو أكبر أمير معه، وكان ذا مكر وحيل، أرسله ليتوصّل مع مَن فيها ليسلّموها إليه، فوصل إليها وفيها معين الدين أنز، وهو الوالي عليها والحاكم فيها، وهو أيضاً أكبر أمير بدمشق وحمص أقطاعه كما سبق ذكره، فلم ينفذ فيه مكره، فوصل حينئذٍ زنكي إليها وحصرها وعاود مراسلة أنز في التسليم غير مرّة، تارة بالوعد وتارة بالوعيد، واحتجّ بأنّها مُلك صاحبه شهاب الدين وأنّها بيده أمانة ولا يسلّمها (٥١/١١) إلا عن غلبة، فأقام عليها إلى العشرين من شوّال ورحل عنها من غير بلوغ غرض إلى بَعرين فحصرها، وكان منه ومن الفرنج ما نذكره إن شاء الله تعالى

ذكر مُلك زنكي قلعة بَعرين وهزيمة الفرنج

وفي هذه السنة، في شوّال، سار أتابك زنكي من الموصل إلى الشام وحصر قلعة بَعرين، وهي تُقارب مدينة حماة، وهي من أمنع معاقل الفرنج وأحصنها، فلمّا نزل عليها قاتلها، وزحف إليها، فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم، وساروا في قَصّهم وقضيضهم، وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم، إلى أتابك زنكي ليرحّلوه عن بعرين، فلم يرحل وصبر لهم إلى أن وصلوا إليه، فلقيهم وقاتلهم أشدّ قتال رآه النّاس، وصبر الفريقان ثمّ أجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كلّ جانب، واحتمى ملوكهم وفرسانهم بحصن بعرين لقربه منهم، فحصرهم زنكي فيه ومنع عنهم كلّ شيء حتى الأخبار فكان مَن به منهم لا يعلم شيئاً من أخبار بلادهم لشدّة ضبط الطرق وهيبته على جنده.

ثمّ إنّ القسوس والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وما والاها مستنفرين على المسلمين، وأعلموهم أنّ زنكي إن أخذ قلعة بعرين ومَن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت، وأنّ المسلمين ليس لهم همّة إلاّ قصد البيت المقدّس، فحينئذٍ اجتمعت النصرانيّة وساروا على (٥٢/١١) الصعب والذلول، وقصدوا الشام، وكان منهم ما نذكره.

وأمّا زنكي فإنّه جدّ في قتال الفرنج، فصبروا وقلّت عليهم الذخيرة، فإنّهم كانوا غير مستعدّين، ولم يكونوا يعتقدون أنّ أحداً يقدم عليهم بل كانوا يتوقّعون مُلك باقي الشام، فلمّا قلّت الذخيرة أكلوا دوابّهم، وأذعنوا بالتسليم ليؤمّنهم، ويتركهم يعودون إلى بلادهم، فلم يجبهم إلى ذلك، فلمّا سمع باجتماع من بقي من الفرنج ووصول من قرب إليهم أعطى لمن في الحصن الأمان، وقرّر عليهم خمسين ألف دينار يحملونها إليه، فأجابوه إلى ذلك فأطلقهم فخرجوا وسلّموا إليه، فلمّا فارقوه بلغهم اجتماع مَن اجتمع بسببهم فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم، وكان لا يصلهم شيء من الأخبار البتّة، فلهذا سلّموا.

وكان زنكي في مدّة مقامه عليهم قد فتح المعرّة وكفرطاب من الفرنج فكان أهلهما وأهل سائر الولايات التي بين حلب وحماة مع أهل بعرين في الخزي لأنّ الحرب بينهم قائمة على ساق، والنهب والقتل لا يزال بينهم، فلمّا ملكها أمن النّاس، وعمرت البلاد وعظم دخلها، وكان فتحاً مبيناً ومَن رآه علم صحّة قولي.

ومن أحسن الأعمال وأعدلها ما عمله زنكي مع أهل المعرّة، فإنّ الفرنج لما ملكوا المعرّة كانوا قد أخذوا أموالهم وأملاكهم، فلمّا فتحها زنكي الآن حضر مَن بقي من أهلها ومعهم أعقاب مَن هلك، وطلبوا أملاكهم، فطلب منهم كاتبها، فقالوا: إنّ الفرنج أخذوا كلّ ما لنا، (٥٣/١١) والكتب التي للأملاك فيها. فقال: اطلبوا دفاتر حلب وكلّ من عليه خراج على ملك يسلم إليه، ففعلوا ذاك، وأعاد على الناس أملاكهم، وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها.

ذكر خروج ملك الروم من بلاده إلى الشام

قد تقدّم أنّ الفرنج أرسلوا إلى ملك القُسطنطينية يستصرخون به ويعرّفونه ما فعله زنكي فيهم، ويحثّونه على لحاق البلاد قبل أن تُملك، ولا ينفعه حينئذٍ المجيء، فتجهّز وسار مجدّاً فابتدأ وركب البحر وسار إلى مدينة أنطاليّة، وهي له على ساحل البحر، فأرسَى فيها، وأقام ينتظر وصول المراكب التي فيها أثقاله وسلاحه، فلمّا وصلت سار عنها إلى مدينة نيقية وحصرها، فصالحه أهلها على مال يؤدّونه إليه، وقيل: بل ملكها وسار عنها إلى مدينة أدنة ومدينة المصيصة، وهما بيد ابن ليون الأرمنيّ، صاحب قلاع الدروب، فحصرهما وملكهما.

ورحل إلى عين زربة فملكها عنوةً، وملك تل حمدون وحمل أهله إلى جزيرة قبرس، وعبر ميناء الإسكندرونة ثم خرج إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية في ذي القعدة، وضيّق على أهلها، وبها صاحبها الفرنجيّ ريمند، فتردّدت الرسل بينهما، فتصالحا ورحل عنها إلى بغراص، ودخل منها بلد ابن ليون الأرمنيّ، فبذل له ابن ليون أموالاً كثيرةً ودخل في طاعته، واللّه أعلم. (٥٤/١١)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في الرابع والعشرين من أيار، ظهر بالشام سحاب أسود أظلمت له الدنيا، وصار الجوّ كاللّيل المظلم، ثمّ طلع بعد ذلك سحاب أحمر كأنّه نار أضاءت له الدنيا، وهبّت ريح عاصف ألقت كثيراً من الشجر، وكان أشدّ ذلك بحوران ودمشق، وجاء بعده مطر شديد وبَرَد كبار.

وفيها عاد مؤيّد الدين أبو الفوارس المسيّب بن عليّ بن الحسين المعروف بابن الصوفي من صَرْخد إلى دمشق، فبقوا فيها إلى الآن، وعادوا، ووليَ أبو الفوارس الرئاسة بدمشق، وكان محبوباً عند أهلها، وتمكّن تمكّناً عظيماً، وكان ذا رئاسة عظيمة ومروءة ظاهرة.

وفيها كثرت الأمراض ببغداد وكثر الموت فجأة بأصفهان وهمذان.

وفيها سار أتابك زنكي إلى دقوقا فحصرها وملكها بعد أن قاتل على قلعتها قتالاً شديداً.

وفيها توفّي أبو سعيد أحمد بن محمّد بن ثابت الخجنديّ رئيس الشافعيّة بأصفهان، وتفقّه على والده، ودرّس بالنظاميّة بأصفهان.

وتوفّي أبو القاسم هبة اللّه بن أحمد بن عمر الحريري، ومولده يوم عاشوراء سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، وهو آخر مَن روى عن أبي الحسن زوج الحرّة وقد روى الخطيب أبو بكر بن ثابت عن زوج الحرّة أيضاً، وكانت وفاة الخطيب سنة ثلاث وستّين وأربعمائة. (٥٥/١١)

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

ذكر مُلك أتابك زنكي حمص وغيرها من أعمال دمشق

وفي هذه السنة، في المحرّم، وصل أتابك زنكي إلى حماة وسار منها إلى بقاع بعلبكّ، فملك حصن المجدل، وكان لصاحب دمشق، وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه، وهو أيضاً لصاحب دمشق، وسار إلى حمص فحصرها، وأدام قتالها؛ فلمّا نازل ملك الروم حلب رحل عنها إلى سلميّة، فلمّا انجلت حادثة الروم، على ما ذكرناه، عاود منازلة حمص، وأرسل إلى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب إليه أُمّه ليتزوّجها، واسمها زمرّد خاتون، ابنة جاولي، وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك، وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلّة على وادي شقرا ونهر بردى، فتزوّجها، وتسلّم حمص مع قلعتها.

وحُملت الخاتون إليه في رمضان، وإنّما حمله على التزوج بها ما رأى من تحكُّمها في دمشق فظنّ أنّه يملك البلد بالاتّصال بها، فلمّا تزوّجها خاب أمله ولم يحصل على شيء فأعرض عنها. (٥٦/١١)

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام ومُلكه بُزاعة وما فعله بالمسلمين

قد ذكرنا سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة خروج ملك الروم من بلاده واشتغاله بالفرنج وابن ليون، فلمّا دخلت هذه السنة وصل إلى الشام وخافه النّاس خوفاً عظيماً، وقصد بُزاعة فحصرها، وهي مدينة لطيفة على ستّة فراسخ من حلب، فمضى جماعة من أعيان

حلب إلى أتابك زنكي وهو يحاصر حمص، فاستغاثوا به واستنصروه، فسيّر معهم كثيراً من العساكر، فدخلوا إلى حلب ليمنعوها من الروم إن حصروها.

ثمّ إنّ ملك الروم قاتل بُزاعة، ونصب عليها منجنيقات، وضيّق على مَن بها فملكها بالأمان في الخامس والعشرين من رجب، ثمّ غدر بأهلها فقتل منهم وأسر وسبى. وكان عدّة مَن جُرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس، وتنصّر قاضيها وجماعة من أعيانها نحو أربع مائة نفس.

وأقام الروم بعد مُلكها عشرة أيام يتطلّبون مَن اختفى، فقيل لهم: إنّ جمعاً كثيراً من أهل هذه الناحية قد نزلوا إلى المغارات، فدخّنوا عليهم، وهلكوا في المغاور.

ثمّ رحلوا إلى حلب فنزلوا على قويق ومعهم الفرنج الذين بساحل الشام، وزحفوا إلى حلب من الغد في خيلهم ورَجْلهم، فخرج إليهم أحداث حلب، فقاتلوهم قتالاً شديداً، فقُتل من الروم وجُرح خلق كثير، وقُتل بطريق (٥٧/١١) جليل القدر عندهم، وعادوا خاسرين، وأقاموا ثلاثة أيام، فلم يَروا فيها طمعاً، فرحلوا إلى قلعة الأثارب، فخاف مَن فيها من المسلمين، فهربوا عنها تاسع شعبان، فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بُزاعة والأسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا، فلمّا سمع الأمير أسوار بحلب ذلك رحل فيمن عنده من العسكر إلى الأثارب، فأوقع بمن فيها من الروم، فقتلهم، وخلّص الأسرى والسبي وعاد إلى حلب.

وأمّا عماد الدين زنكي فإنّه فارق حمص وسار إلى سلميّة فنازلها، وعبر ثَقَله الفرات إلى الرقّة، وأقام جريدة ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة.

وأمّا الروم فإنّهم قصدوا قلعة شيزر، فإنّها من أمنع الحصون، وإنّما قصدوها لأنّها لم تكن لزنكي، فلا يكون له في حفظها الاهتمام العظيم، وإنّما كانت للأمير أبي العساكر سلطان بن عليّ بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانيّ، فنازلوها وحصروها، ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقاً، فأرسل صاحبها إلى زنكي يستنجده، فسار إليه فنزل على نهر العاصي بالقرب منها، بينها وبين حماة، وكان يركب كلّ يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم، ويُرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم.

ثمّ إنّه أرسل إلى ملك الروم يقول له: إنّكم قد تجمّعتم مني بهذه الجبال، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتُ بكم أرَحْتُ المسلمين منكم، وإن ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها. ولم يكن له بهم قوّة وإنّما كان يُرهبهم بهذا القول وأشباهه، فأشار فرنج الشام على ملك الروم بمصالحته، وهوّنوا أمره عليه، فلم يفعل، وقال: أتظنّون أنّه ليس له من العسكر إلاّ ما ترون؟ إنّما هو يريد أن تلقوه فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حدّ له. (٥٨/١١)

وكان زنكي يرسل أيضاً إلى ملك الروم يوهمه بأن فرنج الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلّوا عنه، ويرسل إلى فرنج الشام يخوّفهم من ملك الروم ويقول لهم: إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً، فاستشعر كلّ من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها، فسار أتابك [زنكي] يتبع ساقة العسكر، فظفر بكثير ممّن تخلّف منهم، وأخذ جميع ما تركوه.

ولما كان الفرنج على بُزاعة أرسل زنكي القاضي كمال الدين أبا الفضل محمّد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى السلطان مسعود يستنجده، ويطلب العساكر، فمضى إلى بغداد، وأنهى الحال إلى السلطان، وعرّفه عاقبة الإهمال، وأنّه ليس بينه وبين الروم إلاّ أن يملكوا حلب وينحدروا مع الفرات إلى بغداد، فلم يجد عنده حركة، فوضع إنساناً من أصحابه، يوم جمعة، فمضى إلى جامع القصر، ومعه جماعة من رنود العجم، وأمر أن يثور بهم إذا صعد الخطيب المنبر، ويصيح ويصيحوا معه: وا إسلاماه، وادين محمّداه! ويشقّ ثيابه، ويرمي عمامته من رأسه، ويخرج إلى دار السلطان والنّاس معه يستغيثون كذلك، ووضع إنساناً آخر يفعل بجامع السلطان مثله.

فلمّا صعد الخطيب المنبر قام ذلك الرجل ولطم رأسه، وألقى عمامته وشقّ ثوبه، وأولئك معه، وصاحوا، فبكى النّاس وتركوا الصلاة، ولعنوا السلطان، وساروا من الجامع يتبعون الشيخ إلى دار السلطان فوجدوا النّاس في جامع السلطان كذلك، وأحاط النّاس بدار السلطان يستغيثون ويبكون، فخاف السلطان، فقال: أحضروا إليّ ابن الشهرزوري، فأُحضر، فقال كمال الدين: لقد خفتُ منه ممّا رأيتُ، فلمّا دخلتُ عليه قال لي: أيّ فتنة أثرت؟ فقلتُ: ما فعلتُ شيئاً. أنا كنتُ في بيتي، وإنّما النّاس يغارون للدين والإسلام ويخافون (٥٩/١١) عاقبة هذا التواني؛ فقال: اخرج إلى النّاس ففرّقهم عنّا واحضر غداً واختر من العسكر من تريد؛ فخرجتُ النّاس وعرّفتهم ما أمر به من تجهيز العساكر وحضرتُ من الغد إلى الديوان، فجهّزوا لي طائفة عظيمة من الجيش، فأرسلتُ إلى نصير الدين بالموصل أعرّفه ذلك، وأخوّفه من العسكر إن طرقوا البلاد، فإنّهم يملكونها، فأعاد الجواب يقول: البلاد لا شكّ مأخوذة فلأن يأخذها المسلمون خير من أن يأخذها الكافرون.

فشرعنا في التحميل للرحيل، وإذ قد وصلني كتاب أتابك زنكي من الشام يخبر برحيل ملك الروم ويأمرني بأن لا أستصحب من العسكر أحداً، فعرّفتُ السلطان ذلك فقال: العسكر قد تجهّز،

ولا بدّ من الغزاة إلى الشام، فبعد الجهد وبذل الخدمة العظيمة له ولأصحابه أعاد العسكر.

ولما عاد ملك الروم عن شيزر مدح الشعراء أتابك زنكي وأكثروا، فمن ذلك ما قاله المسلم بن خضر بن قُسَيْم الحموي من قصيدة أوّلها:

بعَزْمِكَ أيّها المَلِكُ العَظيمُ ... تَذِلُّ لكَ الصِّعابُ وتَستَقيمُ

ومنها:

ألَم تَرَ أنّ كَلْبَ الرّومِ لَمّا ... تَبَيّنَ أنّهُ المَلِكُ الرّحيمُ
فجاءه يُطَبِّقُ الفَلَواتِ خَيلاً ... كأنّ الجَحْفَلَ اللّيلُ البهيمُ
وَقد نَزَلَ الزّمانُ على رِضاهُ ... وَدانَ لخَطبِهِ الخَطبُ العَظيمُ
فحينَ رَمَيتَهُ بكَ في خَميسٍ ... تَيَقّنَ أنّ ذلكَ لا يَدُومُ
وَأبصرَ في المَفاضَةِ منكَ جَيشاً ... فأحرَبَ لا يَسيرُ وَلا يُقيمُ
كأنّكَ في العَجاجِ شِهابُ نورٍ ... تَوَقّدَ وَهْوَ شَيطانٌ رَجيمُ
أرادَ بقاءَ مُهجَتِهِ فَوَلّى ... وَليسَ سِوى الحِمامِ لهُ حَميمُ

(٦٠/١١) وهي قصيدة طويلة، ومن عجيب ما يُحكى أنّ ملك الرّوم لما عزم على حصر شيزر سمع مَن بها ذلك، فقال الأمير مرشد بن عليّ أخو صاحبها وهو يفتح مصحفاً: اللهمّ بحقّ مَن أنزلْتَه عليه إن قضيت بمجيء ملك الروم فاقبضني إليك! فتوفّي بعد أيّام.

ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومَنْ معه من الأمراء

لما فارق الراشد باللّه أتابك زنكي من الموصل سار نحو أذربيجان، فوصل مَراغة، وكان الأمير منكبرس صاحب فارس، ونائبه بخوزستان الأمير بوزابة، والأمير عبد الرحمن طغايرك صاحب خلخال، والملك داود ابن السلطان محمود، مستشعرين من السلطان [مسعود]، خائفين منه، فتجمّعوا ووافقوا الراشد على الاجتماع معهم لتكون أيديهم واحدة، ويردّوه إلى الخلافة، فأجابهم إلى ذلك إلاّ أنّه لم يجتمع معهم.

ووصل الخبر إلى السلطان مسعود وهو ببغداد باجتماعهم، فسار عنها في شعبان نحوهم، فالتقوا بينجن كشت، فاقتتلوا، فهزمهم السلطان مسعود، وأخذ الأمير منكبرس أسيراً فقُتل بين يديه صبراً، وتفرّق عسكر مسعود في النهب واتّباع المنهزمين.

وكان بوزابة وعبد الرحمن طغايرك على نشز من الأرض، فرأيا السلطان (٦١/١١) مسعوداً وقد تفرّق عسكره عنه، فحملا عليه وهو في قلّة فلم يثبت لهما وانهزم وقبض بوزابة على جماعة من الأمراء، منهم: صدقة بن دُبيس صاحب الحِلّة، ومنهم ولد أتابك قراسُنقر صاحب أذربيجان، وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم وتركهم عنده. فلما بلغه قتل صاحبه منكبرس قتلهم أجمعين وصار العسكران مهزومين، وكان هذا من أعجب الاتّفاق.

وقصد السلطان مسعود أذربيجان، وقصد الملك داود همذان، ووصل إليها الراشد بعد الوقعة فاختلفت آراء الجماعة، فبعضهم أشار بقصد العراق والتغلّب عليه، وبعضهم أشار باتّباع السلطان مسعود للفراغ منه، فإنّ ما بعده يهون عليهم. وكان بوزابة أكبر الجماعة فلم يرَ ذلك، وكان غرضُه المسير إلى بلاد فارس وأخذها بعد قتل صاحبها منكبرس قبل أن يمتنع مَن بها عليه، فبطّل عليهم ما كانوا فيه، وسار إليها فملكها، وصارت له مع خوزستان.

وسار سلجوقشاه ابن السلطان محمّد إلى بغداد ليملكها، فخرج إليه البقش الشحنة بها ونظرُ الخادم أمير الحاجّ وقاتلوه ومنعوه، وكان عاجزاً مستضعفاً، ولما قُتل صدقة بن دُبيس أقرّ السلطان مسعود الحِلّة على أخيه محمّد بن دُبيس وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا عنتر المقتول يدبّر أمره.

ولما كان البقش شحنة بغداد يُقاتل سلجوقشاه ثار العيّارون ببغداد ونهبوا الأموال، وقتلوا الرجال، وزاد أمرهم حتى كانوا يقصدون أرباب الأموال ظاهراً، ويأخذون منهم ما يريدون، ويحملون الأمتعة على رؤوس الحمّالين، فلمّا عاد الشحنة قتل منهم وصلب، وغلت الأسعار، وكثُر الظلم منه، وأخذ المستورين بحجّة العيّارين، فجلا النّاس عن بغداد إلى الموصل وغيرها من البلاد. (٦٢/١١)

ذكر قتل الراشد باللّه

لما وصل الراشد باللّه إلى همذان، وبها الملك داود وبزابه ومَن معهما من الأمراء والعساكر بعد انهزام السلطان مسعود وتفرُّق العساكر، على ما تقدّم ذكره، سار الراشد باللّه إلى خوزستان مع الملك داود، ومعهما خوارزم شاه، فقاريا الحويزة، فسار السلطان مسعود إلى بغداد ليمنعهم عن العراق، فعاد الملك داود إلى فارس وعاد خُوارزم شاه إلى بلاده، وبقي الراشد وحده، فلمّا أيس من عساكر العجم سار إلى أصفهان.

فلمّا كان الخامس والعشرون من رمضان وثب عليه نفر من الخراسانيّة الذين كانوا في خدمته، فقتلوه وهو يريد القيلولة، وكان في أعقاب مرض وقد برىء منه، ودُفن بظاهر أصفهان بشهرستان، فركب مَن معه فقتلوا الباطنيّة.

ولما وصل الخبر إلى بغداد جلسوا للعزاء به في بيت النوبة يوماً واحداً وكان أبيض أشقر، حسن اللون مليح الصورة، مهيباً شديد القوّة والبطش.

قال أبو بكر الصوليّ: النّاس يقولون إنّ كلّ سادس يقوم بأمر

النّاس من أوّل الإسلام لا بُدّ من أن يُخلع، وربّما قُتل. قال: فتأمّلتُ ذلك، فرأيتُه كما قيل، فإنّ أوّل مَن قام بأمر هذه الأمّة محمّد رسول اللّهﷺ ثمّ أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ والحسن، رضي اللّه عنهم، فخُلع وقُتل؛ ثم الوليد بن عبد الملك، وأخوه سليمان، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام ابنا عبد الملك، والوليد بن يزيد ابن عبد الملك، فخُلع وقُتل ، ثمّ لم ينتظم أمر بني أميّة؛ ثمّ وليَ السفّاح، (٦٣/١١) والمنصور والمهدي والهادي والرشيد والأمين، فخُلع وقُتل؛ والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين فخُلع وقُتل؛ والمعتزّ والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر، فخُلع، ثمّ رُدّ، ثمّ قُتل؛ ثمّ القاهر والراضي والمتّقي والمستكفي والمطيع والطائع، فخُلع؛ ثمّ القادر والقائم والمقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد، فخُلع وقُتل.

قلتُ: وفي هذا نظرٌ لأنّ البيعة لابن الزبير كانت قبل البيعة لعبد الملك بن مروان، وكونه جعله بعده لا وجه له، والصوليّ إنّما ذكر إلى أيّام المقتدر باللّه ومَن بعده ذكره غيره.

ذكر حال ابن بكران العيّار

في هذه السنة، في ذي الحجّة عظم أمر ابن بكران العيّار بالعراق، وكثر أتباعه، وصار يركب ظاهراً في جمع من المفسدين، وخافه الشريف أبو الكرم الوالي ببغداد، فأمر أبا القاسم ابن أخيه حامي باب الأزج أن يشتدّ عليه ليأمن شرّه.

وكان ابن بكران يكثر المقام بالسواد، ومعه رفيق له يُعرف بابن البزّاز، فانتهى أمرهما إلى أنّهما أرادا أن يضربا باسمهما سكّة في الأنبار، فأرسل الشحنة والوزير شرف الدين الزينبي إلى الوالي أبي الكرم وقالا: إمّا أن تقتل ابن بكران، وإمّا أن نقتلك، فأحضر ابن أخيه وعرّفه ما جرى، وقال له: إمّا أن تختارني ونفسك، وإمّا أن تختار ابن بكران، فقال: أنا أقتله. وكان لابن بكران عادة يجيء في بعض اللّيالي إلى ابن أخي أبي الكرم، فيقيم في داره، ويشرب عنده، فلمّا جاء على عادته وشرب، أخذ أبو القاسم سلاحه ووثب (٦٤/١١) به فقتله وأراح النّاس من شرّه، ثمّ أخذ، بعده بيسير، رفيقه ابن البزّاز، وصُلب، وقُتل معه جماعة من الحرامية، فسكن النّاس واطمأنّوا وهَدَأت الفتنة.

ذكر قتل الوزير الدركزينيّ ووزارة الخازن

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره العماد أبي البركات بن سلمة الدركزيني، واستوزر بعده كمال الدين محمّد بن الحسين الخازن، وكان الكمال شهماً، عادلاً، نافذ الحكم، حسن السيرة، أزال المكوس ورفع المظالم، وكان يقيم مؤونة السلطان ووظائفه، وجمع له خزائن كثيرة، وكشف أشياء كثيرة كانت مستورة يُخان فيها ويُسرق، فثقل على المتصرّفين وأرباب الأعمال، فأوقعوا بينه وبين الأمراء، لا سيّما قراسنقر صاحب أذربيجان فإنّه فارق السلطان وأرسل يقول: إمّا أن تنفذ رأس الوزير وإلاّ خدمتنا سلطاناً آخر. فأشار مَن حضر من الأمراء بقتله، وحذّروه فتنة لا تُتلافى، فقتله على كُره منه، وأرسل رأسه إلى قارسنقر فرضي. وكانت وزارته سبعة أشهر، وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة.

ووزر بعده أبو العزّ طاهر بن محمّد البروجرديّ وزير قراسنقر، ولُقّب عزّ الملك، وضاقت الأمور على السلطان مسعود، واستقطع الأمراء البلاد بغير اختياره، ولم يبقَ له شيء من البلاد البتّة إلاّ اسم السلطنة لا غير. (٦٥/١١)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ملك حسام الدين تمرتاش إيلغازي، صاحب ماردين، قلعة الهتّاخ من بلاد ديار بكر، أخذها من بعض بني مروان الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها، وهذا آخر مَن بقي منهم له ولاية، فسبحان الحيّ الدائم الذي لا يزول مُلكه ولا يتطرّق إليه النقص ولا التغيير.

وفيها انقطعت كسوة الكعبة، لما ذكرناه من الاختلاف، فقام بكسوتها رامشت التاجر الفارسيُّ، كساها من الثياب الفاخرة بكلّ ما وُجد إليه سبيل، فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر ألف دينار مصريّة؛ وهو من التجّار المسافرين إلى الهند كثير المال.

وفيها توفّيت زبيدة خاتون ابنة السلطان بركيارُق، زوج السلطان مسعود، وتزوّج بعدها سفري ابنة دُبيس بن صدقة في جُمادى الأولى، وتزوّج ابنة قاورت، وهو من البيت السلجوقيّ، إلاّ أنّه كان لا يزال يعاقر الخمر ليلاً ونهاراً، فلهذا سقط اسمه وذكره.

وفيها قتل السلطان مسعود ابن البقش السلاحيّ شحنة بغداد، وكان قد ظلم النّاس وعسفهم، وفعل ما لم يفعله غيره من الظلم، فقبض عليه، وسيّره إلى تكريت، فسجنه بها عند مجاهد الدين بهروز، ثمّ أمر بقتله، فلمّا أرادوا قتله ألقى بنفسه في دجلة فغرق، فأُخذ رأسه وحُمل إلى السلطان، وجعل السلطان شحنة العراق مجاهد الدين بهروز، فعمل أعمالاً صالحةً منها: أنّه عمل مسنّاة النهروان وأشباهها، وكان حسن السيرة كثير الإحسان. (٦٦/١١)

وفيها درّس الشيخ أبو منصور بن الرزّاز بالنظاميّة ببغداد.

وأرسل إلى أتابك زنكي في إطلاق قاضي القضاة الزينبيّ، فأُطلق وانحدر إلى بغداد، فخلع عليه الخليفة وأقرّه على منصبه.

وفيها كان بخراسان غلاء شديد طالت مدّته، وعظم أمره، حتى أكل النّاس الكلاب والسنانير وغيرهما من الدوابّ، وتفرّق أكثر أهل البلاد من الجوع.

وفيها توفّي طغان أرسلان صاحب بدليس وأرزن من ديار بكر [ووليَ بعدَه ابنه فرني] واستقام له الأمر.

وفيها، في شهر صفر، جاءت زلزلة عظيمة بالشام والجزيرة وديار بكر والموصل والعراق وغيرها من البلاد، فخربت كثيراً منها، وهلك تحت الهدم عالم كثيرٌ.

وفيها توفّي أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن أبي الفتح الدِّينَوَريّ الفقيه الحَنبليّ ببغداد، وكان ينشد كثيراً هذه الأبيات:

تمنّيتُ أنْ تُمسي فَقيهاً مناظراً ... بغَيرِ عَناء وَالجُنُونُ فُنُونُ
ولَيسَ اكتسابُ المالِ دونَ مشقّةٍ ... تلَقّيَها فالعلمُ كيفَ يكونُ

وفيها توفّي محمّد بن عبد الملك بن عمر أبو الحسن الكرخيّ، ومولده سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وكان فقيهاً مُحدثاً سمع الحديث بكرخ وأصفهان وهمذان وغيرهما.

وفي شعبان منها توفّي القاضي أبو العلاء صاعد بن الحسين بن إسماعيل بن صاعد، وهو ابن عمّ القاضي أبي سعيد، ووليَ القضاء بنَيسابور بعد أبي سعيد. (٦٧/١١)

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

ذكر الحرب بين السلطان سَنجر وخُوارزم شاه

في هذه السنة، في المحرم، سار السلطان سنجر بن ملكشاه إلى خُوارزم محارباً لخوارزم شاه أتسز بن محمّد. وسبب ذلك أنّ سنجر بلغه أنّ أتسز يحدّث نفسه بالامتناع عليه وترك الخدمة له، وأنّ هذا الأمر قد ظهر على كثير من أصحابه وأمرائه، فأوجب ذلك قصده وأخْذ خوارزم منه، فجمع عساكره وتوجّه نحوه، فلمّا قرب من خوارزم خرج خوارزم شاه إليه في عساكره، فلقيه مقابلاً، وعَبّأ كلّ منهما عساكره وأصحابه، فاقتتلوا، فلم يكن للخُوارزميّة قوّة بالسلطان، فلم يثبتوا، وولّوا منهزمين، وقُتل منهم خلق كثير، ومن جملة القتلى ولد لخوارزم شاه، فحزن عليه أبوه حزناً عظيماً، ووجد وجداً شديداً.

وملك سنجر خوارزم، وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ولد أخيه محمّد، ورتّب له وزيراً وأتابكاً وحاجباً، وقرّر قواعده، وعاد إلى مرو في جُمادى الآخرة من هذه السنة؛ فلمّا فارق خوارزم عائداً انتهز خوارزم شاه الفرصة فرجع إليها، وكان أهلها يكرهون العسكر السنجريّ ويؤثرون عودة خوارزم شاه، فلمّا عاد أعانوه على مُلك البلد، ففارقهم سليمان شاه ومن معه ورجع إلى عمّه السلطان سنجر، وفسد الحال بين سنجر وخوارزم شاه واختلفا بعد الاتّفاق، ففعل خوارزم شاه في خراسان سنة ستّ وثلاثين وخمسمائة ما نذكره إن شاء الله. (٦٨/١١)

ذكر قتل محمود صاحب دمشق ومُلك أخيه محمّد

في هذه السنة، في شوّال، قُتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طُغدُكين، صاحب دمشق، على فراشه غيلةً، قتله ثلاثة من غلمانه هم خواصّه وأقرب النّاس منه في خلوته وجلوته، وكانوا ينامون عنده ليلاً، فقتلوه وخرجوا من القلعة وهربوا، فنجا أحدهم وأُخذ الآخران فصُلِبا.

وكتب من بدمشق إلى أخيه جمال الدين محمّد بن بوري صاحب بعلبكّ وهو بها، بصورة الحال واستدعوه ليملك بعد أخيه، فحضر في أسرع وقت، فلمّا دخل البلد جلس للعزاء بأخيه، وحلف له الجند وأعيان الرعيّة، وسكن النّاس، وفوّض أمر دولته إلى معين الدين أنز، مملوك جدّه، وزاد في علوّ مرتبته، وصار هو الجملة والتفصيل؛ وكان أنز خيّراً عاقلاً حسن السيرة فجرت الأمور عنده على أحسن نظام.

ذكر مُلك زنكي بعلبكّ

في هذه السنة، في ذي القعدة، سار عماد الدين أتابك زنكي بن آقسنقر إلى بعلبكّ، فحصرها ثمّ ملكها؛ وسبب ذلك أنّ محموداً صاحب دمشق لما قُتل كانت والدته زمرد خاتون عند أتابك زنكي بحلب، قد تزوّجها، فوجدت لقتل ولدها وجداً شديداً، وحزنت عليه، وأرسلت إلى زنكي وهو بديار (٦٩/١١) الجزيرة تعرّفه الحادثة، وتطلب منه أن يقصد دمشق ويطلب بثأر ولدها. فلمّا وقف على هذه الرسالة بادر في الحال من غير توقّف ولا تريّث، وسار مُجدّاً ليجعل ذلك طريقاً إلى مُلك البلد، وعبر الفرات عازماً على قصد دمشق، فاحتاط من بها، واستعدّوا، واستكثروا من الذخائر، ولم يتركوا شيئاً ممّا يحتاجون إليه إلاّ وبذلوا الجهد في تحصيله، وأقاموا ينتظرون وصوله إليهم، فتركهم وسار إلى بعلبكّ.

وقيل: كان السبب في مُلكها أنّها كانت لمعين الدين أنز، كما ذكرناه، وكان له جارية يهواها، فلمّا تزوّج أمّ جمال الدين سيّرها إلى بعلبكّ، فلمّا سار زنكي إلى الشام عازماً على قصد دمشق سيّر إلى أنز يبذل له البذول العظيمة ليسلّم إليه دمشق، فلم يفعل.

وسار أتابك إلى بعلبكّ فوصل إليها في العشرين من ذي الحجّة من السنة فنازلها في عساكره، وضيّق عليها، وجدّ في محاربتها، ونصب عليها من المنجنيقات أربعة عشر عدداً ترمي ليلاً ونهاراً، فأشرف مَن بها على الهلاك، وطلبوا الأمان، وسلّموا إليه المدينة، وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك، فقاتلهم، فلمّا أيسوا من معين ونصير طلبوا الأمان فأمّنهم، فسلّموا إليه القلعة، فلمّا نزلوا منها وملكها غدر بهم وأمر بصلبهم فصُلبوا ولم ينجُ منهم إلاّ القليل، فاستقبح النّاس ذلك من فعله واستعظموه، وخافه غيرهم وحذروه لا سيّما أهل دمشق فإنّهم قالوا: لو مَلَكَنا

لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء، فإنهم نفوراً وجبناً في محاربته.

ولما ملك زنكي بعلبك أخذ الجارية التي كانت لمعين الدين أنز بها، فتزوجها بحلب، فلم تزل بها إلى أن قتل، فسيّرها ابنه نور الدين محمود إلى (٧٠/١١) معين الدين أنز، وهي كانت أعظم الأسباب في المودّة بين نور الدين وبين أنز، والله أعلم.

ذكر استيلاء قراسنقر على بلاد فارس وعوده عنها

وفي هذه السنة جمع أتابك قراسُنقر صاحب أذربيجان عساكر كثيرة وحشد، وسار طالباً بثأر أبيه الذي قتله بوزابة في المصاف المقدّم ذكره، فلمّا قارب السلطان مسعوداً أرسل إليه يطلب منه قتل وزيره الكمال، فقتله كما ذكرناه، فلمّا قتل سار قراسنقر إلى بلاد فارس، فلمّا قاربها تحصّن بوزابة منه في القلعة البيضاء، ووطىء قراسنقر البلاد، وتصرّف فيها، وليس له فيها دافعٌ ولا مانعٌ، إلاّ أنّه لم يمكنه المقام، وملك [المدن] التي في فارس، فسلّم البلاد إلى الملك سلجوقشاه ابن السلطان محمود وقال له: هذه البلاد لك فاملك الباقي، وعاد إلى أذربيجان فنزل حينئذٍ بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين [وخمسمائة]، وهزم سلجوقشاه وملك البلاد، وأسر سلجوقشاه وسجنه في قلعة بفارس.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في صفر، توفّي الوزير شرف الدين أنوشروان بن خالد معزولاً ببغداد، وحضر جنازته وزير الخليفة فمن دونه، ودُفن في داره، ثم نقل إلى الكوفة، فدفن في مشهد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، (٧١/١١) عليه السلام. وكان فيه تشيّعٌ، وهو كان السبب في عمل المقامات الحريريّة، وكان رجلاً عاقلاً شهماً، ديّناً خيراً، وزر للخليفة المسترشد وللسلطان محمود وللسلطان مسعود، وكان يستقيل من الوزارة فيجاب إلى ذلك ثمّ يُخطب إليها فيجيب كارهاً.

وفيها قدم السلطان مسعود بغداد في ربيع الأوّل، وكان الزمان شتاء، وصار يُشتّي بالعراق، ويصيّف بالجبال، ولما قدمها أزال المكوس، وكتب الألواح بإزالتها، ووُضعت على أبواب الجوامع وفي الأسواق، وتقدّم أن لا ينزل جنديّ في دار عامّيّ من أهل بغداد إلاّ بإذن، فكثر الدعاء له والثناء عليه، وكان السبب في ذلك الكمال الخازن وزير السلطان.

وفيها، في صفر، كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد، وكان أشدّها بالشام، وكانت متوالية عدّة ليال، كلّ ليلة عدّة دفعات، فخرب كثير من البلاد، لا سيّما حلب فإنّ أهلها لما كثرت عليهم فارقوا بيوتهم، وخرجوا [إلى] الصحراء، وعدّوا ليلة واحدة جاءتهم ثمانين مرّة، ولم تزل بالشام تتعاهدهم من رابع صفر إلى التاسع عشر منه، وكان معها صوت وهزّة شديدة.

وفيها أغار الفرنج على أعمال بانياس، فسار عسكر دمشق في أثرهم، فلم يدركوهم فعادوا.

وفيها توفّي أبو القاسم زاهر بن طاهر الشحاميّ النيسابوريّ بها، ومولده سنة ستّ وأربعين وأربعمائة، وكان إماماً في الحديث، مكثراً عالي الإسناد.

وتوفّي عبد الله بن أحمد بن عبد القادر بن محمّد بن يوسف أبو القاسم ابن أبي الحسين البغداديّ بها، ومولده سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة وعبد (٧٢/١١) العزيز بن عثمان بن إبراهيم أبو محمّد الأسديّ البخاريّ، كان قاضي بخارى، وكان من الفقهاء أولاد الأئمّة حسن السيرة.

وتوفّي محمّد بن شُجاع بن أبي بكر بن عليّ بن إبراهيم اللّفْتوانيّ الأصفهاني بأصفهان في جُمادى الآخرة، ومولده سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وسمع الحديث الكثير بأصفهان وبغداد وغيرهما. (٧٣/١١)

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

ذكر حصار أتابك زنكي دمشق

في هذه السنة حصر أتابك زنكي دمشق مرّتين، فأمّا المرّة الأولى فإنّه سار إليها في ربيع الأوّل من بعلبك بعد الفراغ من أمرها، وتقرير قواعدها وإصلاح ما تشعّث منها، ليحصرها، فنزل بالبقاع، وأرسل إلى جمال الدين صاحبها يبذل له بلداً يقترحه ليسلّم إليه دمشق، فلم يجبه إلى ذلك، فرحل وقصد دمشق، فنزل على داريّا ثالث عشر ربيع الأوّل فالتقت الطلائع واقتتلوا، وكان الظفر لعسكر زنكي وعاد الدمشقيّون منهزمين، فقتل كثير منهم.

ثمّ تقدّم زنكي إلى دمشق، فنزل هناك، ولقيه جمع كثير من جند دمشق وأحداثها ورجّالة الغوطة، فقاتلوه، فانهزم الدمشقيون، وأخذهم السيف، فقتل فيهم وأكثر، وأسر كذلك، ومن سلم عاد جريحاً. وأشرف البلد ذلك اليوم على أن يُملك، لكن عاد زنكي عن القتال وأمسك عنه عدّة أيّام، وتابع الرسل إلى صاحب دمشق، وبذل له بعلبك وحمص وغيرهما ممّا يختاره من البلاد، فمال إلى التسليم، وامتنع غيره من أصحابه من ذلك، وخوّفوه عاقبة فعله، وأن يُغدر به كما غُدر بأهل بعلبك، فلمّا لم يسلّموا إليه عاود القتال والزحف.

ثمّ إنّ جمال الدين صاحب دمشق مرض ومات ثامن شعبان، وطمع (٧٤/١١) زنكي حينئذٍ في البلد، وزحف إليه زحفاً شديداً ظنّاً منه أنّه ربّما يقع بين المقدّمين والأمراء خلاف فيبلغ غرضه،

وكان ما أمّله بعيداً، فلمّا مات جمال الدين وليَ بعده مجير الدين أبق ولدُه، وتولّى تدبير دولته معين الدين أنز فلم يظهر لموت أبيه أثرٌ مع أنّ عدوّهم على باب المدينة، فلمّا رأى أنز أنّ زنكي لا يفارقهم، ولا يزول عن حصرهم، راسل الفرنج، واستدعاهم إلى نصرته، وأن يتّفقوا على منع زنكي عن دمشق، وبذل لهم بذولاً من جملتها أن يحصر بانياس ويأخذها وسلّمها إليهم، وخوّفهم من زنكي إن ملك دمشق؛ فعلموا صحّة قوله إنّه إن ملكها لم يبقَ لهم معه بالشام مقام، فاجتمعت الفرنج وعزموا على المسير إلى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها وعسكرها على قتال زنكي، فحين علم زنكي بذلك سار إلى حَوْران خامس رمضان، عازماً على قتال الفرنج قبل أن يجتمعوا بالدمشقيّين، فلمّا سمع الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم، فلمّا رآهم كذلك عاد إلى حصر دمشق [ونزل] بعذرا شماليها سادس شوّال، فأحرق عدّة قُرى من المرج والغوطة ورحل عائداً إلى بلاده.

ووصل الفرنج إلى دمشق واجتمعوا بصاحبها وقد رحل زنكي، فعادوا، فسار معين الدين أنز إلى بانياس في عسكر دمشق، وهي في طاعة زنكي، كما تقدّم ذكرها، ليحصرها ويسلّمها إلى الفرنج؛ وكان واليها قد سار قبل ذلك منها في جمع جمعه إلى مدينة صور للإغارة على بلادها، فصادفه صاحب أنطاكية وهو قاصد إلى دمشق نجدةً لصاحبها على زنكي، فاقتتلا، فانهزم المسلمون وأخذوا والي بانياس فقُتل، ونجا مَن سلم منهم إلى بانياس، وجمعوا معهم كثيراً من البقاع وغيرها، وحفظوا القلعة، فنازلها معين الدين، فقاتلهم، وضيّق عليهم، ومعه طائفة من الفرنج، فأخذها وسلّمها إلى الفرنج. (٧٥/١١)

وأمّا الحصر الثاني لدمشق، فإنّ أتابك لما سمع الخبر بحصر بانياس عاد إلى بعلبك ليدفع عنها مَن يحصرها، فأقام هناك. فلمّا عاد عسكر دمشق، بعد أن ملكوها وسلّموها إلى الفرنج، فرّق أتابك زنكي عسكره على الإغارة على حَوْران وأعمال دمشق، وسار هو جريدة مع خواصّه، فنازل دمشق سَحَراً ولا يعلم به أحد من أهلها، فلمّا أصبح النّاس ورأوا عسكره خافوا، وارتجّ البلد، واجتمع العسكر والعامّة على السور وفُتحت الأبواب وخرج الجُند والرجّالة فقاتلوه، فلم يمكن زنكي عسكره من الإقدام في القتال لأنّ عامّة عسكره كانوا قد تفرّقوا في البلاد للنّهب والتخريب، وإنّما قصد دمشق لئلاً يخرج منها عسكر إلى عسكره وهم متفرّقون، فلمّا اقتتلوا ذلك اليوم قُتل بينهم جماعة ثم أحجم زنكي عنهم وعاد إلى خيامه ورحل إلى مرج راهط، وأقام ينتظر عودة عسكره، فعادوا إليه وقد ملؤوا أيديهم من الغنائم، لأنّهم طرقوا البلاد وأهلها غافلون، فلمّا اجتمعوا عنده رحل بهم عائداً إلى بلادهم.

ذكر مُلك زنكي شهرزور وأعمالها

في هذه السنة ملك أتابك زنكي شهرزور وأعمالها وما يجاورها من الحصون، وكانت بيد قفجاق بن أرسلان تاش التركمانيّ، وكان حكمه نافذاً على قاصي التركمان ودانيهم، وكلمته لا تخالَف، يرون طاعته فرضاً، فتحامى الملوك قصده، ولم يتعرّضوا لولايته لهذا ولأنّها منيعة كثيرة المضايق، فعظم شأنه وازداد جمعه، وأتاه التركمان من كلّ فجّ عميق.

فلمّا كان هذه السنة سيّر إليه أتابك زنكي عسكراً، فجمع أصحابه ولقيهم فتصافّوا واقتتلوا، فانهزم قفجاق واستبيح عسكره، وسار الجيش (٧٦/١١) الأتابكيّ [في أعقابهم فحصروا الحصون والقلاع فملكوها جميعها وبذلوا الأمان لقفجاق فصار إليهم، وانخرط في سلك العساكر] ولم يزل هو وبنوه في خدمة البيت الأتابكيّ على أحسن قضيّة إلى بعد سنة ستمائة بقليل وفارقوها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة جرى بين أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله وبين الوزير شرف الدين عليّ بن طراد الزينبيّ منافرة، وسببها أنّ الوزير كان يعترض الخليفة في كلّ ما يأمر به، فنفر الخليفة من ذلك، فغضب الوزير، ثمّ خاف فقصد دار السلطان في سميرية، وقت الظهر، ودخل إليها واحتمى بها، فأرسل إليه الخليفة في العود إلى منصبه، فامتنع. وكانت الكتب تصدر باسمه، واستنيب قاضي القضاة الزينبيّ، وهو ابن عمّ الوزير، وأرسل الخليفة إلى السلطان رسلاً في معنى الوزير، فأرخص له السلطان في عزله، فحينئذٍ أسقط اسمه من الكتب، وأقام بدار السلطان، ثمّ عزل الزينبيّ من النيابة وناب سديد الدولة بن الأنباريّ.

وفيها قُتل المقرّب جوهر وهو من خدم السلطان سنجر، وكان قد حكم في دولته جميعها، ومن جملة أقطاعه الرَّيّ، ومن جملة مماليكه عبّاس صاحب (٧٧/١١) الرَّيّ، وكان سائر عسكر السلطان سنجر يخدمونه ويقفون ببابه، وكان قتله بيد الباطنيّة، وقف له جماعة منهم بزيّ النساء واستغثن به، فوقف يسمع كلامهم فقتلوه، فلمّا قُتل جمع صاحبه عبّاس العساكر وقصد الباطنيّة، فقتل منهم وأكثر، وفعل بهم ما لم يفعله غيره، ولم يزل يغزوهم ويقتل فيهم ويخرّب بلادهم إلى أن مات.

وفيها زلزلت كنجة وغيرها من أعمال أذربيجان وأرّان إلاّ أنّ أشدّها كان بكنجة فخرّب منها الكثير وهلك عالم لا يحصون كثرة. قيل: كان الهلكى مائتَيْ ألف وثلاثين ألفاً، وكان من جملة الهلكى ابنان لقاسنقر صاحب البلاد، وتهدّمت قلعة هناك لمجاهد الدين بهروز، وذهب له فيها من الذخائر والأموال شيء عظيم.

وفيها شرع مجاهد الدين بهروز في عمل النهروانات: سَكَرَ

سكراً عظيماً يردّ الماء إلى مجراه الأوّل، وحفر مجرى الماء القديم، وخرق إليه مَجراة تأخذ من ديالى ثمّ استحال بعد ذلك وجرى الماء ناحية من السكر، وبقي السكر في البئر لا ينتفع به أحدٌ، ولم يتعرّض أحدٌ لردّه إلى مجراه عند السكر إلى وقتنا هذا.

وفيها انقطع الغيث ببغداد والعراق، ولم يجيء غير مرّة واحدة في آذار، ثمّ انقطع، ووقع الغلاء، وعُدمت الأقوات بالعراق.

وفيها، في جُمادى الآخرة، دخل الخليفة بفاطمة خاتون بنت السلطان مسعود، وكان يوم حملها إلى دار الخليفة يوماً مشهوداً، أُغلقت بغداد عدّة أيّام وزُيّنت وتزوّج السلطان مسعود بابنة الخليفة المقتفي لأمر الله، وعقد عليها، واستقرّ أن يتأخّر زفافها خمس سنين لصغره.

وفيها، في ربيع الأوّل، توفّي القاضي أبو الفضل يحيى ابن قاضي دمشق المعروف بالزكيّ.(٧٨/١١)

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

ذكر مسير جهاردانكيّ إلى العراق وما كان منه

في هذه السنة أمر السلطان مسعود الأميرَ إسماعيل المعروف بجهاردانكيّ، والبقش كون خَر، بالمسير إلى خوزستان وفارس وأخذهما من بوزابة، وأطلق لهما نفقة على بغداد، فسارا فيمن معهما إلى بغداد، فمنعهم مجاهد الدين بهروز من دخولها، فلم يقبلوا منه، فأرسل إلى المعابر فخسّفها وغرّقها، وجدّ في عمارة السور، وسدّ بابَ الظفريّة وباب كَلْوادَى، وأغلق باقي الأبواب، وعلّق عليها السلاح وضرب الخيام للمقاتلة.

فلمّا علما بذلك عبرا بصَرْصَر، وقصدا الحِلّة، فمُنعا منها، فقصدا واسطاً، فخرج إليهما الأمير طرنطايّ وتقاتلوا، فانهزم طرنطايّ ودخلوا واسط فنهبوها ونهبوا بلد فرسان والنعمانيّة، وانضمّ طرنطايّ إلى حمّاد بن أبي الخير صاحب البطيحة، ووافقهم عسكر البصرة، وفارق إسماعيل والبقش بعض عسكرهما وصارا مع طرنطايّ، فضعُف أولئك، فسار إلى تُستر واستشفع إسماعيل إلى السلطان فعفا عنه. (٧٩/١١)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وصل رسول من السلطان سنجر، ومعه بُردة النبيّ ﷺ والقضيب، وكانا قد أُخذا من المسترشد، فأعادهما الآن إلى المقتفي.

وفي هذه السنة توفّي أتابك قراسنقر صاحب أذربيجان وأرّانيّة بمدينة أردبيل، وكان مرضه السلّ، وطال به، وكان من مماليك الملك طغرل، وسُلّمت أذربيجان وأرّانيّة إلى الأمير جاولي الطغرليّ. وكان قراسنقر علا شأنه على سلطانه وخافه السلطان.

وفيها كان بين أتابك زنكي وبين داود سقمان بن أرتق، صاحب حصن كيفا، حربٌ شديدة، وانهزم داود بن سقمان، وملك زنكي من بلاده قلعة بهمرد وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل.

وفيها ملك الإسماعيليّة حصن مصيات بالشام، وكان واليه مملوكاً لبني منقذ أصحاب شيزر، فاحتالوا عليه، ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه، وملكوا الحصن، وهو بأيديهم إلى الآن.

وفيها توفّي سديد الدولة بن الأنباريّ واستوزر الخليفة بعده نظام الدين أبا نصر محمّد بن محمّد بن جُهير، وكان قبل ذلك أستاذ الدار.

وفيها توفّي يرنقش بازدار صاحب قزوين.

وفيها، في رجب، ظفر ابن الدانشمند، صاحب ملطية وغيرها من تلك النواحي، بجمع من الروم فقتلهم وغنم ما معهم. (٨٠/١١)

وفيها، في رمضان، سارت طائفة من الفرنج بالشام إلى عَسقلان ليُغيروا على أعمالها، وهي لصاحب مصر، فخرج إليهم العسكر الذي بعسقلان فقاتلهم، فظفر المسلمون وقتلوا من الفرنج كثيراً، فعادوا منهزمين.

وفيها بُنيت المدرسة الكماليّة ببغداد؛ بناها كمال الدين أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن، ولما فرغت درّس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخلّ، وحضره أرباب المناصب وسائر الفقهاء.

وفيها، في رجب، مات القاضي أبو بكر بن محمّد بن عبد الباقي الأنصاري، قاضي المارستان، عن نيّف وتسعين سنة، وله الإسناد العالي في الحديث، وكان عالماً بالمنطق والحساب والهيئة وغيرها من علوم الأوائل، وهو آخر مَن حدّث في الدنيا عن أبي إسحق البرمكيّ والقاضي أبي الطيّب الطبريّ وأبي طالب العشاريّ وأبي محمّد الجوهريّ وغيرهم.

وتوفّي الإمام الحافظ أبو القاسم إسماعيل بن محمّد بن الفضل الأصفهانيّ عاشر ذي الحجّة، ومولده سنة تسع وخمسين [وأربعمائة]، وله التصانيف المشهورة.

وتوفّي يوسف بن أيّوب بن يوسف بن الحسين أبو يعقوب الهمذانيّ من أهل بروجرد، وسكن مرو، وتفقّه على أبي إسحق الشيرازي، وروى الحديث، واشتغل بالرياضيات والمجاهدات، ووعظ ببغداد، فقام إليه متفقّه يقال له ابن السقّاء وسأله وآذاه في السؤال فقال: اسكت، إنّي أشمّ منك ريح الكفر! فسافر الرجل إلى

بلد الروم وتنصّر.

وفيها مات أبو القاسم عليُّ بن أفلح الشاعر المشهور. (٨١/١١)

سنة سِت وثلاثين وخمسمائة

ذكر انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا وملكهم ما وراء النهر

قد ذكر أصحاب التواريخ في هذه الحادثة أقاويل نحن نذكرها جميعها للخروج من عهدتها، فنقول :

في هذه السنة، في المحرّم، انهزم السلطان سنجر من الترك الكفّار. وسبب ذلك أنّ سنجر كان قتل ابناً لخوارزم شاه أتسز بن محمّد، كما ذكرناه قبل، فبعث خوارزم شاه إلى الخطا، وهم بما وراء النهر، يُطمعهم في البلاد ويزوّج عليهم أمرها، وتزوّج إليهم، وحثّهم على قصد مملكة السلطان سنجر، فساروا في ثلاثمائة ألف فارس، وسار إليهم سنجر في عساكره، فالتقوا بما وراء النهر، واقتتلوا أشدّ قتال، وانهزم سنجر في جميع عساكره، وقُتل منهم مائة ألف قتيل، منهم: أحد عشر ألفاً كلّهم صاحب عمامة، وأربعة آلاف امرأة، وأُسرت زوجة السلطان سنجر، وتمّ سنجر منهزماً إلى ترمذ، وسار منها إلى بلخ.

ولما انهزم سنجر قصد خوارزم شاه مدينة مرو، فدخلها مراغمة للسلطان سنجر، وقتل بها وقبض على أبي الفضل الكرمانيّ الفقيه الحنفيّ وعلى جماعة من الفقهاء وغيرهم من أعيان البلد.

ولم يزل السلطان سنجر مسعوداً إلى وقتنا هذا لم تنهزم له راية، ولما تمّت (٨٢/١١) عليه هذه الهزيمة أرسل إلى السلطان مسعود وأذن له في التصرّف في الريّ وما يجري معها على قاعدة أبيه السلطان محمّد، وأمره أن يكون مقيماً فيها بعساكره بحيث إن دعت حاجةٌ استدعاه لأجل هذه الهزيمة، فوصل عبّاس صاحب الرَّيّ إلى بغداد بعساكره، وخدم السلطان مسعوداً خدمة عظيمة، وسار السلطان إلى الريّ امتثالاً لأمر عمّه سنجر.

وقيل: إنّ بلاد تركستان، وهي كاشغر، وبلاساغون، وختن، وطراز وغيرها ممّا يجاورها من بلاد ما وراء النهر كانت بيد الملوك الخانيّة الأتراك، وهم مسلمون من نسل افراسياب التركيّ، إلاّ أنّهم مختلفون وكان سبب إسلام جدّهم الأول واسمه ستق قراخاقان أنّه رأى في منامه كأنّ رجلاً نزل من السماء فقال بالتركيّة ما معناه: أسْلم تَسْلَم في الدنيا والآخرة؛ فأسلم في منامه، وأصبح فأظهر إسلامه، فلمّا مات قام مقامه ابنه موسى بن ستق، ولم يزل المُلك بتلك الناحية في أولاده إلى أرسلان خان محمّد ابن سليمان بن داود بغراخان بن إبراهيم الملقّب بطمغاج خان بن ايلك الملقّب بنصر أرسلان بن عليّ بن موسى بن ستق، فخرج على قدرخان فانتزع المُلك منه، فقتل سنجر قدرخان، كما ذكرناه، سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وأعاد المُلك إلى أرسلان خان، وثبت قدمه. وخرج خوارج، فاستصرخ السلطان سنجر فنصره وأعاده إلى مُلكه أيضاً.

وكان من جنده نوع من الأتراك يقال لهم القارغليّة والأتراك الغزيّة الذين نهبوا خُراسان على ما نذكره إن شاء الله، وهم نوعان: نوع يقال لهم أجق، وأميرهم طوطى بن دادبك، ونوع يقال لهم برق وأميرهم قرعوت بن عبد الحميد، فحسّن الشريف الأشرف بن محمّد بن أبي شجاع العلويّ السمرقنديّ لولد أرسلان خان المعروف بنصر خان طَلَبَ المُلك من أبيه (٨٣/١١) وأطعمه، فسمع محمّد خان الخبر، فقتل الابن والشريف الأشرف.

وجرت بين أرسلان خان وبين جنده القارغليّة وحشة دعتهم إلى العصيان عليه وانتزاع المُلك منه، فعاود الاستغاثة بالسلطان سنجر، فعبر جَيحون بعساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وكان بينهما مصاهرة، فوصل إلى سَمَرقند، وهرب القارغليّة من بين يديه.

واتّفق أنّ السلطان سنجر خرج إلى الصيد، فرأى خيّالة، فقبض عليهم فأقرّوا بأنّ أرسلان خان وضعهم على قتله، فعاد إلى سمرقند، فحصر أرسلان خان بالقلعة فملكها، وأخذه أسيراً، وسيّره إلى بلخ فمات بها، وقيل بل غدر به سنجر، واستضعفه، فملك البلد منه فأشاع عنه ذلك.

فلمّا ملك سمرقند استعمل عليها بعده قلج طمغاج أبا المعالي الحسن بن عليّ بن عبد المؤمن المعروف بحسن تكين، وكان من أعيان بيت الخانيّة، إلاّ أنّ أرسلان خان اطّرحه، فلمّا وليّ سمرقند لم تطل أيّامه، فمات عن قليل، فأقام سنجر مقامه الملك محمود بن أرسلان خان محمّد بن سليمان بن داود بغراخان، وهو ابن الذي أخذ منه سنجر سمرقند، وكان محمود هذا ابن أخت سنجر، وكان قبل ذلك، سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، قد وصل الأعور الصينيّ إلى حدود كاشغر في عدد كثير لا يعلمهم إلاّ الله، فاستعدّ له صاحب كاشغر، وهو الخان أحمد بن الحسن، وجمع جنوده، فخرج إليه، والتقوا، فاقتتلوا، وانهزم الأعور الصينيّ، وقُتل كثير من أصحابه، ثمّ إنّه مات، فقام مقامه كوخان الصينيّ.

وكو بلسان الصين لقبٌ لأعظم ملوكهم، وخان لقبٌ لملوك الترك فمعناه أعظم الملوك. وكان يلبس لبسة ملوكهم من المقنعة والخمار، وكان مانَويّ (٨٤/١١) المذهب. ولما خرج من الصين إلى تركستان انضاف إليه الأتراك الخطا، وكانوا قد خرجوا قبله من الصين، وهم في خدمة الخانيّة أصحاب تركستان.

وكان أرسلان خان محمّد بن سليمان يسيّر كلّ سنة عشرة

آلاف خركاة ويُنزلهم على الدروب التي بينه وبين الصين، يمنعون أحداً من الملوك أن يتطرّق إلى بلاده، وكان لهم على ذلك جرايات وإقطاعات، فاتّفق أنّه وجد عليهم في بعض السنين، فمنعهم عن نسائهم لئلاّ يتوالدوا، فعظم عليهم، ولم يعرفوا وجهاً يقصدونه وتحيّروا، فاتّفق أنّه اجتاز بهم قفلٌ عظيمٌ فيه الأموال الكثيرة والأمتعة النفيسة فأخذوه وأحضروا التجّار وقالوا لهم: إن كنتم تريدون أموالكم فتعرّفونا بلداً كثير المرعى فسيحاً، يسعنا ومعنا أموالنا، فاتّفق رأي التجار على بلد بلاساغون فوصفوه لهم، فأعادوا إليهم أموالهم، وأخذوا الموكّلين بهم لمنعهم عن نسائهم وكتفوهم، وأخذوا نساءهم، وساروا إلى بلاساغون، وكان أرسلان خان يغزوهم ويكثر جهادهم فخافوه خوفاً عظيماً.

فلمّا طال ذلك عليهم وخرج كوخان الصيني انضافوا إليه أيضاً، فعظم شأنهم وتضاعف جمعهم، وملكوا بلاد تركستان، وكانوا إذا ملكوا المدينة لا يغيّرون على أهلها شيئاً، بل يأخذون من كلّ بيت ديناراً من أهل البلاد وغيرها من القُرى، وأمّا المزدرعات وغير ذلك فلأهله، وكلّ مَن أطاعهم من الملوك شدّ في وسطه شبه لوح فضّة، فتلك علامة مَن أطاعهم.

ثمّ ساروا إلى بلاد ما وراء النهر، فاستقبلهم الخاقان محمود بن محمّد بن حدود خجندة في رمضان سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، واقتتلوا، فانهزم الخاقان محمود بن محمّد، وعاد إلى سمرقند، فعظُم الخطب على أهلها، (٨٥/١١) واشتدّ الخوف والحزن، وانتظروا البلاء صباحاً ومساء، وكذلك أهل بخارى وغيرها من بلاد ما وراء النهر، وأرسل الخاقان محمود إلى السلطان سنجر يستمدّه ويُنهي إليه ما لقي المسلمون، ويحثّه على نصرتهم، فجمع العساكر، فاجتمع عنده ملوك خراسان: صاحب سجستان والغور، وملك غزنة، وملك مازندران وغيرهم، فاجتمع له أكثر من مائة ألف فارس وبقي العرض ستّة أشهر.

وسار سنجر إلى لقاء الترك، فعبر إلى ما وراء النهر في ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، فشكا إليه محمود بن محمّد خان من الأتراك القارغليّة، فقصدهم سنجر، فالتجؤوا إلى كوخان الصينيّ ومَن معه من الكفّار، وأقام سنجر بسمرقند، فكتب إليه كوخان كتاباً يتضمّن الشفاعة في الأتراك القارغليّة ويطلب منه أن يعفو عنهم، فلم يشفّعه فيهم، وكتب إليه يدعوه إلى الإسلام ويتهدّده إن لم يجبْ إليه ويتوعّده بكثرة عساكره، ووصفهم، وبالغ في قتالهم بأنواع السلاح حتى قال: وأنّهم يشقّون الشعر بسهامهم، فلم يُرضِ هذا الكتاب وزيره طاهر بن فخر المُلك بن نظام المُلك، فلم يُصغِ إليه، وسيّر الكتاب، فلمّا قُرِئ الكتاب على كوخان أمر بنتف لحية الرسول وأعطاه إبرة، وكلّفه شقّ شعرة من لحيته فلم يقدر أن يفعل ذلك، فقال: كيف يشقّ غيرك شعرة ينسهم وأنت عاجز عن شقّها بإبرة؟

واستعدّ كوخان للحرب، وعنده جنود الترك والصين والخطا وغيرهم، وقصد السلطان سنجر، فالتقى العسكران، وكانا كالبحرين العظيمين، بموضع يقال له قطوان، وطاف بهم كوخان حتى ألجأهم إلى واد يقال له درغم، وكان على ميمنة سنجر الأمير قماج، وعلى ميسرته ملك سجستان، والأثقال (٨٦/١١) وراءهم، فاقتتلوا خامس صفر سنة ستّ وثلاثين وخمسمائة.

وكانت الأتراك القارغليّة الذين هربوا من سنجر من أشدّ النّاس قتالاً، ولم يكن ذلك اليوم من عسكر السلطان سنجر أحسن قتالاً من صاحب سجستان، فأجلت الحرب عن هزيمة المسلمين، فقُتل منهم ما لا يُحصى من كثرتهم، واشتمل وادي درغم على عشرة آلاف من القتلى والجرحى، ومضى السلطان سنجر منهزماً، وأُسر صاحب سجستان والأمير قماج وزوجة السلطان سنجر، وهي ابنة أرسلان خان، فأطلقهم الكفّار، وممّن قُتل الحسام عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاريّ الفقيه الحنفيّ المشهور. ولم يكن في الإسلام وقعة أعظم من هذه ولا أكثر ممّن قُتل فيها بخراسان.

واستقرّت دولة الخطا والترك والكفّار بما وراء النهر، وبقي كوخان إلى رجب من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة فمات فيه. وكان جميلاً، حسن الصورة، لا يلبس إلاّ الحرير الصينيّ، له هيبة عظيمة على أصحابه، ولم يسلّط أميراً على أقطاع بل كان يُعطيهم من عنده، ويقول: متى أخذوا الأقطاع ظلموا! وكان لا يقدّم أميراً على أكثر من مائة فارس حتى لا يقدر على العصيان عليه؛ وكان ينهى أصحابه عن الظلم، وينهى عن السكر ويعاقب عليه، ولا ينهى عن الزنا ولا يقبّحه.

وملك بعده ابنة له فلم تطل مدتها حتى ماتت، فملك بعدها أمّها زوجة كوخان وابنة عمّه، وبقي ما وراء النهر بيد الخطا إلى أن أخذه منهم علاء الدين محمّد خوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستّمائة، على ما نذكره إن شاء الله. (٨٧/١١)

ذكر ما فعله خوارزم شاه بخراسان

قد ذكرنا قبلُ قصد السلطان سنجر خوارزم، وأخذها من خوارزم شاه أتسز وعوده إليها وقتل ولد خوارزم شاه، [وأنّه هو الذي راسل الخطا وأطمعهم في بلاد الإسلام، فلمّا لقيهم السلطان سنجر وعاد منهزماً] سار خوارزم شاه إلى خراسان، فقصد سَرخَس في ربيع الأوّل من السنة.

فلمّا وصل إليها لقيه الإمام أبو محمّد الزياديّ. وكان قد جمع بين الزهد والعلم، فأكرمه خوارزم شاه إكراماً عظيماً، ورحل من هناك إلى مرو الشاهجان، فقصده الإمام أحمد الباخرزيّ، وشفع في

أهل مرو، وسأل ألاّ يتعرّض لهم أحد من العسكر، فأجابه إلى ذلك، ونزل بظاهر البلد، واستدعى أبا الفضل الكرمانيّ الفقيه وأعيان أهلها، فثار عامّة مرو وقتلوا بعض أهل خوارزم شاه، وأخرجوا أصحابه من البلد، وأغلقوا أبوابه، واستعدّوا للامتناع، فقاتلهم خوارزم شاه، ودخل مدينة مرو سابع عشر ربيع الأوّل من السنة، وقتل كثيراً من أهلها.

وممّن قُتل: إبراهيم المروزيّ الفقيه الشافعيّ وعليُّ بن محمّد بن أرسلان، وكان ذا فنون كثيرة من العلم، وقُتل الشريف عليُّ بن إسحق المُوسَويُّ، وكان رأس فتنة وملقح شرّ، وقتل كثيراً من أعيان أهلها وعاد إلى خوارزم، واستصحب معه علماء كثيرين من أهلها منهم: أبو الفضل الكرمانيّ وأبو (٨٨/١١) منصور العباديّ والقاضي الحسين بن محمّد الأرسابنديّ وأبو محمّد الخَرَقّي الفيلسوف وغيرهم.

ثمّ سار في شوّال من السنة إلى نَيسابور، فخرج إليه جماعة من فقهائها وعلمائها وزهّادها، وسألوه أن لا يفعل بأهل نيسابور ما فعل بأهل مرو، فأجابهم إلى ذلك لكنّه استقصى في البحث عن أموال أصحاب السلطان فأخذها، وقطع خطبة السلطان سنجر، أوّل ذي القعدة، وخطبوا له؛ فلمّا ترك الخطيب ذكر السلطان سنجر وذكر خوارزم شاه صاح النّاس وثاروا، وكادت الفتنة تثور والشرّ يعود جديداً، وإنّما منع النّاس من ذلك ذوو الرأي والعقل نظراً في العاقبة، فقُطعت إلى أوّل المحرّم سنة سبع وثلاثين [وخمسمائة] ثم أعيدت خطبة السلطان سنجر.

ثمّ سيّر خوارزم شاه جيشاً إلى أعمال بيهق، فأقاموا بها يقاتلون أهلها خمسة أيّام، ثم سار عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد، وعملوا بخراسان أعمالاً عظيمة، ومنع السلطان سنجر من مقاتلة أتسز خوارزم شاه خوفاً من قوّة الخطا بما وراء النهر، ومجاورتهم خوارزم وغيرها من بلاد خراسان.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ملك أتابك زنكي بن آقسنقر مدينة الحديثة، ونقل مَن كان بها من آل مهراش إلى الموصل، ورتّب أصحابه فيها.

وفيها خُطب لزنكي أيضاً بمدينة آمد، وصار صاحبها في طاعته، وكان قبل ذلك موافقاً لداود على قتال زنكي، فلمّا رأى قوّة زنكي صار معه. (٨٩/١١)

وفيها عُزل مجاهد الدين بهروز عن شحنكيّة بغداد، ووليها قزل أمير آخرُ وهو من مماليك السلطان محمود، وكان له بروجرد والبصرة، فأضيف إليه شحنكيّة بغداد، ثمّ وصل السلطان مسعود إلى بغداد، فرأى من تبسّط العيّارين وفسادهم ما ساءه، فأعاد بهروز إلى الشحنكيّة، فتاب كثير منهم، ولم ينتفع النّاس بذلك، لأنّ ولد الوزير وأخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيّارين، فلم يقدر بهروز على منعهم.

وفيها تولّى عبد الرحمن طغايرك حجبة السلطان واستولى على المملكة وعزل الأمير تتر الطغرليّ عنها، وآل أمره إلى أن يمشي في ركاب عبد الرحمن.

وفيها توفّي إبراهيم السهاويّ مقدّم الإسماعيليّة، فأحرقه ولد عبّاس صاحب الرَّيّ في تابوته.

وفيها حجّ كمال الدين بن طلحة صاحب المخزن، وعاد وقد لبس ثياب الصوفيّة، وتخلّى عن جميع ما كان فيه، وأقام في داره مرعيّ الجانب محروس القاعدة.

وفيها وصل السلطان إلى بغداد وكان الوزير الزينبيّ بدار السلطان، كما ذكرناه، فسأل السلطان أن يشفع فيه ليردّه الخليفة إلى داره، فأرسل السلطان وزيره إلى دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبيّ، وشفع في أن يعود إلى داره فأُذن له في ذلك، وأُعيد أخوه إلى نقابة النقباء، فلزم الوزير داره، ولم يخرج منها إلاّ إلى الجامع. (٩٠/١١)

وفيها أغار عسكر أتابك زنكي من حلب على بلاد الفرنج، فنهبوا وأحرقوا وظفروا بسريّة الفرنج، فقتلوا فيهم وأكثروا، فكان عدّة القتلى سبع مائة رجل.

وفيها أفسد بنو خفاجة بالعراق، فسيّر السلطان مسعود سريّة إليهم من العسكر، فنهبوا حِلّتهم، وقتلوا مَن ظفروا به منهم وعادوا سالمين.

وفيها سيّر رجّار الفرنجيّ صاحب صقلّية أسطولاً إلى أطراف إفريقية، فأخذوا مراكب سُيّرت من مصر إلى الحسن صاحب إفريقية، وغدر بالحسن، ثمّ راسله الحسن، وجدّد الهدنة لأجل حمل الغلات من صقلّية إلى إفريقية لأنّ الغلاء كان فيها شديداً والموت كثيراً.

وفيها توفّي أبو القاسم عبد الوهّاب بن عبد الواحد الحنبليّ الدمشقيّ، وكان عالماً صالحاً.

وفيها توفّي ضياء الدين أبو سعيد بن الكفرتوثيّ وزير أتابك زنكي، وكان حسن السيرة في وزارته كريماً رئيساً.

وفيها توفّي أبو محمّد بن طاووس إمام الجامع بدمشق في المحرّم، وكان رجلاً صالحاً فاضلاً.

وفيها توفّي أبو القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعث المعروف بابن السمرقنديّ، وُلد بدمشق سنة أربع

وخمسين وأربعمائة، وكان مُكثراً من الحديث. (٩١/١١)

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

ذكر مُلك أتابك زنكي قلعة أشب وغيرها من الهكّاريّة

في هذه السنة أرسل أتابك زنكي جيشاً إلى قلعة أشب، وكانت أعظم حصون الأكراد الهكّاريّة وأمنعها، وبها أموالهم وأهلهم، فحصروها وضيّقوا على مَن بها فملكوها، فأمر بإخراجها وبناء القلعة المعروفة بالعماديّة عوضاً عنها.

وكانت هذه العماديّة حصناً عظيماً من حصونهم، فخرّبوه لكبره لأنّه كبير جدّاً، وكانوا يعجزون عن حفظه، فخُرّبت الآن أشب وعمرت العماديّة، وإنّما سُمّيت العماديّة نسبة إلى لقبه؛ وكان نصير الدين جقر نائبه بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبليّة.

ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب

وفي هذه السنة سارت مراكب الفرنج من صقلّية إلى طرابلس الغرب فحصروها؛ وسبب ذلك أنّ أهلها في أيّام الأمير الحسن، صاحب إفريقية، لم يدخلوا يداً في طاعته، ولم يزالوا مخالفين مشاقّين له، قد قدّموا عليهم من بني مطروح مشايخ يدبّرون أمرهم، فلمّا رآهم ملك صقلية كذلك جهّز إليهم جيشاً في البحر، فوصلوا إليهم تاسع ذي الحجّة، فنازلوا البلد وقاتلوه، (٩٢/١١) وعلّقوا الكلاليب في سوره ونقبوه.

فلمّا كان الغد وصل جماعة من العرب نجدةً لأهل البلد، فقوي أهل طرابلس بهم، فخرجوا إلى الأسطوليّة، فحملوا عليهم حملة منكرة، فانهزموا هزيمة فاحشة، وقُتل منهم خلق كثير، ولحق الباقون بالأسطول، وتركوا الأسلحة والأثقال والدوابّ، فنهبها العرب وأهل البلد. ورجع الفرنج إلى صقلية، فجدّدوا أسلحتهم وعادوا إلى المغرب، فوصلوا إلى جيجل، فلمّا رآهم أهل البلد هربوا منه إلى البراري والجبال، فدخلها الفرنج وسبوا مَن أدركوا فيها وهدموها، وأحرقوا القصر الذي بناه يحيَى بن العزيز بن حمّاد للنزهة ثمّ عادوا.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة خرج حسن أمير الأمراء على السلطان سنجر بخراسان.

وفيها توفّي محمّد بن دانشمند صاحب ملطية والثغر، واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلج [أرسلان] صاحب قونية وهو من السلجوقيّة.

وفيها خرج من الروم عسكر كثير إلى الشام، فحصروا الفرنج بأنطاكية، فخرج صاحبها واجتمع بملك الروم وأصلح حاله معه، وعاد إلى مدينة أنطاكية ومات في رمضان من هذه السنة؛ ثمّ إنّ ملك الروم بعد أن صالح صاحب أنطاكية سار إلى طرابلس فحصرها ثمّ سار عنها.

وفيها قبض السلطان مسعود على الأمير ترشك وهو من خواصّ الخليفة وممّن ربي عنده وفي داره، فساء ذلك الخليفة، ثمّ أطلقه السلطان حفظاً لقلب الخليفة.

وفيها كان بمصر وباء عظيم فهلك فيه أكثر أهل البلاد. (٩٣/١١)

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

ذكر صلح الشهيد والسلطان مسعود

في هذه السنة وصل السلطان مسعود إلى بغداد على عادته في كلّ سنة، وجمع العساكر، وتجهّز لقصد أتابك زنكي، وكان حقد عليه حقداً شديداً.

وسبب ذلك أنّ أصحاب الأطراف الخارجين على السلطان مسعود كانوا يخرجون عليه على ما تقدّم ذكره، فكان ينسب ذلك إلى أتابك زنكي ويقول إنّه هو الذي سعى فيه وأشار به لعلمه أنّهم كلّهم كانوا يصدرون عن رأيه؛ فكان أتابك زنكي لا شكّ يفعل ذلك لئلاّ يخلو السلطان فيتمكّن منه ومن غيره؛ فلمّا تفرّغ السلطان هذه السنة، جمع العساكر يسير إلى بلاده، فسيّر أتابك يستعطفه ويستميله، فأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد، فاستقرّت القاعدة على مائة ألف دينار يحملها إلى السلطان ليعود عنه، فحمل عشرين ألف دينار أكثرها عروض؛ ثمّ تنقّلت الأحوال بالسلطان إلى أن احتاج إلى مُداراة أتابك وأطلق له الباقي استمالة له وحفظاً لقلبه، وكان أعظم الأسباب في قُعود السلطان عنه مايعلمه من حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله.

ومن جيّد الرأي ما فعله الشهيد في هذه الحادثة، فإنّه كان ولده الأكبر (٩٤/١١) سيف الدين غازي لا يزال عند السلطان سفراً وحضراً بأمر والده، فأرسل إليه الآن يأمره بالهرب من عند السلطان إلى الموصل، فأرسل إلى نائبه بها نصير الدين جقر يقول له ليمنعه عن الدخول والوصول إليه، فهرب غازي ،وبلغ الخبر والده، فأرسل إليه يأمره بالعود إلى السلطان، ولم يجتمع به، وأرسل معه رسولاً إلى السلطان يقول له: إنّ ولدي هرب خوفاً من السلطان لما رأى تغيّره عليّ، وقد أعدتُه إلى الخدمة، ولم أجتمع به، فإنّه مملوكك، والبلاد لك؛ فحلّ ذلك من السلطان محلاً عظيماً.

ذكر مُلك أتابك بعض ديار بكر

وفي هذه السنة سار أتابك زنكي إلى ديار بكر ففتح منها عدّة بلاد وحصون، فمن ذلك: مدينة طنزة، ومدينة أسعرد، ومدينة حيزان، وحصن الروق، وحصن قطليس، وحصن ناتاسا، وحصن ذي القرنين، وغير ذلك ممّا لم يبلغ شهرة هذه الأماكن، وأخذ أيضاً من بلد ماردين ممّا هو بيد الفرنج حملين، والموزر، وتل موزن وغيرها من حصون جوسلين، ورتّب أمور الجميع وجعل فيها من الأجناد مَن يحفظها، وقصد مدينة آمِد وحَاني فحصرهما، وأقام بتلك الناحية مصلحاً لما فتحه، ومحاصراً لما لم يفتحه. (٩٥/١١)

ذكر أمر العيّارين ببغداد

وفي هذه السنة زاد أمر العيّارين وكثروا لأمنهم من الطلب بسبب ابن الوزير وابن قاورت أخي زوجة السلطان، لأنّهما كان لهما نصيب في الذي يأخذه العيّارون.

وكان النائب في شحنكيّة بغداد يومئذ مملوك اسمه إيلدكز، وكان صارماً، مقداماً، ظالماً، فحمله الإقدام إلى أن حضر عند السلطان، فقال له السلطان: إنّ السياسة قاصرة، والنّاس قد هلكوا. فقال: يا سلطان العالم إذا كان عقيد العيّارين ولد وزيرك وأخا امرأتك فأيّ قدرة لي على المفسدين؟ وشرح له الحال، فقال له: الساعة تخرج وتكبس عليهما أين كانا، وتصلبهما، فإن فعلتَ وإلاّ صلبتُك؛ فأخذ خاتمه وخرج فكبس على ابن الوزير فلم يجده، فأخذ مَن كان عنده، وكبس على ابن قاورت فأخذه وصلبه، فأصبح النّاس وهرب ابن الوزير وشاع في النّاس الأمر ورُئي ابن قاورت مصلوباً، فهرب أكثر العيّارين وقبض على مَن أقام وكفى النّاس شرّهم.

ذكر حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه

قد ذكرنا سنة اثنتين وثلاثين [وخمسمائة] مسير سنجر إلى خوارزم ومُلكه لها، وعود أتسز خوارزم شاه إليها وأخذها، وما كان منه بخُراسان بعد ذلك؛ فلمّا كان في هذه السنة سار السلطان سنجَر إلى خُوارزم، فجمع (٩٦/١١) خوارزم شاه عساكره، وتحصّن بالمدينة، ولم يخرج منها لقتال، لعلمه أنّه لا يقوى لسنجر.

وكان القتال يجري بين الفريقين من وراء السور، فاتّفق [في] يوم من بعض الأيّام [أن] هجم أمير من أمراء سَنْجَر اسمه سُنْقُر على البلد من الجانب الشرقيّ ودخله، ودخل أمير آخر اسمه مثقال التاجيّ من الجانب الغربيّ، فلم يبقَ غير مُلكه قهراً وعنوةً، وانصرف مثقال عن البلد حسداً لسُنقُر، فقوي عليه خوارزم شاه أتسز، فأخرجه من البلد، وبقي سُنقُر وحده، واشتدّ في حفظه، فلمّا رأى السلطان قوّة البلد وامتناعه عزم على العود إلى مَرْوَ، ولم يمكنه من غير قاعدة تستقرّ بينهما، فاتّفق أن خوارزم شاه أرسل رسلاً يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود إلى ما كان عليه من الانقياد، فأجابه إلى ذلك واصطلحا، وعاد سَنْجَر إلى مرو وأقام خوارزم شاه بخُوارزم.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة سيّر أتابك زنكي عسكراً إلى مدينة عانة من أعمال الفُرات فملكوها.

وفيها، في المحرّم، توفّي أبو البركات عبد الوهّاب بن المبارك بن أحمد الأنباطيّ، الحافظ ببغداد، ومولده سنة اثنتين وستّين وأربعمائة.

وفيها توفّي أبو الفتوح محمّد بن الفضل بن محمّد الأسفراييني الواعظ، من أهل أسفرايين من خراسان، وأقام مدّة ببغداد يعظ، وسار إلى خراسان، فمات ببسطام، وكان إماماً فاضلاً صالحاً، وكان بينه وبين عليّ الغزنويّ تحاسد، (٩٧/١١) فلمّا مات حضر الغزنويُّ عزاءه ببغداد وبكى وأكثر، فقال بعض أصحاب أبي الفتوح للغزنوي كلاماً أغلظ له فيه، فلمّا قام الغزنويُّ لامَهُ بعض تلامذته على حضور العزاء وكثرة البكاء وقال له: كنتَ مهاجراً لهذا الرجل، فلمّا مات حضرتَ عزاءه وأكثرتَ البكاء وأظهرتَ الحزن؟ قال: كنتُ أبكي على نفسي، كان يقال فلان وفلان، فمَن يعدم النظير أيقن بالرحيل؛ وأنشد هذه الأبيات :

ذهبَ المُبَرِّدُ وانقضَتْ أيّامُهُ ... وسيَقضي بعدَ المبرّدِ ثَعلَبُ
بَيتٌ مِنَ الأدابِ أصبحَ نصفُهُ ... خَرِباً وباقٍ نصفُهُ فسَيخرَبُ
فتَزَوّدوا مِنْ ثَعلَبٍ فبمثلِ ما ... شربَ المُبَرِّدُ عَن قَليلٍ يَشرَبُ
أوصيكمُ أنْ تكتبوا أنفاسَهُ ... إن كانَت الأنفاسُ ممّا يُكتَبُ

وفيها توفّي الوزير شرف الدين عليُّ بن طراد الزينبيّ، في رمضان، معزولاً، ودُفن بداره بباب الأزج، ثمّ نُقل إلى الحريبّة.

وفيها توفّي أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري النحوي المفسّر، وزمخشر إحدى قرى خوارزم. (٩٨/١١)

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

ذكر فتح الرُّها وغيرهما من بلاد الجزيرة ممّا كان بيد الفرنج

في هذه السنة، سادس جمادى الآخرة، فتح أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر مدينة الرُّها من الفرنج، وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضاً، وكان ضررهم قد عمّ بلاد الجزيرة وشرّهم قد استطار فيها، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها، وبلغت آمد ونَصيبين ورأس عين والرَّقة.

وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات مثل الرُّها، وسَروج، والبيرة، وسنّ ابن عُطَيْر، وتحملين، والموزر، والقراديّ وغير ذلك. وكانت هذه الأعمال مع غيرها ممّا هو غرب الفرات لجوسلين، وكان صاحب رأي الفرنج والمقدّم على عساكرهم، لما هو عليه من الشجاعة والمكر.

وكان أتابك يعلم أنّه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج مَن يمنعها، فيتعذّر عليه مُلكها لما هي عليه من الحصانة، فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنجَ أنّه غير متفرّغ لقصد بلادهم، فلمّا رأوا أنّه غير قادر على ترك الملوك الأُرتقيّة وغيرهم من ملوك ديار بكر، حيث أنّه محارب لهم، اطمأنّوا، وفارق جوسلين الرُّها وعبر الفرات إلى بلاد الغربيّة، فجاءت عيون أتابك إليه فأخبرته (٩٩/١١) فنادى في العسكر بالرحيل وأن لا يتخلّف عن الرُّها أحد من غد يومه، وجمع الأمراء عنده، وقال: قدّموا الطعام؛ وقال: لا يأكل معي على مائدتي هذه إلاّ من يطعن غداً معي على باب الرُّها؛ فلم يتقدّم إليه غير أمير واحد وصبيّ لا يُعرف، لما يعلمون من إقدامه وشجاعته، وأنّ أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبيّ: ما أنت في هذا المقام؟ فقال أتابك: دعه فوالله إنّي أرى وجهاً لا يتخلّف عني.

وسار والعساكر معه، ووصل إلى الرُّها، وكان هو أوّل مَن حمل على الفرنج ومعه ذلك الصبيّ، وحمل فارس من خيّالة الفرنج على أتابك عرضاً، فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله، وسلم الشهيد، ونازل البلد، وقاتله ثمانية وعشرين يوماً، فزحف إليه عدّة دفعات، وقدّم النقّابين فنقبوا سور البلد، ولجّ في قتاله خوفاً من اجتماع الفرنج والمسير إليه واستنقاذ البلد منه، فسقطت البدنة التي نقبها النقّابون [وأخذ] البلد عنوةً وقهراً، وحصر قلعته فملكها أيضاً، ونهب النّاس الأموال وسبوا الذريّة وقتلوا الرجال.

فلمّا رأى أتابك البلد أعجبه، ورأى أنّ تخريب مثله لا يجوز في السياسة، فأمر فنودي في العساكر بردّ من أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردّوا الجميع عن آخره لم يفقد منهم أحد إلاّ الشاذّ النادر الذي أُخذ وفارق مَن أخذه العسكر، فعاد البلد إلى حاله الأوّل، وجعل فيه عسكراً يحفظه، وتسلّم مدينة سَروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة فإنّها حصينة منيعة وعَلى شاطىء الفرات، فسار إليها وحصرها، وكانوا قد أكثروا ميرتها ورجالها، (١٠٠/١١) فبقي على حصارها إلى أن رحل عنها، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

حُكي أنّ بعض العلماء بالأنساب والتواريخ قال: كان صاحب جزيرة صقلّية قد أرسل سريّة في البحر إلى طرابلس الغرب وتلك الأعمال، فنهبوا وقتلوا، وكان بصقلية إنسان من العلماء المسلمين، وهو من أهل الصلاح، وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه، ويرجع إلى قوله، ويقدّمه على مَن عنده من القسوس والرهبان، وكان أهل ولايته يقولون إنّه مُسلم بهذا السبب.

ففي بعض الأيّام كان جالساً في منظرة له تشرف على البحر وإذ قد أقبل موكب لطيف، وأخبره مَن فيه أنّ عسكره دخلوا بلاد الإسلام، وغنموا وقتلوا وظفروا؛ وكان المسلم إلى جانبه وقد أغفى، فقال له الملك: يا فلان! أمَا تسمع ما يقولون؟ قال: لا! قال: إنّهم يخبرون بكذا وكذا. أين كان محمّد عن تلك البلاد وأهلها؟ فقال له: كان قد غلب عنهم، وشهد فتح الرُّها، وقد فتحها المسلمون الآن. فضحك منه مَن هناك من الفرنج، فقال الملك: لا تضحكوا، فوالله ما يقول إلاّ الحقّ، فبعد أيّام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها.

وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح أنّ إنساناً صالحاً رأى الشهيد في منامه فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بفتح الرُّها.

ذكر قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين عليّ كوجك قلعة الموصل

في هذه السنة، في ذي القعدة، قُتل نصير الدين جقر نائب أتابك زنكي بالموصل والأعمال جميعها التي شرق الفرات. (١٠١/١١)

وسبب قتله أنّ الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، ولد السلطان محمود، كان عند أتابك الشهيد، وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أنّ هذه البلاد لهذا الملك، وأنا نائبه فيها، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليخطب له بالسلطنة، ويملك البلاد باسمه، وكان هذا الملك بالموصل، هذه السنة، ونصير الدين يقصده كلّ يوم ليقوم بخدمة إن عرضت له، فحسّن له بعض المفسدين طلب المُلك، وقال له: إن قتلتَ نصير الدين ملكتَ الموصل وغيرها من البلاد، ولا يبقى مع أتابك زنكي فارسٌ واحدٌ. فوقع هذا منه موقعاً حسناً وظنّه صدقاً، فلمّا دخل نصير الدين إليه وثب عليه مَن عنده من أجناد أتابك ومماليكه فقتلوه، وألقوا برأسه إلى أصحابه ظنّاً منهم أنّ أصحابه يتفرّقون ويخرج الملك ويملك البلد.

وكان الأمر خلاف ما ظنّوه، فإنّ أصحابه وأصحاب أتابك الذين في خدمته لما رأوا رأسه قاتلوا مَن بالدار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة أتابك مملوءة بالرجال والأجلاد ذوي الرأي والتجربة، ثمّ دخل إليه القاضي تاج الدين يحيَى بن الشهرزوريّ ولم يزل به يخدعه، وكان فيما قال له حين رآه

منزعجاً: يا مولانا لِمَ تحرد من هذا الكلب؟ هذا وأستاذُه مماليكك، والحمد لله الذي أراحنا منه ومن صاحبه على يدك، وما الذي يُقعدك في هذه الدار؟ قُم لتصعد القلعة وتأخذ الأموال والسلاح وتملك البلد وتجمع الجند، وليس دون البلاد بعد الموصل مانعٌ.

فقام معه وركب القلعة، فلمّا قاربها أراد مَن بها من النقيب والأجناد القتال، فتقدّم إليهم تاج الدين وقال لهم: افتحوا الباب وتسلّموا، وافعلوا به ما أردتم، ففتحوا الباب ودخل الملك والقاضي إليها ومعهما مَن أعان على قتل نصير الدين، فسُجنوا ونزل القاضي. (١٠٢/١١)

وبلغ الخبر أتابك زنكي وهو يحاصر قلعة البيرة، وقد أشرف على مُلكها، فخاف أن تختلف البلاد الشرقيّة بعد قتل نصير الدين، ففارق البيرة وأرسل زين الدين عليّ بن بُكْتُكِين إلى قلعة الموصل والياً على ما كان نصير الدين يتولاّه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره البروجرديّ، ووزر بعده المرزُبان ابن عبيد الله بن نصر الأصفهانيّ، وسلّم إليه البروجرديّ، فاستخرج أمواله، ومات مقبوضاً.

وفيها كان أتابك عماد الدين زنكي يحاصر البيرة، وهي للفرنج شرقيّ الفرات بعد مُلك الرُها، وهي من أمنع الحصون، وضيّق عليها وقارب أن يفتحها، فجاءه خبر قتل نَصير الدين نائبه بالمَوصِل، فرحل عنها، وأرسل نائباً إلى الموصل، وأقام ينتظر الخبر، فخاف مَن بالبيرة من الفرنج أن يعود إليهم، وكانوا يخافونه خوفاً شديداً، فأرسلوا إلى نجم الدين صاحب ماردين وسلّموها له، فملكها المسلمون.

وفيها خرج أسطول الفرنج من صِقِلّية إلى ساحل إفريقية والغرب، ففتحوا مدينة برشك، وقتلوا أهلها، وسبوا حريمهم وباعوه بصِقلّية على المسلمين.

وفيها توفّي تاشفين بن عليّ بن يوسف صاحب الغرب، وكانت ولايته تزيد على أربع سنين، ووليَ بعده أخوه، وضَعُف أمر الملثّمين، وقوي عبد المؤمن، وقد ذكرنا ذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة. (١٠٣/١١)

وفيها في شوّال، ظهر كوكب عظيم له ذنب من جانب المشرق، وبقي إلى نصف ذي القعدة، ثمّ غاب، ثمّ طلع من جانب الغرب، فقيل هو هو وقيل بل غيره.

وفيها كانت فتنة عظيمة بين الأمير هاشم بن فليتة بن القاسم العلويّ الحسينيّ أمير مكّة، والأمير نظر الخادم أمير الحاجّ، فنهب أصحاب هاشم الحجّاج وهم في المسجد يطوفون ويصلّون، ولم يرقبوا فيهم إلاّ ولا ذمّة.

وفيها، في ذي الحجّة، توفّي عبد الله بن أحمد بن محمّد بن عبد الله بن حمدويه أبو المعالي المَرْوَزيُّ بمَرْوَ، وسافر الكثير، وسمع الحديث الكثير، وبنى بمرو رباطاً، ووقف فيه كتباً كثيرة، وكان كثير الصدقة والعبادة.

وتوفّي محمّد بن عبد الملك بن حسن بن إبراهيم بن خَيرون أبو منصور المُقْري، ومولده في رجب سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وهو آخر مَنْ روى عن الجوهري بالإجازة، وتوفّي في رجب.

وفي ذي الحجّة منها توفّي أبو منصور سعيد بن محمّد بن عمر المعروف بابن الرزّاز، مدرّس النظاميّة ببغداد، ومولده سنة اثنتين وستّين وأربعمائة، وتفقّه على الغزاليّ والشاميّ، ودُفن في تربة الشيخ أبي إسحاق. (١٠٤/١١)

سنة أربعين وخمسمائة

ذكر اتّفاق بوزابة وعبّاس على منازعة السلطان

في هذه السنة سار بوزابة، صاحب فارس وخُوزِستان، وعساكره إلى قَاشَانْ، ومعه الملك محمّد [ابن السلطان محمود، واتّصل بهم الملك سليمان شاه] ابن السلطان محمّد، واجتمع بوزابة والأمير عبّاس صاحب الرَّيّ، واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان مسعود وملكا كثيراً من بلاده.

ووصل الخبر إليه وهو ببغداد ومعه الأمير عبد الرحمن طغايُرك، وهو أمير حاجب، حاكم في الدولة، وكان ميله إليهما، فسار السلطان في رمضان عن بغداد، ونزل بها الأمير مُهَلهِل، ونَظَر، وجماعة من غِلمان بَهْرُوز، وسار السلطان وعبد الرحمن معه، فتقارب العسكران، ولم يبقَ إلاّ المصافّ، فلحق سليمان شاه بأخيه مسعود، وشرع عبد الرحمن في تقرير الصلح على القاعدة التي أرادوها، وأضيف إلى عبد الرحمن ولاية أذْرَبيجان وأرّانيّة إلى ما بيده، وصار أبو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود، وهو وزير بوزابة، فصار السلطان معهم تحت الحجر، وأبعدوا بك أرسلان بن بلنكري المعروف بخاصّ بك، وهو ملازم السلطان وتربيته، وصار في خدمة عبد الرحمن ليحقن دمه، وصار الجماعة في خدمة السلطان صورة لا معنى تحتها، والله أعلم. (١٠٥/١١)

ذكر استيلاء عليّ بن دُبيس بن صدقة على الحِلّة

في هذه السنة سار عليُّ بن دُبيس إلى الحِلّة هارباً، فملكها؛ وكان سبب ذلك أنّ السلطان لما أراد الرحيل من بغداد أشار عليه

مهلهل أن يحبس عليّ بن دُبيس بقلعة تكريت، فعلم ذلك، فهرب في جماعة يسيرة نحو خمسة عشر، فمضى إلى الأزيز، وجمع بني أسد وغيرهم، وسار إلى الحِلّة وبها أخوه محمّد بن دُبيس، فقاتله، فانهزم محمّد، وملك عليّ الحِلّة.

واستهان السلطان أمره أوّلاً، فاستفحل وضمّ إليه جمعاً من غلمانه وغلمان أبيه وأهل بيته وعساكرهم، وكثُر جمعهم، فسار إليه مهلهل فيمن معه في بغداد من العسكر، وضربوا معه مصافّاً، فكسرهم وعادوا منهزمين إلى بغداد.

وكان أهلها يتعصّبون لعليّ بن دُبيس، وكانوا يصيحون، إذا ركب مهلهل وبعض أصحابه: يا عليّ! كُلُّهُ. وكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب.

ومدّ عليّ يده في أقطاع الأمراء بالحِلّة، وتصرّف فيها، وصار شِحنة بغداد ومَن فيها على وجل منه، وجمع الخليفة جماعة وجعلهم على السور لحفظه، وراسل عليّاً، فأعاد الجواب بأنّني العبد المطيع مهما رسم لي فعلتُ؛ فسكن النّاس، ووصلت الأخبار بعد ذلك أنّ السلطان مسعوداً تفرّق خصومه عنه، فازداد سكون النّاس. (١٠٦/١١)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة حجّ بالنّاس قايماز الأرجوانيُّ صاحب أمير الحاجّ نظر، واحتجّ نظر بأنّ بركَةُ نُهب في كسرة الحِلّة، وأنّ بينه وبين أمير مكّة من الحروب ما لا يمكنه معه الحجّ.

وفيها اتّصل بالخليفة عن أخيه أبي طالب ما كرهه، فضيّق عليه، واحتاط على غيره من أقاربه.

وفيها ملك الفرنج، لعنهم اللّه، مدينة شنترين، وباجة، وماردة، وأشبونة، وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الأندلس، وكانت للمسلمين، فاختلفوا، فطمع العدوّ، وأخذ هذه المدن وقوي بها قوّة تمكّن معها وتيقّن مُلك سائر البلاد الإسلاميّة بالأندلس، فخيّب اللّه ظنّه وكان ما نذكره.

وفيها سار أسطول الفرنج من صقلّية، ففتحوا جزيرة قرقنة من إفريقية، فقتلوا رجالها، وسبوا حريمهم، فأرسل الحسن صاحب إفريقية إلى رجّار ملك صقلّية يذكره العهود التي بينهم، فاعتذر بأنّهم غير مطيعين له.

وفي هذه السنة توفّي مجاهد الدين بهروز الغياثيّ، وكان حاكماً بالعراق نيّفاً وثلاثين سنة؛ ويرنقش الزكوي، صاحب أصفهان، وكان أيضاً شحنة بالعراق، وهو خادم أرمني لبعض التجّار.

وتوفّي الأمير إيلدكز شحنة بغداد، والشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن الخضر الجواليقي اللغويّ، ومولده في ذي الحجّة سنة خمس وستّين (١٠٧/١١) وأربعمائة، وأخذ اللغة عن أبي زكريّا التبريزي، وكان يؤمّ بالمقتفي أمير المؤمنين.

وتوفّي أحمد بن محمّد بن الحسن بن عليّ بن أحمد بن سليمان أبو سعيد ابن أبي الفضل الأصفهاني، ومولده سنة ثلاث وستّين وأربعمائة، وروى الحديث الكثير، وكان على سيرة السلف، كثير الاتّباع للسُّنّة، رحمة اللّه عليه. (١٠٨/١١)

سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

ذكر مُلك الفرنج طرابلس الغرب

في هذه السنة ملك الفرنج، لعنهم اللّه، طرابلس الغرب، وسبب ذلك أنّ رجّار ملك صقلّية جهّز أسطولاً كثيراً وسيّره إلى طرابلس، فأحاطوا بها براً وبحراً، ثالث المحرّم، فخرج إليهم أهلها وأنشبوا القتال، فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيّام.

فلمّا كان اليوم الثالث سمع الفرنج بالمدينة ضجّة عظيمة، وخلت الأسوار من المقاتلة، وسبب ذلك أن أهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بأيّام يسيرة قد اختلفوا، فأخرج طائفة منهم بني مطروح، وقدّموا عليهم رجلاً من الملثّمين قدم يريد الحجّ ومعه جماعة، فولّوه أمرهم، فلمّا نازلهم الفرنج أعادت الطائفة الأخرى بني مطروح فوقعت الحرب بين الطائفتين، وخلت الأسوار، فانتهز الفرنج الفرصة ونصبوا السلالم، وصعدوا على السور، واشتدّ القتال فملكت الفرنج المدينة عنوةً بالسيف، فسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم وأموالهم، وهرب مَن قدر على الهرب، والتجأ إلى البربر والعرب، فنودي بالأمان في النّاس كافة، فرجع كلّ مَن فرّ منها.

وأقام الفرنج ستّة أشهر حتى حصّنوا أسوارها وحفروا خندقها، ولما عادوا أخذوا رهائن أهلها، ومعهم بنو مطروح والملثّم، ثمّ أعادوا رهائنهم، (١٠٩/١١) وولّوا عليها رجلاً من بني مطروح، وتركوا رهائنه وحده، واستقامت أمور المدينة وألزم أهل صقلّية والروم بالسفر إليها فانعمرت سريعاً وحسن حالها.

ذكر حصر زنكي حصني جَعْبَر وفَنَك

وفي هذه السنة سار أتابك زنكي إلى حصن جَعْبَر، وهو مطلّ على الفرات، وكان بيد سالم بن مالك العُقَيليّ سلّمه السلطان مَلِكشاه إلى أبيه لما أخذ منه حلب، وقد ذكرناه، فحصره وسيّر جيشاً إلى قلعة فَنَك، وهي تجاوز جزيرة ابن عُمر، بينهما فرسخان، فحصرها أيضاً، وصاحبها حينئذٍ الأمير حسام الدين الكُرديّ

البَشنويّ.

وكان سبب ذلك أنّه كان لا يريد أن يكون في وسط بلاده ما هو ملك غيره، حزماً واحتياطاً، فنازل قلعة جعبر وحصرها، وقاتله مَن بها، فلمّا طال عليه ذاك أرسل إلى صاحبها، مع الأمير حسّان المنبجيّ لمودّة كانت بينهما، في معنى تسليمهما، وقال له: تضمن عني الإقطاع الكثير والمال الجزيل، فإن أجاب إلى التسليم، وإلاّ فقُلْ له: واللّه لأقيمنّ عليك إلى أن أملكها عنوةً، ثمّ لا أبقي عليك، ومَن الذي يمنعك مني؟

فصعد إليه حسّان وأدّى إليه الرسالة، ووعده، وبذل له ما قيل له، فامتنع من التسليم، فقال له حسّان: فهو يقول لك مَن يمنعك مني؟ فقال: يمنعني منه الذي منعك من الأمير بَلْك. فعاد حسّان وأخبر الشهيد بامتناعه، ولم يذكر له هذا، فقُتل أتابك بعد أيّام.

وكانت قصّة حسّان مع بلك ابن أخي إيلغازي أنّ حسّان كان صاحب (١١٠/١١) مَنبج، فحصره بَلْك وضيّق عليه، فبينما هو في بعض الأيّام يقاتله، جاءه سهم لا يُعرف مَن رماه فقتله، وخلص حسّان من الحصر، وقد تقدّم ذكره، وكان هذا القول من الاتّفاق الحسن.

ولما قُتل أتابك زنكي رحل العسكر الذين كانوا يحاصرون قلعة فَنَك عنها، وهي بيد أعقاب صاحبها إلى الآن، وسمعتُهم يذكرون أنّ لهم بها نحو ثلاثمائة سنة، ولهم مقصد، وفيهم وفاء وعصبيّة، يأخذون بيد كلّ مَن يلتجىء إليهم ويقصدهم، ولا يسلّمونه كائناً مَن كان.

ذكر قتل أتابك عماد الدين زنكي وشيء من سيرته

في هذه السنة، لخمس مضين من ربيع الآخر، قُتل أتابك الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر، صاحب المَوصِل والشام، وهو يحاصر قلعة جَعْبَر، على ما ذكرناه، قتله جماعة من مماليكه ليلاً غيلةً، وهربوا إلى قلعة جَعْبَر، فصاح مَن بها من أهلها إلى العسكر يعلمونهم بقتله، وأظهروا الفرح، فدخل أصحابه إليه، فأدركوه وبه رمق.

حدّثني والدي عن بعض خواصّه قال: دخلتُ إليه في الحال وهو حيّ، فحين رآني ظنّ أنّي أريد قتله، فأشار إليّ بإصبعه السبّابة يستعطفني، فوقعتُ من هيبته، فقلتُ: يا مولاي مَن فعل بك هذا؟ فلم يقدر على الكلام، وفاضت نفسه لوقته، رحمه اللّه.

قال: وكان حسن الصورة، أسمر اللّون، مليح العينين، قد وخطه (١١١/١١) الشيب، وكان قد زاد عمره على ستّين سنة، لأنّه كان لما قُتل والده صغيراً، كما ذكرناه قبلُ، ولما قُتل دُفن بالرُّقّة.

وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيّته، عظيم السياسة، لا يقدر القوي على ظلم الضعيف؛ وكانت البلاد، قبل أن يملكها خراباً من الظلم، وتنقُّل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمرها وامتلأت أهلاً وسكّاناً.

حكى لي والدي قال: رأيتُ المَوصل وأكثرها خراب، بحيث يقف الإنسان قريب محلّة الطبالين ويرى الجامع العتيق، والعرصة، ودار السلطان، ليس بين ذلك عمارة؛ وكان الإنسان لا يقدر على المشي إلى الجامع العتيق إلاّ ومعه مَن يحميه، لبُعده عن العمارة، وهو الآن في وسط العمارة وليس في هذه البقاع المذكورة كلّها أرض براح، وحدّثني أيضاً أنّه وصل إلى الجزيرة في الشتاء، فدخل الأمير عزّ الدين الدّبيسيّ، وهو من أكابر أمرائه، ومن جملة أقطاعه مدينة دقوقا، ونزل في دار إنسان يهودي، فاستغاث اليهوديّ إلى أتابك، وأنهى حاله إليه، فنظر إلى الدّبيسيّ، فتأخّر، ودخل البلد، وأخرج بركه وخيامه. قال: فلقد رأيتُ غلمانه ينصبون خيامه في الوحل، وقد جعلوا على الأرض تبناً يقيهم الطين، وخرج فنزلها، وكانت سياسته إلى هذا الحدّ.

وكانت المَوصل من أقلّ بلاد اللّه فاكهة، فصارت في أيّامه، وما بعدها، من أكثر البلاد فواكه ورايحين وغير ذلك.

وكان أيضاً شديد الغيرة ولا سيما على نساء الأجناد، وكان يقول: إن (١١٢/١١) لم نحفظ نساء الأجناد بالهيبة، وإلاّ فسدن لكثرة غيبة أزواجهنّ في الأسفار.

وكان أشجع خلق اللّه، أمّا قبل أن يملك فيكفيه أنّه حضر مع الأمير مودود صاحب الموصل مدينة طبريّة، وهي للفرنج، فوصلت طعنته باب البلد وأثر فيه، وحمل أيضاً على قلعة عقر الجميديّة، وهي على جبل عالٍ، فوصلت طعنته إلى سورها، إلى أشياء أُخر.

وأمّا بعد المُلك فقد كان الأعداء محدقين ببلاده، وكلّهم يقصدها، ويريد أخذها، وهو لا يقنع بحفظها، حتى إنّه لا ينقضي عليه عام إلاّ ويفتح من بلادهم. فقد كان الخليفة المسترشد باللّه مجاوره في ناحية تَكْريت، وقصد المَوصل وحصرها، ثمّ إلى جانبه، من ناحية شَهْرَزُور وتلك الناحية، السلطان مسعود، ثمّ ابن سقمان صاحب خِلاط، ثمّ داود بن سقمان صاحب حِصن كِيفا، ثمّ صاحب آمِد وماردين، ثمّ الفرنج من مجاورة ماردين إلى دمشق، ثمّ أصحاب دمشق، فهذه الولايات قد أحاطت بولايته من كلّ جهاتها، فهو يقصد هذا مرّة وهذا مرّة وهذا مرّة، ويأخذ من هذا ويُصانع هذا، إلى أن ملك من كلّ من يليه طرفاً من بلاده وقد أتينا على أخباره في كتاب الباهر في تاريخ دولته ودولة أولاده، فيُطلب من هناك.

ذكر مُلك ولديه سيف الدين غازي ونور الدين محمود

لما قُتل أتابك زنكي أخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده، وكان حاضراً معه، وسار إلى حلب فملكها.

وكان حينئذٍ يتولّى ديوان زنكي، ويحكم في دولته من أصحاب العمائم (١١/١١٣) جمال الدين محمّد بن عليّ وهو المنفرد بالحكم، ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمّد الياغيسيانيّ، فاتّفقا على حفظ الدولة، وكان مع الشهيد أتابك الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود، فركب ذلك اليوم، وأجمعت العساكر عليه، وحضر عنده جمال الدين وصلاح الدين وحسّنا له الاشتغال بالشرب والمغنّيات والجواري، وأدخلاه الرُّقّة، فبقي بها أياماً لا يظهر، ثمّ سار إلى ماكسين، فدخلها، وأقام بها أياماً، وجمال الدين يحلّف الأمراء لسيف الدين غازي بن أتابك زنكي، ويسيّرهم [إلى] الموصل.

ثمّ سار من ماكسين إلى سِنجار، وكان سيف الدين قد وصل إلى الموصل، فلمّا وصلوا إلى سِنجار أرسل جمال الدين إلى الدزدار يقول له ليرسل إلى ولد السلطان يقول له: إنّي مملوكك، ولكنّي تبع الموصل، فمتى ملكتها سلّمتُ إليك سنجار. فسار إلى الموصل، فأخذه جمال الدين وقصد به مدينة بَلْد، وقد بقي معه من العسكر القليل، فأشار عليه بعبور دِجلة، فعبرها إلى الشرق في نفر يسير.

وكان سيف الدين غازي بمدينة شَهْرَزُور، وهي إقطاعه، فأرسل إليه زين الدين عليّ كوجك نائب أبيه بالموصل يستدعيه إلى الموصل، فحضر قبل وصول الملك، فلمّا علم جمال الدين بوصول سيف الدين إلى الموصل أرسل إليه يعرّفه قلّةَ مَن مع الملك، فأرسل إليه بعض عسكره، فقبضوا عليه وحُبس في قلعة المَوصِل، واستقرّ مُلك سيف الدين البلاد، وبقي أخوه نور الدين بحلب وهي له، وسار إليه صلاح الدين الياغسيانيّ يدبّر أمره ويقوم بحفظ دولته، وقد استقصينا شرح هذه الحادثة في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة. (١١/١١٤)

ذكر عصيان الرُّها لمّا قُتل أتابك

كان جُوسلين الفرنجي الذي كان صاحب الرُّها في ولايته، وهي تلّ باشِر وما يجاورها، فراسل أهلَ الرُّها وعامّتهم من الأرمن، وحملهم على العصيان، والامتناع على المسلمين، وتسليم البلد، فأجابوه إلى ذلك، وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه، وسار في عساكره إلى الرُّها، وملك البلد، وامتنعت القلعة عليه بمَن فيها من المسلمين، فقاتلهم، فبلغ الخبر إلى نور الدين محمود بن زنكي، وهو بحلب، فسار مجدّاً إليها في عسكره، فلمّا قاربها خرج جُوسلين هارباً وعائداً إلى بلده، ودخل نور الدين المدينة، ونهبها حينئذٍ، وسبى أهلها.

وفي هذه الدفعة نُهبت وخلت من أهلها، ولم يبقَ بها منهم إلاّ القليل، وكثير من النّاس يظنّ أنّها نُهبت لمّا فتحها الشهيد، وليس كذلك.

وبلغ الخبر إلى سيف الدين غازي بعصيان الرُّها، فسيّر العساكر إليها، فسمعوا بملك نور الدين البلد واستباحته، وهم في الطريق، فعادوا.

ومن أعجب ما يُحكى أنّ زين الدين عليّاً، الذي كان نائب الشهيد وأولاده بقلعة الموصل، جاءه هديّة أرسلها إليه نور الدين من هذا الفتح، وفي الجملة جارية، فلمّا دخل إليها، وخرج من عندها وقد اغتسل، قال لمن عنده: تعلمون ما جرى لي في يومنا هذا؟ قالوا: لا! قال: لما فتحنا الرُّها (١١/١١٥) مع الشهيد وقع في يديّ من النهب جارية رائقة أعجبني حُسنها ومال قلبي إليها، فلم يكن بأسرع من أن أمير الشهيد فنودي بردّ السّبْي والمال المنهوب، وكان مهيباً مخوفاً، فرددتُها وقلبي متعلّق بها، فلمّا كان الآن جاءتني هديّة نور الدين وفيها عدّة جوارٍ منهنّ تلك الجارية فوطئتُها خوفاً أن يقع ردّ تلك الدفعة.

ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الأندلس

في هذه السنة سيّر عبد المؤمن جيشاً إلى جزيرة الأندلس، فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام.

وسبب ذلك أنّ عبد المؤمن لما كان يحاصر مَرّاكشَ جاء إليه جماعة من أعيان الأندلس منهم أبو جعفر أحمد بن محمّد بن حمدين، ومعهم مكتوب يتضمّن بَيعة أهل البلاد التي هم فيها لعبد المؤمن، ودخولهم في زمرة أصحابه الموحّدين، وإقامتهم لأمره، فقبل عبد المؤمن ذلك منهم، وشكرهم عليه، وطيّب قلوبهم، وطلبوا منه النصرة على الفرنج، فجهّز جيشاً كثيفاً وسيّره معهم، وعمر أسطولاً وسيّره في البحر، فسار الأسطول إلى الأندلس، وقصدوا مدينة إشبيلية، وصعدوا في نهرها، وبها جيش من المُلَثّمين، فحصروها بَرّاً وبحراً وملكوها عنوةً، وقُتل فيها جماعة وأمن النّاس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد، وكان لعبد المؤمن مَن بها. (١١/١١٦)

ذكر قتل عبد الرحمن طغايرك وعبّاس صاحب الرَّيّ

في هذه السنة قتل السلطانُ مسعود أميرَ حاجب عبد الرحمن طغايرك، وهو صاحب خَلْخال وبعض أذربيجان والحاكمُ في دولة السلطان، وليس للسلطان معه حكم.

وكان سبب قتله أنّ السلطان لما ضيّق عليه عبد الرحمن بقي معه شبه الأسير ليس له في البلاد حكم، حتى إنّ عبد الرحمن قصد

غلاماً كان للسلطان، وهو بك أرسلان، المعروف بخاصّ بك بن بلنكري، وقد ربّاه السلطان وقرّبه فأبعده عنه وصار لا يراه، وكان في [خاصّ] بك عقل وتدبير وجودة قريحة، وتوصُّل لما يريد أن يفعله، فجمع عبد الرحمن العساكر وخاصّ بك فيهم، وقد استقرّ بينه وبين السلطان مسعود أن يقتل عبد الرحمن، فاستدعى خاصّ بك جماعة مَن يثق بهم، وتحدّث معهم في ذلك، فكلّ منهم خاف الإقدام عليه، إلاّ رجلاً اسمه زنكي، وكان جانداراً، فإنّه بذل من نفسه أن يبدأه بالقتل، ووافق خاصّ بك على القيام في الأمر جماعةٌ من الأمراء، فبينما عبد الرحمن في موكبه ضربه زنكي الجاندار بمقرعة حديد كانت في يده على رأسه، فسقط إلى الأرض، فأجهز عليه خاصّ بك، وأعانه على حماية زنكي والقائمين معه مَن كان واطأه على ذلك من الأمراء، وكان قتله بظاهر جَنزة.

وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود وهو ببغداد، ومعه الأمير عبّاس صاحب الرَّيّ، وعسكره أكثر من عسكر السلطان، فأنكر ذلك، وامتعض منه، فداراه السلطان ولطف به، واستدعى الأمير البَقش كُون خَر من اللِّحْف (١١٧/١١) وتَتَر الذي كان حاجباً، فلمّا قوي بهما أحضر عبّاساً إليه في داره، فلمّا دخل إليه مُنع أصحابه من الدخول معه، وعدلوا به إلى حجرة، وقالوا له: اخلع الزّرديّة. فقال: إنّ لي مع السلطان أيماناً وعهوداً، فلكموه، وخرج له غلمان أُعدّوا لذلك، فحينئذٍ تشاهدَ وخلع الزّرديّة وألقاها، وضربوه بالسيوف، واحتزّوا رأسه وألقوه إلى أصحابه، ثمّ ألقوا جسده، ونُهب رحله وخيمه وانزعج البلد لذلك.

وكان عبّاس من غلمان السلطان محمود، حسن السيرة، عادلاً في رعيّته، كثير الجهاد للباطنيّة، قتل منهم خلقاً كثيراً، وبنى من رؤوسهم منارة بالرّيّ، وحصر قلعةَ ألَموت، ودخل إلى قرية من قراهم فألقى فيها النّار فأحرق كلّ مَن فيها من رجل وامرأة وصبيّ وغير ذلك؛ فلمّا قُتل [دُفن] بالجانب الغربي، ثمّ أرسلت ابنته فحملته إلى الرّيّ فدفنته هناك، وكان مقتله في ذي القعدة.

ومن الاتّفاق العجيب أنّ العباديّ كان يعظ يوماً، فحضره عبّاس، فاسمع بعض أهل المجلس ورمى بنفسه نحو الأمير عبّاس، فضربه أصحابه ومنعوه خوفاً عليه لأنّه كان شديد احتراس من الباطنيّة لا يزال لابساً الزّرديّة لا تفارقه الغلمان الأجلاد، فقال له العباديّ: يا أمير إلامَ هذا الاحتراز! واللّه لئن قُضي عليك بأمر لتحلّنّ أنتَ بيدك أزرار الزّرديّة فينفذ القضاء فيك.

وكان كما قال، وقد كان السلطان استوزر ابن دارست، وزير بوزابة، [كارها على ما تقدّم ذكره، فعزله الآن لأنّه اختار العزل والعود إلى صاحبه بوزابة] فلمّا عزله قرّر معه أن يصلح له بوزابة، ويزيل ما عنده من الاستشعار بسبب قتل عبد الرحمن وعبّاس، فسار الوزير وهو لا يعتقد النجاة، فوصل إلى بوزابة وكان ما نذكره. (١١٨/١١)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة حبَس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه بقلعة تَكْريت.

وفيها توفّي الأمير جاولي الطُّغْرُلي صاحب أرّانيّة وبعض أذْرَبيجان، وكان قد تحرّك للعصيان، وكان موته فجأةً، مدّ قوساً فنزف دماً فمات.

وتوفّي شيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل بن أبي سعد الصوفّي، فمات ببغداد ودُفن بظاهر رباط الزّوزني بباب البصرة، ومولده سنة أربع وستّين وأربعمائة، وقام في منصبه ولده صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم.

وفيها توفّي نقيب النُّقباء محمّد بن طراد الزَّينبيّ أخو شرف الدين الوزير.

وفيها وليَ مسعود بن بلال شحنكيّة بغداد، وسار السلطان عنها.

وفيها كان بالعراق جرادٌ كثيرٌ أمحل أكثر البلاد.

وفيها ورد العباديُّ الواعظ رسولاً من السلطان سَنْجَر إلى الخليفة، ووعظ ببغداد، وكان له قبولٌ بها، وحضر مجلسه السلطان مسعود فمَن دونه، وأمّا العامّة فإنّهم كانوا يتركون أشغالهم لحضور مجلسه والمسابقة إليه.

وفيها بعد قتل الشهيد زنكي بن آقسُنقر قصد صاحب دمشق حصن بعلبكّ وحصرَه وكان به نجم الدين أيّوب بن شاذيّ مستحفظاً لها، فخاف أنّ أولاد زنكي لا يمكنهم إنجاده بالعاجل، فصالحه وسلّم القلعة إليه، وأخذ منه إقطاعاً ومالاً، وملّكه عدّة قُرًى من بلد دمشق، وانتقل أيّوب إلى دمشق فسكنها وأقام بها.

وفي هذه السنة، في ربيع الآخر، توفّي عبد اللّه بن عليّ بن أحمد أبو محمّد المُقري ابن بنت الشيخ أبي منصور، ومولده في شعبان سنة أربع وستّين وأربعمائة، وكان مُقرئاً نحوياً محدّثاً، وله تصانيف في القراءات. (١١٩/١١)

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

ذكر قتل بوزابة

لما اتّصل بالأمير بوزابة قتل عبّاس جمع عساكره من فارس وخُوزِسْتان وسار إلى أصفهان فحصرها، وسيّر عسكراً آخر إلى

هَمَذان، وعسكراً ثالثاً إلى قلعة الماهكي من بلد اللّحف، فأمّا عسكره الذي بالماهكي فإنّه سار إليهم الأمير البقش كون خر فدفعهم عن أعماله وكانت أقطاعه، ثمّ إنّ بوزابة سار عن أصفهان يطلب السلطان مسعوداً، فراسله السلطان في الصلح، فلم يجب إليه، وسار مجدّاً فالتقيا بمرج قراتُكين، وتصافّا، فاقتتل العسكران، فانهزمت ميمنة السلطان مسعود وميسرته، واقتتل القلبان أشدّ قتال وأعظمه، صبر فيه الفريقان، ودامت الحرب بينهما، فسقط بوزابة عن فرسه بسهم أصابه، وقيل بل عثر به الفَرس فأُخذ أسيراً وحُمل إلى السلطان فقتل بين يديه، وانهزم أصحابه لما أُخذ هو أسيراً.

وبلغت هزيمة العسكر السلطانيّ من الميمنة والميسرة إلى همذان، وقُتل بين الفريقين خلقٌ كثير، وكانت هذه الحرب من أعظم الحروب الكائنة بين الأعاجم. (١٢٠/١١)

ذكر طاعة أهل قَابِس للفرنج وغلبة المسلمين عليها

كان صاحب مدينة قَابِس، قبل هذه السنة، إنساناً اسمُه رشيد، فتوفّي وخلّف أولاداً، فعمد مولًى له اسمُه يوسف إلى ولده الصغير، واسمه محمّد، فولاّه الأمر، وأخرج ولده الكبير واسمه معمر، واستولى يوسف على البلد، وحكم على محمّد لصغر سنّه.

وجرى منه أشياء من التعرّض إلى حُرَم سيّده، والعهدة على ناقلة، وكان من جملتهنّ امرأة من بني قُرّة، فأرسلت إلى إخوتها تشكو إليهم ما هي فيه، فجاء إخوتها لأخذها فمنعهم، وقال: هذه حُرمة مولاي؛ ولم يسلّمها، فسار بنو قرّة ومعمر بن رشيد إلى الحسن صاحب إفريقية، وشكوا إليه ما يفعل يوسف، فكاتبه الحسن في ذلك، فلم يجب إليه، وقال: لَئِن لم يكفّ الحسن عني وإلاّ سلّمتُ قابس إلى صاحب صِقِلّية، فجهّز الحسن العسكر إليه، فلمّا سمع يوسف بذلك أرسل إلى رُجّار الفرنجيّ، صاحب صِقِلّية، وبذل له الطاعة، وقال له: أريد منك خِلعة وعهداً بولاية قابس لأكون نائباً عنك كما فعلتَ مع بني مطروح في طرابلس؛ فسيّر إليه رُجّار الخِلعة والعهد، فلبسها وقُرِئ العهد بمجمع من النّاس.

فجدّ حينئذٍ الحسن في تجهيز العسكر إلى قابس، فساروا إليها ونازلوها وحصروها، فثار أهل البلد بيوسف لما اعتمده من طاعة الفرنج، وسلّموا البلد إلى عسكر الحسن، وتحصّن يوسف في القصر، فقاتلوه حتى فتحوه، وأُخذ يوسف أسيراً، فتولّى عذابه معمر بن رشيد وبنو قُرّة، فقطعوا ذكَرَه وجعلوه في فمه وعُذّب بأنواع العذاب.

ووليَ معمر قابس مكان أخيه محمّد، وأخذ بنو قُرّة أختهم، وهرب عيسى أخو يوسف وولد يوسف وقصدوا رجّار، صاحب صِقِلّية، فاستجاروا (١٢١/١١) به وشكوا إليه ما لقوا من الحسن، فغضب لذلك، وكان ما نذكره سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من فتح المهديّة، إن شاء اللّه تعالى.

ذكر حادثة ينبغي أن يحتاط العاقل من مثلها

كان يوسف هذا صاحب قابس قد أرسل رسولاً إلى رجّار بصقِلّية، فاجتمع هو ورسول الحسن صاحب المهديّة عنده، فجرى بين الرسولَين مناظرة، فذكر رسول يوسف الحَسَن وما نال منه، وذمّه، ثمّ إنّهما عادا في وقت واحد، وركبا البحر كلّ واحد منهما في مركبه، فأرسل رسول الحسن رُقعة إلى صاحبه على جَناح طائر يُخبره بما كان من رسول يوسف، فسيّر الحسن جماعة من أصحابه في البحر، فأخذوا رسول يوسف وأحضروه عند الحسن، فسبّه وقال: ملّكتَ الفرنج بلاد الإسلام وطوّلتَ لسانك بذمّي! ثمّ أركبه جمَلاً وعلى رأسه طرطور بجَلاجل وطيفَ به في البلد ونُودي عليه: هذا جزاء مَن سعى أن يملّك الفرنج بلاد المسلمين؛ فلمّا توسّط المَهديّةَ ثار به العامّة فقتلوه بالحجارة.

ذكر مُلك الفرنج المَريّة وغيرها من الأندلس

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، حصر الفرنج مدينة المَريّة من الأندلس، وضيّقوا عليها برّاً وبحراً، فملكوها عنوةً، وأكثروا القتلَ بها والنّهب، (١٢٢/١١) وملكوا أيضاً مدينة بياسة وولاية جَيّان، وكلّها بالأندلس، ثمّ استعادها المسلمون بعد ذلك منهم، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر مُلك نُور الدين محمود بن زنكي عدّة مواضع من بلد الفرنج

في هذه السنة دخل نور الدين محمود بن زنكي، صاحب حلب، بلد الفرنج، ففتح منه مدينة ارتاحَ بالسيف ونهبها وحصن مابولةَ ويُصرفُون وكَفَرلاثا. وكان الفرنج بعد قتل والده زنكي قد طمعوا، وظنّوا أنّهم بعده يسترِدّون ما أخذه، فلمّا رأوا من نور الدين هذا الجدّ في أوّل أمره علموا أنّ ما أمّلوه بعيدٌ.

ذكر أخذ الحِلّة من عليّ بن دُبيس وعوده إليها

في هذه السنة كثر فساد أصحاب عليّ بن دُبيس بالحِلّة وما جاورها، وكثرت الشكاوى منه، فأقطع السلطان مسعود الحِلّة للأمير سَلاركُردَ، فسار إليها من هَمَذانَ ومعه عسكر وانضاف إليه جماعة من عسكر بغداد، وقصدوا الحِلّة، فجمع عليّ عسكره وحشد، والتقى العسكران بمُطيراباذ، فانهزم عليّ، وملك سلاركردُ الحِلّة، واحتاط على أهل عليّ ورجعت العساكر، وأقام هو بالحِلّةفي مماليكه وأصحابه، وسار عليُّ بن دُبيس فلحق بالبَقش كُون خَر، وكان بأقطاعه في اللّحف، متجنّياً على السلطان، فاستنجده، فسار معه إلى واسط، واتّفق هو والطرنطاي، وقصدوا الحِلّة فاستنقذوها من سلاركُرد في ذي الحجّة، وفارقها سلاركرد وعاد إلى بغداد. (١٢٣/١١)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، خُطب للمستنجد باللّه يوسف بن المقتفي لأمر اللّه بولاية العهد.

وفيها وليَ عون الدين يحيَى بن هبيرة كتابة ديوان الزمام ببغداد، ووليَ زعيم الدين يحيَى بن جعفر المخزن.

وفيها، في ربيع الأوّل، مات أبو القاسم طاهر بن سعيد بن أبي سعيد بن أبي الخير الميهنيّ شيخ رباط البسطاميّ ببغداد.

وفي ربيع الآخر توفّيت فاطمة خاتون بنت السلطان محمّد زوجة المقتفي لأمر اللّه.

وفي رجب منها مات أبو الحسن محمّد بن المظفّر بن عليّ بن المُسلمة، ابن رئيس الرؤساء، ومولده سنة أربع وثمانين [وأربعمائة]، وكان قد تصوّف، وجعل داره التي في القصر رباطاً للصوفيّة.

وفيها سار سيف الدين غازي بن زنكي إلى قلعة دارا، فملكها وغيرها من بلد ماردين، ثمّ سار إلى ماردين وحصرها وخرّب بلدها ونهبه.

وكان سبب ذلك أنّ أتابك زنكي لما قُتل تطاول صاحب ماردين وصاحب الحصن إلى ما كان قد فتحه من بلادهما فأخذاه، فلمّا ملك سيف الدين وتمكّن سار إلى ماردين وحصرها، وفعل ببلدها الأفاعيل العظيمة، فلمّا رأى صاحبها، وهو حينئذٍ حسام الدين تِمرتاش، ما يفعل في بلده قال: كنّا نشكو من أتابك الشهيد، وأين أيّامه؟ لقد كانت أعياداً. قد حصرنا غير مرّة، فلم يأخذ هو ولا أحدٌ من عسكره مِخلاة تبن بغير ثمن، ولا تعدّى هو وعسكره حاصل السلطان، وأرى هذا ينهب البلاد ويخرّبها. (١٢٤/١١)

ثمّ راسله وصالحه، وزوّجه ابنتَه، ورحل سيف الدين عنه وعاد إلى الموصل، وجُهّزت ابنة حسام الدين وسُيّرت إليه، فوصلت وهو مريض قد أشفى على الموت، فلم يدخل بها وبقيت عنده إلى أن توفّي ومَلك قطب الدين مودود، فتزوّجها، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

وفيها اشتدّ الغلاء بإفريقية ودامت أيّامه، فإنّ أوّله كان سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وعظم الأمر على أهل البلاد حتى أكل بعضهم بعضاً، وقصد أهل البوادي المدن من الجوع، فأغلقها أهلها دونهم، وتبعه وباء وموتٌ كثير، حتى خلت البلاد. وكان أهل البيت لا يبقى منهم أحد، وسار كثير منهم إلى صِقِلّية في طلب القوت، ولقوا أمراً عظيماً. (١٢٥/١١)

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

ذكر مُلك الفرنج مدينة المَهديّة بإفريقية

قد ذكرنا سنة إحدى وأربعين وخمسمائة مسير أهل يوسف، صاحب قابس، إلى رُجّار، ملك صِقلّية، واستغاثتهم به، فغضب لذلك، وكان بينه وبين الحسن بن عليّ بن يحيَى بن تميم بن المُعزّ بن باديس الصنهاجيّ، صاحب إفريقية، صلح وعهود إلى مدّة سنتين، وعلم أنّه فاته فتح البلاد في هذه الشدة التي أصابتهم، وكانت الشدّة دوام الغلاء في جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة، وكان أشدّ ذلك سنة اثنتين وأربعين، فإنّ النّاس فارقوا البلاد والقُرى، ودخل أكثرهم إلى مدينة صِقلّية، وأكل النّاس بعضهم بعضاً، وكثر الموت في النّاس، فاغتنم رجّار هذه الشدّة، فعمر الأسطول، وأكثر منه، فبلغ نحو مائتين وخمسين شينيّاً مملوءة رجالاً وسلاحاً وقوتاً.

وسار الأسطول عن صِقلية ووصل إلى جزيرة قَوْصَرَة، وهي بين المَهديّة وصِقِلية، فصادفوا بها مركباً وصل من المهديّة، فأخذ أهله وأُحضروا بين يدَي جرجي مقدّم الأسطول، فسألهم عن حال إفريقية، ووجد في المركب قفص حمام، فسألهم هل أرسلوا منها، فحلفوا أنّهم لم يرسلوا منها (١٢٦/١١) شيئاً، فأمر الرجلَ الذي كان الحمام صحبته أن يكتب بخطّه: إنّنا لما وصلنا جزيرة قَوصَرة وجدنا به مراكب من صِقِلية، فسألناهم عن الأسطول المخذول، فذكروا أنّه أقلع إلى جزائر القسطنطينيّة.

وأُطلق الحمام فوصل إلى المهديّة، فسرّ الأمير الحسن والنّاس؛ وأراد جرجي بذلك أن يصل بغتةً، ثمّ سار، وقدّر وصولهم إلى المهديّة وقت السَّحَر ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها، فلو تمّ له ذلك لم يسلم منهم أحدٌ، فقدّر اللّه تعالى أن أرسل عليهم ريحاً هائلة عكستهم، فلم يقدروا على المسير إلاّ بالمقاذيف، فطلع النهار ثاني صفَر في هذه السنة قبل وصولهم، فرآهم النّاس، فلمّا رأى جرجي ذلك وأنّ الخديعة فاتته، أرسل إلى الأمير الحسن يقول: إنّما جئتُ بهذا الأسطول طالباً بثأر محمّد بن رشيد صاحب قابس وردّه إليها، وأمّا أنتَ فبيننا وبينَك عهود وميثاق إلى مدّة، ونُريد منك عسكراً يكون معنا.

فجمع الحسن النّاس من الفقهاء والأعيان وشاورهم، فقالوا: نقاتل عدوّنا، فإنّ بلدنا حصين. فقال: أخاف أن ينزل البرّ ويحصرنا برّاً وبحراً، ويحول بيننا وبين المِيرة، وليس عندنا ما يقوتنا شهراً، فنؤخذ قهراً، وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر والقتل خيراً من الملك، وقد طلب منّي عسكراً إلى قابس، فإذا فعلتُ فما يحلّ لي معونة الكفّار على المسلمين، وإذا امتنعتُ يقول: انتقض ما بيننا من الصلح، وليس يريد إلاّ أن يثبطنا حتى

يحول بيننا وبين البرّ، وليس لنا بقتاله طاقة، والرأي أن نخرج بالأهل والولد ونترك البلد، فمَن أراد أن يفعل كفعلنا فليبادر معنا. (١٢٧/١١)

وأمر في الحال بالرحيل، وأخذ معه مَن حضره وما خفّ حَمله، وخرج النّاس على وجوههم بأهليهم وأولادهم وما خفّ من أموالهم وأثاثهم، ومن النّاس مَن اختفى عند النصارى وفي الكنائس، وبقي الأسطول في البحر تمنعه الريح من الوصول إلى المَهديّة إلى ثلثي النهار، فلم يبقَ في البلد ممّن عزم على الخروج أحدٌ، فوصل الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع، ودخل جرجي القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه إلاّ ما خفّ من ذخائر الملوك، وفيه جماعة من حظاياه، ورأى الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة وكلّ شيء غريب يقلّ وجود مثله، فختم عليه، وجمع سراري الحسن في قصره.

وكان عدّة مَن ملك منه من زيري بن مناد إلى الحسن تسعة ملوك، ومدّة ولايتهم مائتا سنة وثماني سنوات، من سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وكان بعض القوّاد قد أرسله الحسن إلى رجّار برسالة، فأخذ لنفسه وأهله منه أماناً، فلم يخرج معهم، ولما ملك المدينة نُهبت مقدار ساعتين، ونودي بالأمان، فخرج مَن كان مستخفياً، وأصبح جرجي من الغد، فأرسل إلى مَن قرب من العرب، فدخلوا إليه، فأحسن إليهم، وأعطاهم أموالاً جزيلة، وأرسل من جند المهديّة الذين تخلّفوا بها جماعة، ومعهم أمان لأهل المَهديّة الذين خرجوا منها، ودوابّ يحملون عليها الأطفال والنساء، وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع، ولهم بالمهديّة خبايا وودائع، فلمّا وصل إليهم الأمان رجعوا، فلم تمضِ جمعة حتى رجع أكثر أهل البلد.

وأمّا الحسن فإنّه سار بأهله وأولاده، وكانوا اثني عشر ولداً ذكراً غير الإناث، وخواصّ خدمه، قاصداً إلى مُحرز بن زياد، وهو بالمعلّقة، فلقيه في طريقه أمير من العرب يسمّى حسن بن ثعلب، فطلب منه مالاً انكسر له في (١٢٨/١١) ديوانه، فلم يمكن الحسن إخراج مال لئلاّ يؤخذ، فسلّم إليه ولدَه يحيَى رهينةً وسار، فوصل في اليوم الثاني إلى مُحرز، وكان الحسن قد فضّله على جميع العرب وأحسن إليه، ووصله بكثير من المال، فلقيه محرز لقاء جميلاً، وتوجّع لما حلّ به، فأقام عنده شهوراً، والحسن كارهٌ للإقامة، فأراد المسير إلى ديار مصر إلى الخليفة الحافظ العلويّ، واشترى مركباً لسفره، فسمع جرجي الفرنجي، فجهّز شواني ليأخذه، فعاد الحسن عن ذلك، وعزم على المسير إلى عبد المؤمن بالمغرب، فأرسل كبار أولاده يحيَى وتميماً وعليّاً إلى يحيَى بن العزيز، وهو من بني حمّاد، وهما أولاد عمّ، يستأذنه في الوصول إليه، وتجديد العهد به، والمسير من عنده إلى عبد المؤمن، فأذن له يحيَى، فسار إليه فلمّا وصل لم يجتمع به يحيَى وسيّره إلى جزيرة بني مَزْغَنّاي هو وأولاده ووكّل به من يمنعهم من التصرّف، فبقوا كذلك إلى أن ملك عبد المؤمن بجَايَةَ سنة سبع وأربعين [وخمسمائة]، فحضر عنده وقد ذكرنا حاله هناك.

ولما استقرّ جرجي بالمهديّة سيّر أسطولاً، بعدَ أسبوع، إلى مدينة سَفاقُس، وسيّر أسطولاً آخر إلى مدينة سُوسَة، فأمّا سُوسَة فإنّ أهلها لما سمعوا خبر المَهديّة، وكان واليها عليّ بن الحسن الأمير، فخرج إلى أبيه، وخرج النّاس لخروجه، فدخلها الفرنج بلا قتال ثاني عشر صفر. وأمّا سفاقُس فإنّ أهلها أتاهم كثير من العرب، فامتنعوا بهم، فقاتلهم الفرنج، فخرج إليهم أهل البلد فأظهر الفرنج الهزيمة، وتبعهم النّاس حتى أبعدوا عن البلد، ثمّ عطفوا عليهم، فانهزم قوم إلى البلد وقوم إلى البرّيّة، وقُتل منهم جماعة، ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة، وأُسر مَن بقي من الرجال وسُبي الحريم، وكذلك في الثالث والعشرين من صفر، ثمّ نودي بالأمان، فعاد أهلها إليها، وافتكّوا حُرَمهم وأولادهم، ورُفق بهم وبأهل سُوسَة والمهديّة، وبعد ذلك وصلَتْ كتبٌ من رجّار لجميع أهل إفريقية (١٢٩/١١) بالأمان والمواعيد الحسنة.

ولما استقرّت أحوال البلاد سار جرجي في أسطول إلى قلعة إقليبيّة، وهي قلعة حصينة، فلمّا وصل إليها سمعته العرب، فاجتمعوا إليها، ونزل إليهم الفرنج، فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقُتل منهم خلق كثير، فرجعوا خاسرين إلى المَهديّة، وصار للفرنج من طرابُلُس الغرب إلى قريب تُونُس ومن المغرب إلى دون القَيروان، والله أعلم.

ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي بن زنكي

في هذه السنة سار ملك الألمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج، عازماً على قصد بلاد الإسلام، وهو لا يشكّ في مُلكها بأيسر قتال لكثرة جموعه، وتوفُّر أمواله وعُدده، فلمّا وصل إلى الشام قصده مَن به من الفرنج وخدموه، وامتثلوا أمره ونهيه، فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق ليحصرها ويملكها بزعمه، فساروا معه ونازلوها وحصروها، وكان صاحبها مجير الدين أبَق بن بُوري بن طُغدُكين، وليس له من الأمر شيء، وإنّما الحكم في البلد لمعين الدين أنر مملوك جدّه طُغدُكين، وهو الذي أقام مجير الدين؛ وكان معين الدين عاقلاً، عادلاً، خيراً، حسن السيرة، فجمع العساكر وحفظ البلد.

وأقام الفرنج يحاصرونهم، ثمّ إنّهم زحفوا سادس ربيع الأوّل بفارسهم وراجلهم، فخرج إليهم أهل البلد والعسكر فقاتلوهم، وصبروا لهم، وفيمن خرج للقتال الفقيه حُجّة الدين يوسف بن دي ناس الفَنْدلاويّ المغربيّ، وكان شيخاً كبيراً، فقيهاً عالماً، فلمّا رآه

معين الدين، وهو (١٣٠/١١) راجل، قصده وسلّم عليه، وقال له: يا شيخ أنت معذور لكبر سنّك ونحن نقوم بالذّبّ عن المسلمين، وسأله أن يعود، فلم يفعل وقال له: قد بعتُ واشترى مني، فواللّه لا أقلتُه ولا استقلتُه، فعنى قولَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التّوبة: ١١١].

وتقدّم فقاتل الفرنجَ حتى قُتل عند النُّيْرَب نحو نصف فرسخ عن دمشق.

وقوي الفرنج وضعف المسلمون، فتقدّم ملك الألمان حتى نزل بالميدان الأخضر، فأيقن النّاس بأنّه يملك البلد. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي يدعوه إلى نصرة المسلمين وكفّ العدوّ عنهم، فجمع عساكره وسار إلى الشام، واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب، فنزلوا بمدينة حمصَ، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرتُ ومعي كلّ مَن يحمل السّلاح في بلادي، فأريد أن يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج، فإن انهزمتُ دخلتُ أنا وعسكري البلد واحتمينا به، وإن ظفرتُ فالبلد لكم لا أنازعكم فيه.

فأرسل إلى الفرنج يتهدّدهم إن لم يرحلوا عن البلد، فكفّ الفرنج عن القتال خوفاً من كثرة الجراح، وربّما اضطرّوا إلى قتال سيف الدين، فأبقوا على نفوسهم، فقوي أهل البلد على حفظه، واستراحوا من لزوم الحرب، وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء: إنّ ملك المشرق قد حضر، فإن رحلتم، وإلاّ سلّمتُ البلد إليه، وحينئذٍ تندمون. وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم: بأيّ عقل تساعدون هؤلاء علينا، وأنتم تعلمون أنّهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحليّة، وأمّا أنا فإن رأيتُ الضعف عن حفظ البلد سلّمتُه إلى سيف الدين، وأنتم تعلمون أنّه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام. فأجابوه إلى التخلّي عن ملك الألمان، (١٣١/١١) وبذل لهم تسليم حصن بانياس إليهم.

واجتمع الساحليّة بملك الألمان، وخوّفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الأمداد إليه، وأنّه ربّما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته، ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد، وتسلّموا قلعة بانياس، وعاد الفرنج الألمانيّة إلى بلادهم وهي من وراء القسطنطينيّة، وكفى اللّه المؤمنين شرّهم.

وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق: أنّ بعض العلماء حكى له أنّه رأى الفندلاويّ في المنام، فقال له: ما فعل اللّه بك، وأين أنت؟ فقال: غفر لي، وأنا في جَنّات عَدن على سُرُرٍ متقابلين.

ذكر مُلك نور الدين محمود بن زنكي حصن العُرَيمة

لما سار الفرنج عن دمشق رحل نور الدين إلى حصن العُرَيْمَة، وهو للفرنج، فملكه.

وسبب ذلك أن ملك الألمان لما خرج إلى الشام كان معه ولد الفُنش، وهو من أولاد ملوك الفرنج، وكان جدّه هو الذي أخذ طرابلس الشام من المسلمين، فأخذ حصن العُرَيمة وتملّكه، وأظهر أنّه يريد أخذ طرابُلس من القمّص، فأرسل القمّص إلى نور الدين محمود، وقد اجتمع هو ومعين الدين أنر ببعلبكّ، يقول له ولمعين الدين ليقصدا حصن العُرَيمة ويملكاه من ولد الفُنش، فسارا إليه مُجدّين في عساكرهما، وأرسلا إلى سيف الدين وهو بحمص يستنجدانه، (١٣٢/١١) فأمدّهما بعسكر كثير من الأمير عزّ الدين أبي بكر الدُّبيسيّ، صاحب جزيرة ابن عُمَر وغيرها، فنازلوا الحصن وحصروه، وبه ابنُ الفُنش، فحماه وامتنع به، فزحف المسلمون إليه غير مرّة، وتقدّم إليه النقّابون فنقبوا السور، فاستسلم حينئذٍ مَن به من الفرنج، فملكه المسلمون وأخذوا كلّ مَن به من فارس وراجل وصبيّ وامرأة، وفيهم ابن الفُنش، وأخربوا الحصن وعادوا إلى سيف الدين. وكان مَثَل ابن الفُنش كما قيل: خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بغير أذنَين.

ذكر الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الأمراء ووصولهم إلى بغداد وما كان منهم بالعراق

في هذه السنة فارق السلطان مسعوداً جماعة من أكابر الأمراء، وهم من أذْرَبيجان: إيلدكر المسعوديّ، صاحب كَنجَة وأرّانيّة، وقَيصر، ومن الجبل: البقش كُون خَر، وتَتر الحاجب، وهو من مماليك مسعود أيضاً، وطُرنطايّ المحموديّ، شحنة واسط، والدكز، وقَرْقُوب وابن طُغايرك.

وكان سبب ذلك ميل السلطان إلى خاصّ بك واطّراحه لهم، فخافوا أن يفعل بهم مثل فعله بعبد الرحمن وعبّاس وبوزابة، ففارقوه وساروا نحو العراق، فلمّا بلغوا حُلوان خاف النّاس ببغداد وأعمال العراق، وغلت الأسعار، وتقدّم الإمام المقتفي لأمر اللّه بإصلاح السور وترميمه، وأرسل الخليفة إليهم بالعباديّ الواعظ، فلم يرجعوا إلى قوله، ووصلوا إلى بغداد في (١٣٣/١١) ربيع الآخر، والملك محمّد ابن السلطان محمود معهم، ونزلوا بالجانب الشرقي، وفارق مسعود بلال شِحنة بغداد البلد خوفاً من الخليفة، وسار إلى تَكْريت وكانت له، فعم الأمر على أهل بغداد، ووصل إليهم عليُّ بن دُبيس صاحب الحِلّة، فنزل بالجانب الغربيّ، فجنّد الخليفة أجناداً يحتمي بهم.

ووقع القتال بين الأمراء وبين عامّة بغداد ومَن بها من العسكر، واقتتلوا عدّة دفعات، ففي بعض الأيّام انهزم الأمراء الأعاجم من

عامّة بغداد مكراً وخديعةً، وتبعهم العامّة، فلمّا أبعدوا عادوا عليهم وصار بعض العسكر من ورائهم، ووضعوا السيف فقُتل من العامّة خلق كثير، ولم يُبقوا على صغير ولا كبير، وفتكوا فيهم، فأصيب أهل بغداد بما لم يُصابوا بمثله، وكثُر القتلى والجرحى وأُسر منهم خلق كثير فقُتل البعض وشُهر البعض، ودفن النّاس مَن عرفوا، ومَن لم يُعرف تُرك طريحاً بالصحراء، وتفرّق العسكر في المحالّ الغربيّة، فأخذوا من أهلها الأموال الكثيرة، ونهبوا بلد دُجَيل وغيره، وأخذوا النساء والولدان.

ثمّ إنّ الأمراء اجتمعوا ونزلوا مقابل التاج وقبّلوا الأرض واعتذروا وتردّدت الرسل بينهم وبين الخليفة إلى آخر النهار، وعادوا إلى خيامهم، ورحلوا إلى النّهروان، فنهبوا البلاد، وأفسدوا فيها، وعاد مسعود بلال شحنة بغداد من تكريت إلى بغداد.

ثمّ إنّ هؤلاء الأمراء تفرّقوا وفارقوا العراق، وتوفّي الأمير قيصر بأذْرَبيجان، هذا كلّه والسلطان مسعود مقيم ببلد الجبل، والرسل بينه وبين عمّه السلطان سنجر متّصلةٌ؛ وكان السلطان سنجر قد أرسل إليه يلومه على تقديم خاصّ بك، ويأمره بإبعاده، ويتهدّده بأنّه إن لم يفعل فسيقصده (١٣٤/١١) ويزيله عن السلطنة؛ وهو يغالط ولا يفعل، فسار السلطان سنجر إلى الرّيّ، فلمّا علم السلطان مسعود بوصوله سار إليه وترضّاه، واستنزله عمّا في نفسه فسكن. وكان اجتماعهما سنة أربع وأربعين [وخمسمائة] على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر انهزام الفرنج بيَغرَى

في هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكي الفرنج بمكان اسمه يَغرَى من أرض الشام، وكانوا قد تجمّعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها، فعلم بهم، فسار إليهم في عسكره، فالتقوا بيغرى واقتتلوا قتالاً شديداً وأجلب المعركة عن انهزام الفرنج، وقُتل كثير منهم، وأُسر جماعة من مقدّميهم، ولم ينجُ من ذلك الجمع إلاّ القليل، وأُرسل من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين وإلى الخليفة ببغداد وإلى السلطان مسعود وغيرهم.

وفي هذه الوقعة يقول ابن القيسرانيّ في قصيدته التي أولها:

يا ليتَ انّ الصّدّ مضدُودُ ... أوْ لا، فليتَ النّومَ مَرْدُودُ

ومنها في ذكر نور الدين:

وكيفَ لا تُثني على عَيشِنَا ... المَحمودِ والسّلطانُ مَحمودُ
وَصارمُ الإسلام لا يَنْثَني ... إلاّ وَثِيلُ الكُفْرِ مَقْدُودُ
مَكارمٌ لَمْ تَكُ مَوْجُودَةً ... إلاّ وَنُورُ الدّينِ مَوْجودُ
وكَمْ لَهُ مِنْ وَقعَةٍ يومُها ... عندَ المُلوكِ الكُفْرِ، مَشْهُودُ

(١٣٥/١١)

ذكر مُلك الغُوريّة غَزْنَة وعودهم عنها

في هذه السنة قصد سوري بن الحسين ملك الغُور مدينة غزْنَةَ فملكها. وسبب ذلك أنّ أخاه ملك الغُوريّة [قبله محمّد بن الحسين كان قد صاهر بَهرام شاه مسعود بن] إبراهيم، صاحب غَزْنة، وهو من بين سبكْتكين، فعظم شأنه بالمصاهرة، وعلت همّته، فجمع جموعاً كثيرةً وسار إلى غَزنة ليملكها.

وقيل: إنّما سار إليها مُظهراً الخدمةَ والزيارة، وهو يريد المكر والغدر، فعلم به بَهرام شاه، فأخذه وسجنه، ثمّ قتله، فعظم قتله على الغُوريّة، ولم يمكنهم الأخذ بثأره.

ولما قُتل ملك بعده أخوه سام بن الحسين، فمات بالجُدَري، وملك بعده أخوه الملك سوري بن الحسين بلاد الغور، وقوي أمره، وتمكّن في ملكه، فجمع عسكره من الفارس والراجل وسار إلى غزنة طالباً بثأر أخيه المقتول وقاصداً ملك غَزنة، فلمّا وصل إليها ملكها في جُمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

وفارقها بَهرام شاه إلى بلاد الهند، وجمع جموعاً كثيرة، وعاد إلى غزنة وعلى مقدّمته السلار الحسن بن إبراهيم العلوي أمير هندوستان. وكان عسكر غَزنة، الذين أقاموا مع سورى بن الحسين الغُوري وخدموه، قلوبهم مع بَهرام شاه، وإنّما هم بظواهرهم مع سوري، فلمّا التقى سوري وبهرام شاه رجع عسكر غزنة إلى بهرام شاه وصاروا معه، وسلّموا إليه سوري ملك الغوريّة، وملّك بهرام شاه غزنة في المحرّم سنة أربع وأربعين [وخمسمائة]، وصلب الملك سوري مع السيّد الماهيانيّ في المحرّم أيضاً من السنة. (١٣٦/١١)

وكان سوري أحد الأجواد، له الكرم الغزير، والمروءة العظيمة، حتى إنّه كان يرمي الدراهم في المقالع إلى الفقراء لتقع بيد مَن يتّفق له.

ثم عاود الغوريّة وملكوها، وخرّبوها، وقد ذكرناه سنة سبع وأربعين [وخمسمائة] وذكرنا هناك ابتداء دولة الغوريّة لأنّهم في ذلك الوقت عظم محلّهم، وفارقوا الجبال وقصدوا خُراسان، وعلا شأنهم، وفي بعض الخلف كما ذكرناه، واللّه أعلم.

ذكر مُلك الفرنج مدناً من الأندلس

في هذه السنة ملك الفرنج بالأندلس مدينة طَرْطُوشَة، وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لاردَةَ وأفراغةَ، ولم يبقَ للمسلمين في تلك الجهات شيء إلاّ واستولى الفرنج على جميعه لاختلاف المسلمين بينهم، وبقي بأيديهم إلى الآن.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّي أبو بكر المبارك بن الكامل بن أبي غالب

البغدادي المعروف أبوه بالخفّاف، سمع الحديث الكثير وكان مفيد بغداد. (١٣٧/١١)

وفيها غلت الأسعار بالعراق وتعذّرت الأقوات بسبب العسكر الوارد، وقدم أهل السواد إلى بغداد منهزمين قد أُخذت أموالهم، وهلكوا جوعاً وعُرياً، وكذلك أيضاً كان الغلاء في أكثر البلاد: خُراسان، وبلاد الجبل، وأصفهان، وديار فارس، والجزيرة والشام، وأمّا المغرب فكان أشدّ غلاء بسبب انقطاع الغيث ودخول العدوّ إليها.

وفيها توفّي إبراهيم بن نَبهان الغنوي الرَّقّي، ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وصحب الغزالي والشاشيّ، وروى الجمع بين الصحيحين للحميديّ عن مصنّفه.

وفيها، في ذي القعدة، توفّي الإمام أبو الفضل الكرمانّي الفقيه الحنفيّ إمام خُراسان. (١٣/١١)

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن أتابك زنكي وبعض سيرته ومُلك أخيه قطب الدين

في هذه السنة توفّي سيف الدين غازي بن أتابك زنكي صاحب الموصل بها بمرض حادّ، ولما اشتدّ مرضه أرسل إلى بغداد واستدعى أوحد الزمان، فحضر عنده، فرأى شدّة مرضه، فعالجه، فلم ينجع فيه الدواء، وتوفّي أواخر جمادى الآخرة، وكانت ولايته ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً. وكان حسن الصورة والشباب، وكانت ولادته سنة خمسمائة، ودُفن بالمدرسة التي بناها بالموصل، وخلف ولداً ذكراً، فربّاه عمّه نور الدين محمود، وأحسن تربيته، وزوّجه ابنة أخيه قُطب الدين مودود، فلم تطُل أيامه وتوفّي في عنفوان شبابه، فانقرض عقبه.

وكان كريماً شجاعاً عاقلاً، وكان يصنع كلّ يوم لعسكره طعاماً كثيراً مرّتين بُكرةً وعشيّةً، فأمّا الذي بُكرةً فيكون مائة رأس غنم جيّدة، وهو أوّل مَن حُمل على رأسه السنجق، وأمر الأجناد ألاّ يركبوا إلاّ بالسيف في أوساطهم والدبوس تحت رُكَبهم، فلمّا فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف؛ بنى المدرسة الأتابكيّة العتيقة بالموصل، وهي من أحسن المدارس، ووقفها (١٣٩/١١) على الفقهاء الحنفيّة والشافعيّة، وبنى رباطاً للصوفيّة بالموصل أيضاً على باب المَشرَعة، ولم تطُل أيامه ليفعل ما في نفسه من الخير، وكان عظيم الهمّة، ومن جملة كرمه أنّه قصده شهاب الدين الحِيصُ بِيصُ وامتدحه بقصيدته التي أوّلها :

إلامَ يـراكَ المَجـدُ فـي زيّ شـاعرٍ ... وَقـد نحلـتْ شـوْقاً فُـروعُ المَنـابرِ

فوصله بألف دينار عيناً سوى الخِلَع وغيرها.

ولما توفّي سيف الدين غازي كان أخوه قُطب الدين مقيماً بالموصل، فاتّفق جمال الدين الوزير وزين الدين عليّ أمير الجيش على تمليكه، فأحضروه، واستحلفوه، وحلفوا له، وأركبوه إلى دار السلطنة، وزين الدين في ركابه، وأطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين كالموصل والجزيرة والشّام.

ولما ملك تزوّج الخاتون ابنة حُسام الدين تِمرتاش التي كان قد تزوّجها أخوه سيف الدين وتوفّي قبل الدخول بها، وهي أمّ أولاد قُطب الدين: سيف الدين، وعزّ الدين وغيرهما من أولاده.

ذكر استيلاء نور الدين على سِنجار

لما ملك قُطب الدين مودود الموصل بعد أخيه سيف الدين غازي كان أخوه الأكبر نور الدين محمود بالشام، وله حلب وحماة، فكاتبه جماعة من الأمراء وطلبوه، وفيمَن كاتبه المقدّم عبد الملك والد شمس الدين محمّد، وكان حينئذٍ (١٤٠/١١) مستحفظاً بسِنجار، فسار جريدةً في سبعين فارساً من أمراء دولته، فوصل إلى ماكسين في نفر يسير قد سبق أصحابه.

وكان يوماً شديد المطر، فلم يعرفهم الذي يحفظ الباب، فأخبر الشّحنة أنّ نفراً من التركُمان المتجنّدين قد دخلوا البلد، فلم يستتمّ كلامه حتى دخل نور الدين الدار على الشحنة، فقام إليه وقبّل يده، ولحق به باقي أصحابه، ثمّ سار إلى سِنجار، فوصلها وليس معه غير ركابي وسلاح دار، ونزل بظاهر البلد.

وأرسل إلى المقدّم يعلمه بوصوله، فرآه الرسول وقد سار إلى الموصل وترك ولده شمس الدين محمّداً بالقلعة، فأعلمه بمسير والده إلى الموصل، وأقام من لحق أباه بالطريق، فأعلمه بوصول نور الدين، فعاد إلى سِنجار فسلّمها إليه، فدخلها نور الدين، وأرسل إلى فخر الدين قرا أرسلان، صاحب الحصن، يستدعيه إليه لمودّة كانت بينهما، فوصل إليه في عسكره. فلمّا سمع أتابك قُطب الدين، وجمال الدين، وزين الدين بالموصل بذلك جمعوا عساكرهم وساروا نحو سِنجار، فوصلوا إلى تلّ يَعْفَر، وتردّدت الرسل بينهم بعد أن كانوا عازمين على قصده بسِنجار، فقال لهم جمال الدين: ليس من الرأي مُحاقّتُهُ وقتاله، فإنّنا نحن قد عظّمنا محلّه عند السلطان وما هو بصدده من الغزاة، وجعلنا أنفسنا دونه، وهو يُظهر للفرنج تعظيماً وأنّه تبعنا ولا يزال يقول لهم: إن كنتم كما يجب، وإلاّ سلّمتُ البلاد إلى صاحب الموصل (١٤١/١١) وحينئذٍ يفعل بكم ويصنع، فإذا لقيناه، فإن هزمناه طمع السلطان فينا، ويقول: هذا الذي كانوا يعظّمونه ويحتمون به أضعف منهم، وقد هزموه، وإن هو هزمنا طمع فيه الفرنج، ويقولون إنّ الذين كان يحتمي بهم أضعف منه، وقد هزمهم، وبالجملة فهو ابن أتابك

الكبير.

وأشار بالصلح، وسار هو إليه فاصطلح وسلّم سِنجار إلى أخيه قطب الدين، وسلّم مدينة حمص والرّحبة بأرض الشام وبقي الشام له، وديار الجزيرة لأخيه، واتّفقا، وعاد نور الدين إلى الشام، وأخذ معه ما كان قد ادّخره أبوه أتابك الشهيد فيها من الخزائن وكانت كثيرة جدّاً.

ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر [ووزارة] ابن السلار

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، توفّي الحافظ لدين اللّه عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم بن المستنصر باللّه العلويّ، صاحب مصر. كانت خلافته عشرين سنة إلاّ خمسة أشهر، وعمره نحو من سبع وسبعين سنة، ولم يزل في جميعها محكوماً عليه، يحكم عليه وزراؤه، حتى إنّه جعل ابنه حسناً وزيراً ووليّ عهده، فحكم عليه واستبدّ بالأمر دونه، وقتل كثيراً من أمراء دولته وصادر كثيراً، فلمّا رأى الحافظ ذلك سقاه سُمّاً فمات، وقد ذكرناه.

ولم يلِ الأمر من العلويّين المصريّين مَن أبوه غير خليفة غير الحافظ (١٤٢/١١) العاضد، وسيرد ذكر نسب العاضد. وولي الخلافة بعده بمصر ابنه الظافر بأمر اللّه أبو منصور إسماعيل بن عبد المجيد الحافظ، واستوزر ابن مصّال، فبقي أربعين يوماً يدبّر الأمور، فقصده العادل بن السلار من ثغر الإسكندريّة، ونازعه في الوزارة، وكان ابن مصّال قد خرج من القاهرة في طلب بعض المفسدين من السودان، فحلفه العادل بالقاهرة وصار وزيراً.

وسيّر عبّاس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المُعزّ بن باديس الصنهاجيّ في عسكر وهو ربيب العادل، إلى ابن مصّال، فظفر به وقتله، وعاد إلى القاهرة، واستقرّ العادل وتمكّن، ولم يكن للخليفة معه حكم.

وأمّا سبب وصول عبّاس إلى مصر فإنّ جدّه يحيى أخرج أباه أبا الفتوح من المهديّة، فلمّا توفّي يحيى وليَ بعده بلاد إفريقية ابنه عليُّ بن يحيى بن تميم [بن يحيى صاحب] إفريقية، أخرج أخاه أبا الفتوح بن يحيى والد عبّاس من إفريقية سنة تسع وخمسمائة، فسار إلى الديار المصريّة ومعه زوجته بلاّرة ابنة القاسم بن تميم بن المُعزّ بن باديس، وولده عبّاس هذا وهو صغير يرضع، ونزل أبو الفتوح بالإسكندريّة فأُكرم وأقام بها مدّة يسيرة، وتوفّي وتزوّجت بعده امرأته بلاّرة بالعادل بن السلار.

وشبّ العبّاس، وتقدّم عند الحافظ، حتى وليَ الوزارة بعد العادل؛ فإنّ العادل قُتل في المحرّم سنة ثمان وأربعين [وخمسمائة]. قيل: وضع عليه عبّاس مَن قتله، فلمّا قُتل وليَ الوزارة بعده، وتمكّن فيها، وكان جَلداً حازماً، ومع هذا ففي أيّامه أخذ الفرنج عَسقَلان، واشتدّ وهَن الدولة بذلك؛ وفي أيّامه أخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق، وصار الأمر بعد هذا إلى أن أُخذت مصر منهم على ما نذكره بعد إن شاء اللّه تعالى. (١٤٣/١١).

ذكر عود جماعة من الأمراء إلى العراق

في هذه السنة، في رجب، عاد البَقش كُون خَر والطرنطاي وابن دُبيس ومعهم مَلِكشاه ابن السلطان محمود إلى العراق، وراسلوا الخليفة في الخُطبة لملكشاه، فلم يلتفت إليهم، وجمع العساكر، وحصّن بغداد، وأرسل إلى السلطان مسعود يعرّفه الحال، فوعده بالوصول إلى بغداد، فلم يحضر.

وكان سبب ذلك ما ذكرناه من وصول عمّه السلطان سَنجَر إلى الريّ في معنًى خاصّ به، فلمّا وصل إلى الريّ سار إليه السلطان مسعود، ولقيه واسترضاه، فرضي عنه، فلمّا علم البقش بمراسلة الخليفة إلى مسعود نهب النهروان، وقبض على الأمير عليّ بن دُبيس في رمضان، فلمّا علم الطرنطايّ بذلك هرب إلى النّعمانيّة.

ووصل السلطان مسعود إلى بغداد منتصف شوّال، ورحل البقش كُون خَر من النهروان، وأطلق عليّ بن دُبيس، فلمّا وصل السلطان إلى بغداد قصده عليّ، وألقى بنفسه بين يديه واعتذر، فرضي عنه، وذكر بعض المؤرّخين هذه الحادثة سنة أربع وأربعين، وذكر أيضاً مثلها سنة ثلاث وأربعين [وخمسمائة]، فظنّهما حادثتين، وأنا أظنّها واحدة ولكنّا تبعناه في ذلك ونبّهنا عليه. (١٤٤/١١)

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية وهزيمة الفرنج

في هذه السنة غزا نور الدين محمود بن زنكي بلاد الفرنج من ناحية أنطاكية، وقصد حصن حارم، وهو للفرنج، فحصره وخرّب رَبَضه، ونهب سواده، ثمّ رحل إلى حصن إنّب فحصره أيضاً، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وحارم وتلك الأعمال، وساروا إلى نور الدين ليرحّلوه عن إنّب، فلقيهم واقتتلوا قتالاً عظيماً.

وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة، وقُتل منهم جمع كثير، وأُسِرَ مثلهم.

وكان ممّن قُتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتياً من عُتاة الفرنج وعظيماً من عُظمائهم، ولمّا قُتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند، وهو طفل، فتزوّجت أُمّه ببرنس آخر ليدبّر البلد إلى أن يكبر ابنها، وأقام معها بأنطاكية.

ثمّ إنّ نور الدين غزاهم غزوة أخرى، فاجتمعوا ولقوه، فهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان فيمن أُسر البرنس الثاني زوج أمّ بيمند،

فتمكّن حينئذٍ بيمند بأنطاكية؛ وأكثر الشعراء مديح نور الدين وتهنئته بهذا الظفر، فإنّ قتل البرنس كان عظيماً عند الطائفتين؛ وممّن قال فيه القيسرانيّ في قصيدته المشهورة التي أوّلها: (١٤٥/١١)

هذي العزائمُ لا ما تدّعي القُضُبُ ... وذي المكارمُ لا ما قالَتِ الكُتُبُ
وَهذه الهِمَمُ اللاّتي متى خُطِبَتْ ... تَعَثَّرَتْ خلفَها الأشعارُ وَالخُطَبُ
صَافحتَ يا ابنَ عمادِ الدّينِ ذروَتَها ... براحَةٍ للمَساعي دونَها تَعَبُ
ما زالَ جَدُّكَ يَبني كُلَّ شاهِقَةٍ ... حتى بنى قُبَّةَ أوْتادُها الشُّهُبُ
أغرَتْ سيوفُكَ بالإفرَنجِ راجفةً ... فؤادُ رُومِيَةَ الكُبرَى لها يَجِبُ
ضربتَ كبشَهمُ منها بقاصِمَةٍ ... أودى بها الصّلَبُ وَانحطّتْ بها الصُلُبُ
طهّرتَ أرضَ الأعادي من دمائهم ... طهارَةً كلُّ سيفٍ عندها جُنُبُ

ذكر الخلف بين صاحب صِقلّية وملك الروم

في هذه السنة اختلف رُجّار الفرنجيّ صاحب صِقلّية وملك القسطنطينيّة، وجرى بينهما حروب كثيرة دامت عدّة سنين، فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين، ولولا ذلك لملك رجّار جميع بلاد إفريقية.

وكان القتال بينهم برّاً وبحراً، والظفر في جميع ذلك لصاحب صِقلّية، حتى إنّ أسطوله، في بعض السنين، وصل إلى مدينة القسطنطينيّة، ودخل فمَ الميناء، وأخذوا عدّة شوان من الروم، وأسروا جمعاً منهم، ورمَى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشّاب، وكان الذي يفعل هذا بالروم والمسلمين جُرجي وزير صاحب صِقلّية، فمرض عدّة أمراض منها البواسير والحصا، ومات سنة ستّ وأربعين وخمسمائة، فسكنت الفتنة، واستراح النّاس من شرّه وفساده، ولم يكن عند صاحب صقلّية مَن يقوم مقامه بعده. (١٤٦/١١)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة زُلزلت الأرض زلزلة عظيمة، فقيل إن جبلاً مقابل حُلوان ساخ في الأرض.

وفيها وليَ أبو المظفّر يحيَى بن هُبيرة وزارة الخليفة المقتفي لأمر اللّه، وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزمام، وظهر له كفاية عظيمة عند نزول العساكر بظاهر بغداد، وحسنُ قيام في ردّهم، فرغب الخليفة فيه، فاستوزره يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر سنة أربع وأربعين [وخمسمائة]، وكان القمر على تربيع زُحل، فقيل له: لو أخّرْتَ لُبس الخِلعة لهذه التربيعات؟ فقال: وأيّ سعادة أكبر من وزارة الخليفة؟ ولبسها ذلك اليوم.

وفيها، في المحرّم، توفّي قاضي القضاة عليُّ بن الحسين الزينبيّ، ووليَ القضاء عماد الدين أبو الحسن عليُّ بن أحمد الدامغاني.

وفيها، في المحرّم، رَخُصَت الأسعار بالعراق، وكثرت الخيرات، وخرج أهل السواد إلى قراهم.

وفيها توفّي الأمير نظر أمير الحاجّ، وكان قد سار بالحاجّ إلى الحِلّة، فمرض واشتدّ مرضه، واستخلف على الحاجّ قايماز الأرجوانيّ، وعاد إلى بغداد مريضاً، فتوفّي في ذي القعدة، وكان خصياً عاقلاً خيّراً له معروف كثير وصدقات وافرة. (١٤٧/١١)

وفيها توفّي أحمد بن نظام المُلك الذي كان وزير السلطان محمّد والمسترشد باللّه.

وفيها توفّي عليُّ بن رافع بن خليفة الشيبانيّ، وهو من أعيان خُراسان وله مائة وسبع سنين شمسيّة.

ومات الإمام مسعود الصوابيّ في المحرّم منها.

وفيها توفّي معين الدين أنر نائب أبق صاحب دمشق، وهو كان الحاكم والأمر إليه، وكان أبق صورة أمير لا معنى تحتها.

وفيها توفّي القاضي أحمد بن محمّد بن الحسين الأرّجاني أبو بكر قاضي تُستَر، وله شعر حسن فمنه قوله:

ولما بلوتُ النّاسَ أطلُبُ عندَهم ... أخا ثِقَةٍ عندَ اعتراضِ الشّدائدِ
تطلّعتُ في حالَيْ رَخاءٍ وشِدّةٍ ... وناديتُ في الأحياءِ: هل من مساعدِ
فلَم أرَ فيما ساءني غيرَ شامِتٍ ... ولَم أرَ فيما سَرّني غيرَ حَاسِدِ
تَمَتّعتُما يا ناظِرَيّ بنَظرَةٍ ... وَأورَدتُما قَلبي أمَرَّ المَوَارِدِ
أعينيّ كُفّا عن فُؤادي فإنّهُ ... منَ البغيِ سعيُ اثنَين في قتلِ واحدِ

وفيها توفّي أبو عبد اللّه عيسى بن هبة اللّه بن عيسى البَزّاز، وكان ظريفاً، وله شعرٌ حسنٌ. كتب إليه صديقٌ له رُقعةً وزاد في خطابه فأجابه:

قد زِدتَني في الخِطابِ حتى ... خَشيتُ نَقصاً من الزّيادَهْ
فاجعلْ خطابي خطابَ مثلي ... وَلا تُغَيّرْ عليّ عادَهْ

(١٤٨/١١)

سنة خمس وأربعين وخمسمائة

ذكر أخْذ العرب الحُجّاج

في هذه السنة، رابع عشر المحرّم، خرج العرب، زَعْبٌ ومن انضمّ إليها، على الحُجّاج بالغرابيّ، بين مكّة والمدينة، فأخذوهم ولم يسلم منهم إلاّ القليل.

وكان سبب ذلك أنّ نظر أمير الحاجّ [لما عاد من الحِلّة على ما ذكرناه وسار على الحاجّ] قايماز الأرجوانيّ، وكان حدثاً غِرّاً، سار بهم إلى مكّة، فلمّا رأى أميرُ مكّة قايمازَ استصغره وطمع في الحاجّ، وتلطّف قايماز الحال معه إلى أن عادوا.

فلمّا سار عن مكّة سمع باجتماع العرب، فقال للحاجّ: المصلحة أنّا لا نمضي إلى المدينة، وضجّ العجم وتهدّدوه بالشكوى منه إلى السلطان سَنْجَر، فقال لهم: فأعطوا العربَ مالاً نستكفّ به شرّهم! فامتنعوا من ذلك، فسار بهم إلى الغرابيّ، وهو منزل يخرج إليه من مضيق بين جبلين، فوقفوا على فم مضيق، وقاتلهم قايماز ومَن معه، فلمّا رأى عجزه أخذ لنفسه أماناً، وظفروا بالحجّاج، وغنموا أموالهم وجميع ما معهم، وتفرّق النّاس في البرّ، وهلك منهم خلق كثير لا يحصون كثرة، ولم يسلم إلاّ القليل، (١٤٩/١١) فوصل بعضهم إلى المدينة وتحمّلوا منها إلى البلاد، وأقام بعضهم مع العرب حتى توصّل إلى البلاد.

ثمّ إنّ اللّه تعالى انتصر للحاجّ من زعْب فلم يزالوا في نقص وذلّة، ولقد رأيتُ شابّاً منهم بالمدينة سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، وجرى بيني وبينه مفاوضة قلتُ له فيها: إنّني واللّه كنتُ أميل إليك حتى سمعتُ أنّك من زَعْب فنفرتُ وخفتُ شرّك. فقال: ولِمَ؟ فقلتُ: بسبب أخذكم الحاجّ. فقال لي: أنا لم أدرك ذلك الوقت، وكيف رأيت اللّه صنع بنا؟ واللّه ما أفلحنا، ولا نجحنا، قلّ العددُ وطمع العدوّ فينا.

ذكر فتح حصن فامية

في هذه السنة فتح نور الدين محمود ابن الشهيد زنكي حصن فامية من الفرنج وهو مجاور شيزر وحماة على تلّ عالٍ من أحصن القلاع وأمنعها، فسار نور الدين إليه وحصره وبه الفرنج وقاتلهم وضيّق على مَن به منهم، فاجتمع مَن بالشام من الفرنج وساروا نحوه ليرحّلوه عنهم فلم يصلوا إلاّ وقد ملكه وملأه ذخائر وسلاحاً ورجالاً وجميع ما يحتاج إليه، فلمّا بلغه مسير الفرنج إليه رحل عنه وقد فرغ من أمر الحصن وسار إليهم يطلبهم، فحين رأوا أنّ الحصن قد مُلك وقوة عزم نور الدين على لقائهم عدلوا عن طريقه ودخلوا بلادهم وراسلوه في المهادنة وعاد سالماً مظفّراً ومدحه الشعراء وذكروا هذا الفتح، فمن ذلك قول ابن الروميّ من قصيدة أوّلها:

أسْنى الممالك ما أطلّتْ منارُها ... وجعلتْ مُرْهَفةَ النّسارِ دِسارَها

وأحَقُّ مَنْ مَلَكَ البلادَ وأهلَها ... رَؤوفٌ تكتَنِفُ عَدلُهُ أقطارَها

(١٥٠/١١)

ومنها في وصف الحصن:

أدركتَ ثارَكَ في البُغاةِ وكنتَ يا ... مُختارَ أمّةِ أحمَدٍ مُختارَها

طابتْ نجومُكَ فَوْقَها وَلربما ... باتَتْ تنافثُها النّجُومُ سِرارَها

عاريّةُ الزّمَنِ المُعيرِ شِمالُها ... منكَ المُعيرَةُ وَاستَرَدّ مُعارَها

أمستْ معَ الشّعرى العَبورِ وَأصْبحتْ ... شَعْراءَ تَستَغلي الفحولُ شِوارَها

وهي طويلة.

ذكر حصر الفرنج قُرْطُبة ورحيلهم عنها

في هذه السنة سار السُّليطين، وهو الأذفونش، وهو ملك طُليطُلة وأعمالها، وهو من ملوك الجلالقة، نوع من الفرنج، في أربعين ألف فارس إلى مدينة قُرْطُبة، فحصرها، وهي في ضعف وغلاء، فبلغ الخبر إلى عبد المؤمن وهو بمَرّاكُش، فجهّز عسكراً كثيراً، وجعل مقدمهم أبا زكريّا يحيَى بن يَرموزَ ونفّذهم إلى قُرطُبة، فلمّا قربوا منها لم يقدروا أن يلقوا عسكر السُّليطين في الوطاء وأرادوا الاجتماع بأهل قُرطبة ليمنعوها لخطر العاقبة بعد القتال، فسلكوا الجبال الوعرة، والمضايق المتشعّبة، فساروا نحو خمسة وعشرين يوماً في الوعر في مسافة أربعة أيّام في السهل، فوصلوا إلى جبل مطلّ على قُرطُبة، فلمّا رآهم السُّليطين وتحقّق أمرهم رحل عن قُرطُبة.

وكان [فيها] القائد أبو الغَمر الشائب من ولد القائد ابن غَلْبُون (١٥١/١١) وهو من أبطال أهل الأندلس وأمرائها، فلمّا رحل الفرنج خرج منها لوقته وصعد إلى ابن يرموز، وقال له: انزلوا عاجلاً وادخلوا البلد؛ ففعلوا، وباتوا فيها، فلمّا أصبحوا من الغد رأوا عسكر السُّليطين على رأس الجبل الذي كان فيه عسكر عبد المؤمن، فقال لهم أبو الغمر: هذا الذي خفتُه عليكم لأنّي علمتُ أنّ السُّليطين ما أقلع إلاّ طالباً لكم، فإنّ من الموضع الذي كان فيه إلى الجبل طريقاً سهلة، ولو لحقكم هناك لنال مراده منكم ومن قُرطُبة. فلمّا رأى السّليطين أنّهم قد فاتوه علم أنّه لم يبقَ له طمع في قُرطُبة، فرحل عائداً إلى بلاده، وكان حصره لقُرطُبة ثلاثة أشهر، واللّه أعلم.

ذكر مُلك الغُوريّة هراة

في هذه السنة سار ملك الغور الحسَن بن الحسين من بلاد الغور إلى هَراة فحصرها، وكان أهلها قد كاتبوه، وطلبوا أن يسلّموا البلد إليه هرباً من ظلم الأتراك لهم، وزوال هيبة السلطنة عنهم، فامتنع أهل هراة عليه ثلاثة أيّام، ثمّ خرجوا إليه وسلّموا البلد وأطاعوه، فأحسن إليهم، وأفاض عليهم النعم، وغمرهم بالعدل، وأظهر طاعة السلطان سَنْجَر والقيام على الوفاء له والانقياد إليه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أمر علاء الدين محمود بن مسعود، الغالب على أمر طُرَيْثيث التي بيد الإسماعيلية، بإقامة الخطبة للخليفة، ولبس السواد، ففعل الخطيب (١٥٢/١١) ذلك، فثار به عمّه وأقاربه ومَن وافقهم، وقاتلوه، وكسروا المنبر وقتلوا الخطيب.

وكان فعل علاء الدين هذا لأنّ أباه كان مسلماً، فلمّا تغلّب الإسماعيليّة على طُرَيْثيث أظهر موافقتهم، وأبطن اعتقاد الشريعة،

وكان يناظر على مذهب الشافعيّ، وازداد تقدّماً بطُرَيثيث وجرت أمورُها بإرادته، فلمّا حضره الموت أوصى أن يغسّله فقيه شافعيّ، وأوصى إلى ابنه علاء الدين، إن أمكنه أن يعيد فيها إظهار شريعة الإسلام فعل. فلمّا رأى من نفسه قوّةً فعله فلم يتمّ له.

وفيها كثر المرض بالعراق لا سيّما ببغداد، وكثر الموت أيضاً فيها، ففارقها السلطان مسعود.

وفيها توفّي الأمير عليُّ بن دُبيس بن صَدَقة صاحب الحِلّة بأسداباد، واتُّهم طبيبه محمّد بن صالح بالمواطأة عليه، فمات الطبيب بعده بقريب.

وفيها استوزر عبدالمؤمن صاحب بلاد المغرب أبا جعفر بن أبي أحمد الأندلسي، وكان مأسوراً عنده، فوُصف له بالعقل وجودة الكتابة، فأخرجه من الحبس واستوزره، وهو أوّل وزير كان للموحّدين.

وفي هذه السنة، في المحرّم، جلس يوسف الدمشقي مدرّساً في النظاميّة ببغداد، وكان جلوسه بغير أمر الخليفة، فمُنع يوم الجمعة، من دخول الجامع، فصلّى في جامع السلطان، ومُنع من التدريس، فتقدّم السلطان مسعود إلى الشيخ أبي النجيب بأن يدرّس فيها، فامتنع بغير أمرالخليفة، فاستخرج السلطان إذن الخليفة في ذلك، فدرّس منتصف المحرّم من السنة. (١٥٣/١١)

وفيها توفّي أبو عبد اللّه محمّد بن عليّ مُهران الفقيه الشافعيّ تفقّه على الهراسيّ، وولي قضاء نَصيبين، ثمّ ترك القضاء وتزهّد فأقام بجزيرة ابن عمر، ثمّ انتقل إلى جبل ببلد الحصن، في زاوية، وكان له كرامات ظاهرة.

وفيها مات الحسن بن ذي النون بن أبي القاسم بن أبي الحسن المِسْعَري أبوالمفاخر النّيسابوري، سمع الحديث الكثير، وكان فقيهاً أديباً دائم الأشغال يعظ النّاس، وكان ممّا ينشد :

مـاتَ الكـرامُ وَوَلّـوا وانقضَـوْا ... ومـاتَ مِنْ بَعدِهِم تلكَ الكَرامـاتُ
وَخَلّفُونـي فـي قَـوْمٍ ذوي سَـفَهٍ ... لَوْ أبصرُوا طيفَ ضَيفٍ في الكرى ماتوا

(١٥٤/١١)

سنة سِت وأربعين وخمسمائة

ذكر انهزام نور الدين من جُوسلين وأسر جُوسلين بعد ذلك

في هذه السنة جمع نور الدين محمود عسكره وسار إلى بلاد جُوسلين الفرنجيّ، وهي شمالي حلب، منها تلّ باشِر، وعين تاب، وإعزاز وغيرها، وعزم على محاصرتها وأخذها. وكان جُوسلين، لعنه اللّه، فارس الفرنج غير مدافَع، قد جمع الشجاعة والرأي، فلمّا علم بذلك جمع الفرنج فأكثر، وسار نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا، فانهزم المسلمون وقُتل منهم وأُسر جمع كثير، وكان في جملة مَن أُسر سلاحُ دار نور الدين، فأخذه جوسلين، ومعه سلاح نور الدين، فسيّره إلى الملك مسعود بن قُلْج أرسلان، صاحب قُونية، وأقصَرا، وقال له: هذا سلاح زوج ابنتك، وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه.

فلمّا علم نور الدين الحال عظم عليه ذلك، وأعمل الحيلة [على] جوسلين، وهجر الراحة ليأخذ بثأره، وأحضر جماعة من أمراء التركمان، وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلّموه إليه إمّا قتيلاً أو أسيراً، لأنّه علم أنّه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه، فجعل التركمان عليه العيون، فخرج متصيّداً، فحلقت به طائفة منهم وظفروا به، فصانعهم (١٥٥/١١) على مال يؤدّيه إليهم، فأجابوه إلى إطلاقه إذا حضر المال، فأرسل في إحضاره، فمضى بعضهم إلى أبي بكر بن الدابة، نائب نور الدين بحلب، فأعلمه الحال، فسيّر عسكراً معه، فكبسوا أولئك التركمان وجوسلين معهم، فأخذوه أسيراً وأحضروه عنده، وكان أسره من أعظم الفتوح لأنّه كان شيطاناً عاتياً، شديداً على المسلمين، قاسي القلب، وأصيبت النصرانيّة كافّة بأسره.

ولما أُسر سار نور الدين إلى قلاعه فملكها، وهي تلّ باشِر، وعين تاب، وإعزاز، وتلّ خالد، وقُورس، والرّاوَنْدان، وبرج الرّصاص، وحصن البَاره، وكفَرَ سُود، وكفرلاثا، ودُلُوك، ومَرْعش، ونهر الجَوز، وغير ذلك من أعماله، في مدّة يسيرة يرد تفصيلها.

وكان نور الدين كلّما فتح منها حصناً نقل إليه من كلّ ما تحتاج إليه الحصون، خوفاً من نكسة تلحق المسلمين من الفرنج، فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدوّ. ومدحه الشعراء، فممّن قال فيه القيسرانيّ من قصيدة في ذكر جوسلين:

كمـا أهْـدَتِ الأقدارُ للقمـصِ أسْـرَهُ ... وأسعدَ قرْنُ مَنْ حَوَاهُ لـكَ الأسْـرُ
طَغَـى وبَغَـى عَـدْواً عَلـى غُلَوائِـه ... فأوْبَقَـهُ الكُفْـرانُ عَـدْواهُ والكُفْـرُ
وأسَـرْتَ عِـزازٌ كاسْـمها بـكَ عـزّةً ... تشُـقّ علـى النّسـرين لـوْ أنّهـا وَكْـرُ
فبِـرْ وامـلأ الدّنيـا ضيـاءً وبَهجَـةً ... فبـالأُفْقِ الدّاجـي إلـى ذا السّنـا فَقْـرُ

(١٥٦/١١)

كـأنّي بهَـذا العَـزْمِ لا فُـلّ حَـدُّهُ ... وَأقصـاهُ بـالأقصَى وَقَـد قُضِيَ الأمْـرُ
وقَـد أصبَحَ البَيـتُ المُقـدّسُ طـاهِراً ... وَلَيـسَ سـوَى جـاري الدّمـاء لـهُ طُهـرُ

ذكر حصر غَرْناطة والمريّة من بلاد الأندلس

في هذه السنة سيّر عبد المؤمن جيشاً كثيفاً، نحو عشرين ألف فارس، إلى الأندلس مع أبي حفص عمر بن أبي يحيَى الهنتاتيّ، وسيّر معهم نساءهم، فكنّ يسرن مفرداتٍ عليهنّ البرانس السود، ليس معهنّ غير الخدم، ومتى قرب منهنّ رجُل ضُرب بالسّياط.

فلمّا قطعوا الخليج ساروا إلى غَرناطة وبها جمع من

المُرابطين، فحصرها عمر وعسكره، وضيّقوا عليها، فجاء إليه أحمد بن مَلحان، صاحب مدينة وادي آش وأعمالها، بجماعته، ووحّدوا، وصاروا معه، وأتاهم إبراهيم ابن هَمْشَك صهر ابن مَرْدَنِيش، صاحب جَيّان، وأصحابه، ووحّدوا، وصاروا أيضاً معه، فكثر جيشه، وحرّضوه على المسارعة إلى ابن مَرْدَنِيش، ملك بلاد شرق الأندلس، ليبغته بالحصار قبل أن يتجهّز.

فلمّا سمع ابن مَرْدَنيش ذلك خاف على نفسه، فأرسل إلى ملك بَرْشلونة، من بلاد الفرنج، يخبره، ويستنجده، ويستحثّه على الوصول إليه، فسار إليه الفرنجيّ في عشرة آلاف فارس، وسار عسكر عبد المؤمن، فوصلوا إلى حَمّة بلقولرة، وبينها وبين مُرسية، التي هي مقرّ ابن مردنيش، مرحلة، (١٥٧/١١) فسمعوا بوصول الفرنج، فرجع وحصر مدينة المريّة، وهي للفرنج، عدّة شهور، فاشتدّ الغلاء في العسكر، وعُدمت الأقوات، فرحلوا عنها وعادوا إلى إشبيلية فأقاموا بها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الآخر، توفّي العِباديُّ الواعظ، واسمه المظفّر ابن أرْدَشِير، بخوزستان، وكان الخليفة المقتفي لأمر اللّه قد سيّره في رسالة إلى الملك محمّد ابن السلطان محمود ليصلح بينه وبين بدر الحويزي، فتوفّي هناك وجلس ولده ببغداد للعزاء، وأقيم بحاجب من الديوان العزيز.

وكان يجلس ويعظ ويذكر والده ويبكي هو والنّاس كافّة، ونُقل العِباديُّ إلى بغداد ودُفن بالشونيزي، ومولده سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وسمع الحديث من أبي بكر الشِّيروي، وزاهر الشَّحّاميّ وغيرهما، ورواه.

وفيها انفجر بِئْر النّهروان الذي أتمّه بَهروز بكثرة الزيادة في تامرّا وإهمال أمرها، حتى عظم ذلك وتضرّر به النّاس.

وفيها سار الأمير قُجُق في طائفة من عسكر السلطان سَنْجَر إلى طُرَيْثيث بخراسان، وأغار على بلاد الإسماعيليّة، فنهب، وسبى وخرّب، وأحرق المساكن، وفعل بهم أفاعيل عظيمة وعاد سالماً. (١٥٨/١١)

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

ذكر مُلك عبد المؤمن بِجَايَة ومُلك بني حمّاد

في هذه السنة سار عبد المؤمن بن عليّ إلى بِجَايَة وملكها، وملك جميع ممالك بني حمّاد. وكان لما أراد قصدها سار من مَرّاكُش إلى سَبْتَة سنة ستّ وأربعين [وخمسمائة]، فأقام بها مدّة يعمر الأسطول، ويجمع العساكر القريبة منه.

وأمّا ما هو على طريقه إلى بِجَاية من البلاد، فكتب إليهم ليتجهّزوا ويكونوا على الحركة أي وقت طلبهم، والنّاس يظنّون أنّه يريد العبور إلى الأندلس، فأرسل في قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب برّاً وبحراً.

وسار من سَبتة في صفر سنة سبع وأربعين [وخمسمائة]، فأسرع السير وطوى المراحل، والعساكر تلقاه في طريقه، فلم يشعر أهل بجاية إلاّ وهو في أعمالها، وكان ملكها يحيَى بن العزيز بن حمّاد آخر ملوك بني حمّاد، وكان مولعاً بالصيد واللّهو لا ينظر في شيء من أمور مملكته، قد حكم فيها بنو حمدون، فلمّا اتّصل الخبر بميمون بن حمدون جمع العسكر وسار عن بِجاية نحو عبد المؤمن، فلقيهم مقدّمته، وهو يزيد على عشرين ألف فارس، (١٥٩/١١) فانهزم أهل بِجاية من غير قتال، ودخلت مقدّمة عبد المؤمن بِجاية قبل وصول عبد المؤمن بيومَين، وتفرّق جميع عسكر يحيَى بن العزيز، وهربوا برّاً وبحراً، وتحصّن يحيَى بقلعة قسنطينة الهواء، وهرب أخواه الحارث وعبد اللّه إلى صِقِلّية، ودخل عبد المؤمن بِجاية، وملك جميع بلاد ابن العزيز بغير قتال.

ثمّ إنّ يحيَى نزل إلى عبد المؤمن بالأمان، فأمّنه، وكان يحيَى قد فرح لما أُخذت بلاد إفريقية من الحسن بن عليّ فرحاً ظهر عليه، فكان يذمّه، ويذكر معايبه، فلم تطل المدّة حتى أُخذت بلاده، ووصل الحسن بن عليّ إلى عبد المؤمن في جزائر بني مَزغَنّان، وقد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين [وخمسمائة] سبب مصيره إليها، واجتمعا عنده، فأرسل عبد المؤمن يحيَى بن العزيز إلى بلاد المغرب، وأقام بها، وأجرى عليه شيئاً كثيراً.

وأمّا الحسن بن عليّ فإنّه أحسن إليه، وألزمه صحبته، وأعلى مرتبته، فلزمه إلى أن فتح عبد المؤمن المهديّة فجعله فيها، وأمر واليها أن يقتدي برأيه ويرجع إلى قوله.

ولما فتح عبد المؤمن بِجاية لم يتعرّض إلى مال أهلها ولا غيره، وسبب ذلك أنّ بني حمدون استأمنوا فوفّى بأمانه.

ذكر ظفر عبد المؤمن بِصَنْهَاجَة

لما ملك عبد المؤمن بجاية تجمّعت صنهاجَةُ في أمم لا يحصيها إلاّ اللّه تعالى، وتقدّم عليهم رجل اسمه أبو قصبة، واجتمع معهم من كُتامة ولُواتة (١٦٠/١١) وغيرهما خلق كثير، وقصدوا حرب عبد المؤمن، فأرسل إليهم جيشاً كثيراً، ومقدّمهم أبو سعيد يَخلُف، وهو من الخمسين، فالتقوا في عُرض الجبل، شرقي بجاية، فانهزم أبو قصبة وقُتل أكثر مَن معه، ونُهبت أموالهم، وسُبيت نساؤهم وذراريهم.

ولما فرغوا من صَنهاجة ساروا إلى قلعة بني حمّاد، وهي من

أحصن القلاع وأعلاها لا تُرام، على رأس جبل شاهق يكاد الطرف لا يحقّقها لعلوّها، ولكن القدر إذا جاء لا يمنع منه معقل ولا جيوش، فلمّا رأى أهلها عساكر الموحّدين هربوا منها في رؤوس الجبال، ومُلكت القلعة، وأُخذ جميع ما فيها من مال وغيره وحُمل إلى عبد المؤمن فقسمه.

ذكر وفاة السلطان مسعود ومُلك ملكشاه محمّد بن محمود

في هذه السنة، أوّل رجب، توفّي السلطان مسعود بن محمّد بن ملكشاه بهَمَذان، وكان مرضه حُمّى حادّة نحو أسبوع، وكان مولده سنة اثنتين وخمسمائة في ذي القعدة، ومات معه سعادة البيت السّلجُوقي فلم يقُمْ له بعده راية يعتدّ بها ولايلتفت إليها :

فَما كانَ قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ واحدٍ ولكِنّهُ بُنيانُ قَوْمٍ تَهَدّمَا

وكان رحمه اللّه حسن الأخلاق، كثير المزاح والانبساط مع النّاس، فمن ذلك أنّ أتابك زنكي، صاحب الموصل، أرسل إليه القاضي كمال الدين (١٦١/١١) محمّد بن عبد اللّه بن القاسم الشّهرَزُوريّ في رسالة، فوصل إليه وأقام معه في العسكر، فوقف يوماً على خيمة الوزير، حتى قارب أذان المغرب، فعاد إلى خيمته، فأذّن المغرب وهو في الطريق، فرأى إنساناً فقيهاً في خيمة، فنزل إليه، فصلّى معه المغرب، ثمّ سأله كمال الدين من أين هو؟ فقال: أنا قاضي مدينة كذا. فقال له كمال الدين: القضاة ثلاثة، قاضيان في النّار، وهو أنا وأنت، وقاضٍ في الجنّة وهو مَن لم يعرف أبواب هؤلاء الظَّلَمة ولا يراهم؛ فلمّا كان الغد أرسل السلطان وأحضر كمال الدين إليه، فلمّا دخل عليه ورآه ضحك وقال: القضاة ثلاثة. فقال كمال الدين: نعم يا مولانا. فقال: واللّه صدقت، ما أسعدَ مَن لا يرانا ولا نراه! ثمّ أمر أن تقضى حاجته وأعاده من يومه.

وكان كريماً عفيفاً عن الأموال التي للرعايا، حسن السيرة فيهم، من أصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة، سهل الأخلاق لطيفاً، فمن ذلك أنّه اجتاز يوماً في بعض أطراف بغداد، فسمع امرأة تقول لأخرى: تعالي انظري إلى السلطان؛ فوقف وقال: حتى تجيء هذه الستّ تنظر إلينا.

وله فضائل كثيرة ومناقب جمّة، وكان عهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود، فلمّا توفّي خطب له الأمير خاصّ بك بن بَلَنكري بالسّلطنة، ورتّب الأمور، وقرّرها بين يديه، وأذعن له جميع العسكر بالطاعة.

ولما وصل الخبر إلى بغداد بموت السلطان مسعود هرب الشحنة بها، وهو مسعود بلال، إلى تكريت، واستظهر الخليفة المقتفي لأمر اللّه على داره، ودور أصحاب السلطان ببغداد، وأخذ كلّ ما لهم فيها، وكلّ مَن كان عنده وديعة لأحد منهم أحضرها بالديوان، وجمع الخليفة الرجال والعساكر وأكثر التجنيد، وتقدّم بإراقة الخمور من مساكن أصحاب السلطان، ووُجد في دار مسعود بلال، شحنة بغداد، كثير من الخمر، فأُريق، ولم يكن النّاس (١٦٢/١١) يظنّون أنّه شرب الخمر بعد الحجّ، وقبض على المؤيّد الألوسيّ الشاعر، وعلى الحِيص بِيص الشاعر، ثمّ أُطلق الحِيص بِيص، وأعيد عليه ما أُخذ منه.

ثمّ إنّ السلطان ملكشاه سيّر سَلاركُرد في عسكر إلى الحِلّة، فدخلها، فسار إليه مسعود بلال، شحنة بغداد، وأظهر له الاتفاق معه، فلمّا اجتمعا قبض عليه مسعود بلال وغرّقه، واستبدّ بالحِلّة، فلمّا علم الخليفة ذلك جهّز العساكر إليه مع الوزير عون الدين بن هُبَيرة، فسار إليه، فلمّا قاربوا الحِلّة عبر مسعود بلال الفرات إليهم وقاتلهم، فانهزم من عسكر الخليفة، ونادى أهل الحِلّة بشعار الخليفة، فلم يدخلها، وتمّت الهزيمة عليه وعلى أصحابه، فعاد [إلى] تَكْريت، وملك عسكر الخليفة الحِلّة، وسيّر الوزير عسكراً إلى الكوفة وعسكراً إلى واسط، فملكوهما.

ثمّ إنّ عساكر السلطان وصلت إلى واسط، ففارقها عسكر الخليفة، فلمّا سمع الخليفة ذلك تجهّز بنفسه وسار عن بغداد إلى واسط، ففارقها العسكر السلطانيّ، وملكها الخليفة، وسار منها إلى الحِلّة، ثم عاد إلى بغداد، فوصلها تاسع عشر ذي القعدة، وكانت غيبته خمسة وعشرين يوماً.

ثمّ إنّ خاصّ بك بن بَلَنكري قبض على الملك ملكشاه الذي خُطب له بالسلطنة بعد مسعود، وأرسل إلى أخيه الملك محمّد سنة ثمان وأربعين [وخمسمائة] وهو بخوزستان يستدعيه، وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة، فسار الملك محمّد إليه، فلمّا وصل أجلسه على تخت السلطنة أوائل صفر، وخطب له بالسلطنة، وخدمه، وبالغ في خدمته، وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار.

ثمّ إنّه دخل إلى الملك محمّد ثاني يوم وصوله، فقتله محمّد، وقتل معه زنكي الجاندار، وألقى برأسيهما، فتفرّق أصحابهما، ولم ينتطح فيها (١٦٣/١١)عنزان. وكان ايدغدي التركمانيّ المعروف بشَملة مع خاصّ بك. فنهاه عن الدخول إلى الملك محمّد، فلم ينته، فقُتل، ونجا شملة، فنهب جشير الملك محمّد، ومضى طالباً خوزستان، وأخذ محمّد من أموال خاصّ بك شيئاً كثيراً واستقرّ محمّد في السلطنة وتمكّن، وبقي خاصّ بك مُلقى حتى أكلته الكلاب؛ وكان صبيّاً تُركُمانيّاً اتّصل بالسلطان مسعود، فتقدّم على سائر الأمراء وكان هذا خاتمة أمره.

ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج

في هذه السنة تجمّعت الفرنج، وحشدت الفارس والراجل، وساروا نحو نور الدين، وهو ببلاد جوسلين، ليمنعوه عن مُلكها،

فوصلوا إليه وهو بدُلُوك، فلمّا قربوا منه رجع إليهم ولقيهم، وجرى المصافّ بينهم عند دُلُوك، واقتتلوا أشدّ قتال رآه النّاس، وصبر الفريقان، ثمّ انهزم الفرنج، وقُتل منهم وأُسر كثير، وعاد نور الدين إلى دُلُوك، فملكها واستولى عليها، وممّا قيل في ذلك:

أعَـدْتَ بعَصـرِكَ هـذا الأنيـ ... ـقَ فتـوحَ النَّبـيِّ وأعصارَهَـا
فَواطـأتَ يـا حبّـذا حذيهـا ... وأسـرَرتَ مـن بَـدرَ أبدارَهَـا
وكـانَ مُهَاجِرُهَـا تابعيـ ... ـكَ وأنصـارُ رأيـكَ أنصارَهَـا
فجَـدّدت إسـلامَ سَـلْمانِها ... وعَمّـرَ جَـدُّكَ عَمّارَهَـا
ومـا يَـوْمُ إنّـبَ إلاّ كَـذا ... كَ بـل طـالَ بـالبُوعِ أشبارَهَا

(١٦٤/١١)

صَنعـتَ عَزيمَتَهـا صَنْعَـةً ... أذابَـتْ مَـعَ المَـاءِ أحْجارَهَـا
وَفـي تـلّ باشِـرَ باشَـرْتَهُمْ ... بزَحْـفٍ تَسَـوّرَ أسْـوارَهَا
وَإنْ دالَكَهُـمْ دُلُـوكٌ فَقَـدْ ... شَـدَدتَ فصَدّقْـتَ أخْبارَهَـا

ذكر الحرب بين سَنجَر والغُوريّة

في هذه السنة كان بين السلطان [سَنْجَر] وبين الغُوريّة حربٌ، وكانت دولتهم أوّل ما قد ظهرت، وأوّل مَن ملك منهم رجل اسمه الحسين بن الحسين ملك جبال الغُور ومدينة فِيرُوزكُوه، وهي تقارب أعمال غَزْنَة، وقوي أمره، وتلقّب بعلاء الدين، وتعرّض إلى أعمال، ثمّ جمع جيشاً عظيماً وقصد هَراة محاصراً لها، فنهب عسكره تابَ وأوبةَ ومارِيادَ من هَراة والرّوذ، وسار إلى بَلْخ وحصرها، فقاتله الأمير قَماج، ومعه جمع من الغُزّ، فغدروا به، وصاروا مع الغوريّ فملك بَلخ، فلمّا سمع السلطان سَنْجَر بذلك سار إليه ليمنعه، فثبت له علاء الدين، واقتتلوا، فانهزم الغُوريّة، وأُسر علاء الدين، وقُتل من الغوريّة خلق كثير، لا سيّما الرجّالة، وأحضر السلطان سَنجَر علاء الدين بين يديه، وقال له: يا حُسين لو ظفرتَ بي ما كنتَ تفعل بي؟ فأخرج له قيد فضّة وقال: كنتُ أقيّدك بهذا وأحملك إلى فِيرُوزكُوه؛ فخلع عليه سَنجَر وردّه إلى فِيروزكُوه فبقي بها مدّةً.

ثمّ إنّه قصد غَزنة وملكها حينئذٍ بَهرام شاه بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، فلم يثبت بها بين يدي علاء الدين، بل فارقها إلى مدينة كَرمان، وهي مدينة بين غَزنة والهند، وسكّانها قومٌ يُقال لهم أبغان، وليست (٢٦٥/١١) هذه بالولاية المعروفة بكَرْمان، فلمّا فارق بَهرام شاه غزنة ملكها علاء الدين الغُوريّ، وأحسن السيرة [في أهلها] واستعمل عليهم أخاه سيف الدين سوري، وأجلسه على تخت المملكة، وخطب لنفسه ولأخيه سيف الدين بعده.

ثمّ عاد علاء الدين إلى بلد الغور، وأمر أخاه أن يخلع على أعيان البلد خلعاً نفيسةً، ويصلهم بصلاتٍ سنيّةٍ، ففعل ذلك وأحسن [إليهم، فلمّا] جاء الشتاء، ووقع الثلج، وعلم أهل غزنة أنّ الطريق قد انقطع إليهم [كاتبوا بَهرام شاه الذي كان صاحبها، واستدعوه إليهم]، فسار نحوهم في عسكره، فلمّا قارب البلد ثار أهلُه على سيف الدين فأخذوه بغير قتال، وكان العلويّون هم الذين تولّوا أسره، وانهزم الذين كانوا معه، فمنهم مَن نجا، ومنهم مَن أُخذ، ثمّ إنّهم سوّدوا وجه سيف الدين، وأركبوه بقرة وطافوا به البلد، ثمّ صلبوه، وقالوا فيه أشعاراً يهجونه بها وغنّى بها حتّى النساء.

فلمّا بلغ الخبر إلى أخيه علاء الدين الحسين قال شعراً معناه: إن لم أقلع غزنة في مرّة واحدة، فلستُ الحسين بن الحسين. ثمّ توفّي بهَرام شاه وملك بعده ابنه خُسروشاه، وتجهّز علاء الدين الحسين وسار إلى غزنة سنة خمسين وخمسمائة، فلمّا بلغ الخبر إلى خُسروشاه سار عنها إلى لَهَاوور، وملكها علاء الدين، ونهبها ثلاثة أيّام، وأخذ العلويّين الذين أسروا أخاه فألقاهم من رؤوس الجبال، وخرّب المحلّة التي صُلب فيها أخوه، وأخذ النساء اللواتي قيل عنهنّ إنّهنّ كنّ يغنّين بهجاء أخيه والغُوريّة، فأدخلهنّ حمّاماً ومنعهنّ من الخروج حتى مُتن فيه.

وأقام بغَزنَةَ حتى أصلحها، ثمّ عاد إلى فيروزكُوه، ونقل معه من (١٦٦/١١) أهل غزنة خلقاً كثيراً، وحمّلهم المخالي مملوءة تراباً، فبنى به قلعة في فيروزكُوه، وهي موجودة إلى الآن، وتلقّب بالسلطان المعظّم وحمل الجتر على عادة السلاطين السّلجوقيّة، وقد تقدّم سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من أخبارهم، وفيه مخالفة لهذا في بعض الأمر، وكلاً سمعناه ورأيناه في مصنّفاتهم، فلهذا ذكرنا الأمرين، وأقام الحسين على ذلك مدّة، واستعمل ابني أخيه، وهما غياث الدين وشهاب الدين.

ذكر مُلك غياث الدين وشهاب الدين الغُوريّين

لما قوي أمر عمّهما علاء الدين الحسين بن الحسين استعمل العمّال والأمراء على البلاد، وكان ابنا أخيه، وهما غياث الدين أبو الفتح محمّد بن سام، وشهاب الدين أبو المظفّر محمّد بن سام، فيمن استُعمل على بلد من بلاد الغُور اسمه سَنْجَة، وكان غياث الدين يلقّب حينئذٍ شمس الدين، ويلقّب الآخر شهاب الدين، فلمّا استعملهما أحسنا السيرة في عملهما وعدلا، وبذلا الأموال، فمال النّاس إليهما، وانتشر ذكرهما، فسعى بهما مَن يحسدهما إلى عمّهما علاء الدين، وقال: إنّهما يريدان الوثوب بك، وقتْلَك، والاستيلاء على الملك؛ فأرسل عمّهما يستدعيهما إليه، فامتنعا، وكانا قد بلغهما الخبر، فلمّا امتنعا عليه جهّز إليهما عسكراً مع قائد يسمّى خروش الغُوريّ، فلمّا التقوا انهزم خروش ومَن معه، وأُسر هو، وأبقيا عليه، وأحسنا إليه، وخلعا عليه، وأظهروا عصيان عمّهما وقطعا خطبته؛ فتوجّه إليهما علاء الدين، وسارا هما أيضاً إليه،

فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم علاء الدين وأُخذ أسيراً وانهزم عسكره، فنادى فيهم ابنا أخيه بالأمان، فأحضرا عمّهما وأجلساه على التخت، (١٦٧/١١) ووقفا في خدمته، فبكى علاء الدين وقال: هذان صبيّان قد فعلا ما لو قدرتُ عليه منهما لم أفعله، ثمّ أحضر عمُّهما القاضي في الحال، وزوّج غياث الدين بنتاً له، وجعله وليّ عهده، وبقي كذلك إلى أن مات.

فلمّا توفّي ملك غياث الدين بعده وخطب لنفسه في الغُور وغزنة بالمُلك، وبقي كذلك إلى أن ملك الغُزّ غزنة بعد موت علاء الدين، طمعوا فيها بموته، وبقيت بأيديهم خمس عشرة سنة يصبّون على أهلها العذاب، ويتابعون الظلم كعادتهم [في] كلّ بلدة ملكوها، ولو أنّهم لما ملكوا أحسنوا السيرة في الرعايا لدام مُلكهم، فلم يزل الغُزّ بغزنة هذه المدّة، وغياث الدين يقوّي أمره، ويُحسن السيرة، والنّاس يميلون إليه ويقصدونه.

ذكر مُلك غِياث الدّين غَزنة وما جاورها من البلاد

لما قوي أمر غياث الدين جهّز جيشاً كثيفاً مع أخيه شهاب الدين إلى غَزنة، فيه أصناف الغُوريّة والخَلَج والخُراسانيّة، فساروا إليها، فلقيهم الغزّ وقاتلوهم، فانهزم الغوريّة، وثبت شهاب الدين وسار الغزُّ خلف المنهزمين فعطف شهاب الدين فيمن ثبت معه على صاحب عَلمهم فقتله وأخذ العَلم، وتركه على حاله، فتراجع الغزّ، ولم يكونوا علموا بما كان من شهاب الدين، فجاؤوا يطلبون عَلمهم، فكلّما جاء إليه طائفة قتلهم، فأتى على أكثرهم، ودخل غزنة وتسلّمها وأحسن السيرة في أهلها وأفاض العدل. (١٦٨/١١)

وسار من غزنة إلى كَرمان وشَنوران فملكهما، ثمّ تعدّى إلى ماء السند وعمل على العبور إلى بلد الهند، وقصد لَهَاوُور، وبها يومئذٍ خُسروشاه ابن بهرام شاه المقدّم ذكر والده، فلمّا سمع خُسروشاه بذلك سار فيمن معه إلى ماء السند، فمنعه من العبور، فرجع عنه وقصد خَرشابور فملكها وما يليها من جبال الهند، وأعمال الأبغان، والله أعلم.

ذكر مُلك شهاب الدين لَهَاوور

لما ملك شهاب الدين جبال الهند قوي أمره وجَنانه، وعظمت هيبته في قلوب النّاس، وأحبّوه لحسن سيرته، فلمّا خرج الشتاء، وأقبل الربيع من سنة تسع وسبعين وخمسمائة، سار نحو لَهَاوور في جمع عظيم، وحشد كثير من خُرسان والغور وغيرهما، فعبر إلى لَهَاوور وحصرها، وأرسل إلى صاحبها خُسروشاه وإلى أهلها يتهدّدهم إن منعوه، وأعلمهم أنّه لا يزول حتى يملك البلد، وبذل لخُسروشاه الأمان على نفسه وأهله وماله، ومن الأقطاع ما أراد، وأن يزوّج ابنته بابن خُسروشاه على أن يطأ بساطه ويخطب لأخيه، فامتنع عليه، وأقام شهاب الدين محاصراً له، مضيّقاً عليه، فلمّا رأى أهل البلد والعسكر ذلك ضعفت نيّاتهم في نصرة صاحبهم، فخذلوه، فأرسل لما رأى ذلك قاضي البلد والخطيب يطلبان له الأمان، فأجابه شهاب الدين إلى ذلك وحلف له، وخرج إليه، ودخل الغُوريّة إلى المدينة، وبقي كذلك شهرين مكرّماً عند شهاب الدين، فورد رسول من غياث الدين إلى شهاب الدين يأمره بإنفاذ خُسروشاه إليه. (١٦٩/١١)

ذكر انقراض دولة سبكْتكين

لما أنفذ غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين يطلب إنفاذ خُسروشاه إليه أمره شهاب الدين بالتجهّز والمسير، فقال: أنا لا أعرف أخاك، ولا لي حديث إلاّ معك، ولا يمين إلاّ في عنقك، فمنّاه وطيّب قلبه، وجهّزه وسيّره وسيّر معه ولده، وأصحبهما جيشاً يحفظونهما، فسارا كارهَين، فلمّا بلغا فَرْشَابُور خرج أهلها إليهما يبكون ويدعون لهما، فزجرهم الموكّلون بهما، وقالوا: سلطانٌ يزور سلطاناً آخر، لأيّ شيء تبكون؟ وضربوهم فعادوا، وخرج ولد خطيبها إلى خُسروشاه عن أبيه متوجّعاً له، قال: فلمّا دخلتُ عليه أعلمتُه رسالة أبي، وقلتُ: إنّه قد اعتزل الخطابة، ولا حاجة به إلى خدمة غيركم. فقال لي: سَلّم عليه. وأعطاني فرجيةً فوطاً ومصلّى من عمل الصوفيّة، وقال: هذه تذكرة أبيه عند أبي، فسلّمها إليه وقل له: دُرْ مع الدهر كيفما دار ; وأنشد بلسان فصيح :

ولَيسَ كعَهدِ الدّار يا أمّ مالكٍ ولكن أحاطتْ بالرّقابِ السّلاسلُ

قال: فانصرفتُ إلى أبي وعرّفتُه الحال، فبكى، وقال: قد أيقن الرجل بالهلاك، ثمّ رحلوا. فلمّا بلغوا بلد الغُور لم يجتمع بهما غياث الدين بل أمر بهما فرُفعا إلى بعض القلاع، فكان آخر العهد بهما.

وهو آخر ملوك آل سبكْتكين، وكان ابتداء دولتهم سنة ستّ وستّين وثلاثمائة، فتكون مدّة ولايتهم مائتَيْ سنة وثلاث عشرة سنة تقريباً. وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة، ولا سيّما جدّة محمود، فإنّ آثاره في الجهاد معروفة، وأعماله للآخرة مشهورة :

لو كانَ يقعدُ فوقَ الشّمس من كَرمٍ قَومٌ بأوّلهم أو مَجدِهم قَعَدُوا

(١٧٠/١١)

فتبارك الذي لا يزول مُلكه، ولا تغيّره الدهور، فأُفّ لهذه الدنيا الدنيّة، كيف تفعل هذا بأبنائها؛ نسأل الله تعالى أن يكشف عن قلوبنا حتى نراها بعين الحقيقة، وأن يُقبل بنا إليه، وأن يشغلنا به عمّا سواه، إنّه على كلّ شيء قدير.

هكذا ذكر بعض فضلاء خراسان أنّ خُسروشاه آخر ملوك آل سبكْتكين، وقد ذكر غيره أنّه توفّي في المُلك، وملّك بعده ابنه مَلكشاه. وسنذكره في سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وبالجملة فابتداء دولة الغُوريّة عندي فيه خُلفٌ لو ينكشف الحقّ فأصلحه إن

شاء الله تعالى.

ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطنة

لما استقرّ مُلكهم بلَهَاوُور واتّسعت مملكتهم وكثرت عساكرهم وأموالهم كتب غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة، وتلقّب بألقاب السلاطين، وكان لقبه شمس الدين، فتلقّب غياث الدين والدنيا معين الإسلام، قسيم أمير المؤمنين، ولقّب أخاه معزّ الدين، ففعل شهاب الدين ذلك وخطب له بالسلطنة.

ذكر مُلك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان

لم فرغ شهاب الدين من إصلاح أمر لَهَاوور وتقرير قواعدها، سار إلى أخيه غياث الدين، فلمّا اجتمع به استقرّ رأيهما على المسير إلى خراسان وقصد (١٧١/١١) مدينة هَراة ومحاصرتها، فسارا في العساكر الكثيرة إليها، وكان بها جماعة من الأتراك السنجريّة، فنازلا البلد وحصراه، وضيّقا على مَن به، فاستسلموا إليهما، وأرسلوا يطلبون الأمان منهما، فأجاباهم إلى ذلك وأمّناهم، فتسلّما البلد، وأخرجا مَن فيه من الأمراء السّنجَريّة، واستناب فيه غياث الدين خزْنَك الغوريّ، وسار غياث الدين وأخوه إلى فُوشَنْج فملكها، ثمّ إلى بادَغيس وكالين وبَيوَار فملكاها أيضاً، وتسلّم ذلك جميعه غياث الدين وأحسن السيرة في أهل البلاد، ورجع إلى فيروزكُوه، ورجع شهاب الدين إلى غزنة، وكان ينبغي أنْ حوادث الغوريّة تُذكر في السنين، وإنّما جمعناها ليتلو بعضها بعضاً، ولأنّ فيه ما لم يُعرف تاريخه فتركناه بحاله.

ذكر مُلك شهاب الدين مدينة آجرة من بلد الهند

لما رجع شهاب الدين من خراسان إلى غزنة أقام بها حتى أراح واستراح هو وعساكره، ثمّ سار إلى بلد الهند، فحاصر مدينة آجرة، وبها مَلِك من ملوك الهند، فلم يظفر منه بطائل، وكان للهنديّ زوجة غالية على أمره، فراسلها شهاب الدين أنّه يتزوّجها، فأعادت الجواب أنّها لا تصلح له، وأنّ لها ابنة (١٧٢/١١) جميلة تزوّجه إيّاها، فأرسل إليها يجيبها إلى التزوج بابنتها، فسقتْ زوجها سُمّاً فمات وسلّمت البلد إليه.

فلمّا تسلّمه أخذ الصبية فأسلمت، وتزوّجها، وحملها إلى غزنة، وأجرى عليها الجرايات الوافرة، ووكّل بها مَن علّمها القرآن، وتشاغل عنها، فتوفّيت والدتها، ثم توفّيت هي بعد عشر سنين، ولم يرها ولم يقربها، فبنى لها مشهداً ودفنها فيه، وأهل غزنة يزورون قبرها.

ثمّ عاد إلى بلد الهند، فذلّ له صعابها، وتيسّر له فتح الكثير من بلادهم، ودوّخ ملوكهم، وبلغ منهم ما لم يبلغه أحد قبله من ملوك المسلمين.

ذكر ظفر الهند على المسلمين

لما اشتدّت نكاية شهاب الدين في بلاد الهند وإثخانه في أهلها واستيلاؤه عليها، اجتمع ملوكهم وتآمروا بينهم، وبَخ بعضهم بعضاً، فاتّفق رأيهم على الاجتماع والتعاضد على حربه، فجمعوا عساكرهم وحشدوا، وأقبل إليهم الهنود من كلّ فجّ عميق على الصعب والذلول، وجاؤوا بحدّهم وحديدهم، وكان الحاكم على جميع الملوك المجتمعين امرأة هي من أكبر ملوكهم.

فلمّا سمع باجتماعهم ومسيرهم إليه تقدّم هو أيضاً إليهم في عسكر عظيم من الغُوريّة والخَلَج والخُراسانيّة وغيرهم، فالتقوا واقتتلوا، فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم المسلمون وركبهم الهنود يقتلون ويأسرون، وأثخنوا فيهم، وأصاب شهاب الدين ضربة بطلت منها يده اليُسرى، وضربة أخرى على رأسه سقط منها إلى الأرض، وحجز الليل بين الفريقين، فأحسّ شهاب الدين بجماعة من غلمانه الأتراك في ظلمة اللّيل وهم يطلبونه في القتلى ويبكون، (١٧٣/١١) وقد رجع الهنود إلى ورائهم، وكلمّهم وهو على ما به من الجهد، فجاؤوا إليه مسرعين، وحملوه على رؤوسهم رجّالة يتناوبون حمله، حتى بلغوا مدينة آجرة مع الصباح.

وشاع خبر سلامته في النّاس، فجاؤوا إليه يهنّئونه من أقطار البلاد، فأوّل ما عمل أنّه أخذ أمراء الغُوريّة الذين انهزموا عنه وأسلموه، فملأ مخالي خيلهم شعيراً، وحلف لئن لم يأكلوه ليضربنّ أعناقهم، فأكلوه ضرورة.

وبلغ الخبر إلى أخيه غياث الدين فكتب إليه يلومه على عجلته وإقدامه وأنفذ إليه جيشاً عظيماً.

ذكر ظفر المسلمين بالهند

لما سلم شهاب الدين وعاد إلى آجرة، وأتاه المدد من أخيه غياث الدين، عاد الهنود فجدّدوا سلاحهم، ووفروا جمعهم، وأقاموا عوضَ مَن قُتل منهم، وسارت ملكتهم وهم معها في عدد يضيق عنه الفضاء، فراسلها شهاب الدين يخدعها بأنّه يتزوّجها، فلم تجبه إلى ذلك، وقالت: إمّا الحرب، وإمّا أنْ تسلّم بلاد الهند وتعود إلى غزنة، فأجابها إلى العود إلى غزنة، وأنّه يستأذن أخاه غياث الدين، فعل ذلك مكراً وخديعةً.

وكان بين العسكرين نهرٌ، وقد حفظ الهنود المخاضات، فلا يقدر أحد من المسلمين [أن] يجوزه، وأقاموا ينتظرون ما يكون من جواب غياث الدين بزعمهم، فبينما هم كذلك إذ وصل إنسانٌ هنديّ إلى شهاب الدين وأعلمه أنّه يعرف مخاضاً قريباً من عسكر الهنود، وطلب أنْ يرسل معه جيشاً يعبّرهم المخاض، (١٧٤/١١)

ويكسبون الهنود وهم غارّون غافلون، فخاف شهاب الدين أن تكون خديعة ومكراً، فأقام له ضمناء من أهل آجرة والمُولتان، فأرسل معه جيشاً كثيفاً، وجعل عليهم الأمير الحسين بن خُرميل الغوريّ، وهو الذي صار بعدُ صاحب هَراة، وكان من الشجاعة والرأي بالمنزلة المشهورة.

فسار الجيش مع الهنديّ، فعبروا النهر، فلم يشعر الهنود إلاّ وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم، فاشتغل الموكّلون بحفظ المخاضات، فعبر شهاب الدين وباقي العساكر، وأحاطوا بالهنود، وأكثروا القتل فيهم، ونادوا بشعار الإسلام، فلم ينجُ من الهنود إلاّ مَن عجز المسلمون عن قتله وأسره، وقُتلت ملكتهم، وتمكّن شهاب الدين بعد هذه الوقعة من بلاد الهند، وأمن معرّة فسادهم، والتزموا له بالأموال وسلّموا إليه الرهائن وصالحوه، وأقطع مملوكه قطب الدين ايبك مدينة دَهْلي، وهي كرسي الممالك التي فتحها من الهند، فأرسل عسكراً من الخَلَج مع محمّد بن بختيار، فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل إليها مسلم قبله، حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق.

وقد حدّثني صديق لي من التجار بوقعتين تشبهان هاتَين الوقعتَين المذكورتين وبينهما بعض الخلاف، وقد ذكرناهما سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة. (١٧٥/١١)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّي يعقوب الكاتب ببغداد، وكان يسكن بالمدرسة النظاميّة، وحضر متولّي المتروكات وختم على الغرفة التي كان يسكنها بالمدرسة، فثار الفقهاء وضربوا المتولّي وأخذوا التركة، وهذه عادتهم فيمن يموت بها وليس له وارث، فقبض حاجب الباب على رجلَين من الفقهاء وعاقبهما، وحبسهما، فأغلق الفقهاء المدرسة، وألقوا كرسي الوعّاظ في الطريق، وصعدوا سطح المدرسة ليلاً، واستغاثوا، وتركوا الأدب.

وكان حينئذٍ مدرّسهم الشيخ أبا النجيب، فجاء وألقى نفسه تحت التاج يعتذر، فعُفي عنه.

وفيها توفّي حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وميّافارقين، وكانت ولايته نيّفاً وثلاثين سنة، وتولّى بعده ابنه نجم الدين ألبي.

وفيها مات أبو الفضل محمّد بن عمر بن يوسف الأرموي الشافعي المحدّث، ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة.

وفيها توفّي أبو الأسعد عبد الرحمن القُشَيريّ في شوّال، وهو شيخ شيوخ خراسان.

وفيها، في المحرّم، باض ديك ببغداد بيضة، وباض بازي بيضتين، وباضت نَعامة لا ذكر معها بيضة. (١٧٦/١١)

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ذكر انهزام سَنجَر من الغُزّ ونهبهم خراسان وما كان منهم

في هذه السنة، في المحرّم، انهزم السلطان سَنجَر من الأتراك الغُزّ، وهم طائفة من الترك مسلمون، كانوا بما وراء النهر، فلمّا ملكَ الخَطَا أخرجوهم منه، كما ذكرنا، فقصدوا خُراسان، وكانوا خلقاً كثيراً، فأقاموا بنواحي بَلْخ يرعون في مراعيها، وكان لهم أمراء اسم أحدهم دينار، والآخر بَخْتيار، والآخر طَوطي، والآخر أرسلان، والآخر جَغَر، والآخر محمود، فأراد الأمير قَماج، وهو مقطع بلخ، إبعادهم، فصانعوه بشيء بذلوه له، فعاد عنهم، فأقاموا على حالةٍ حسنةٍ لا يؤذون أحداً، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة.

ثمّ إنّ قماج عاودهم وأمرهم بالانتقال عن بلده، فامتنعوا، وانضمّ بعضهم إلى بعض، واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك، فسار قماج إليهم في عشرة آلاف فارس، فجاء إليه أمراؤهم وسألوه أن يكفّ عنهم، ويتركهم في مراعيهم، ويعطونه من كلّ بيت مائتَيْ درهم فضّة، فلم يجبهم إلى ذلك وشدّد عليهم في الانتزاح عن بلده، فعادوا عنه، واجتمعوا وقاتلوه، فانهزم قماج ونهبوا ماله ومال عسكره، وأكثروا القتل في العسكر والرعايا، (١٧٧/١١) واسترقّوا النساء والأطفال، وعملوا كلّ عظيمة، وقتلوا الفقهاء وخرّبوا المدارس.

وانتهت الهزيمة بقَماج إلى مرو، وبها السلطان سَنجَر، فأعلمه الحال، فراسلهم سنجَر يتهدّدهم، فأمرهم بمفارقة بلاده، فاعتذروا، وبذلوا بذلاً كثيراً ليكفّ عنهم ويتركهم في مراعيهم، فلم يجبهم إلى ذلك، وجمع عساكره من أطراف البلاد، واجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس، وقصدهم ووقع بينهم حربٌ شديدة، فانهزمت عساكر سَنجر، وانهزم هو أيضاً، وتبعهم الغُزّ قتلاً وأسراً، فصار قتلى العسكر كالتلال، وقُتل علاء الدين قَماج، وأُسر [السلطان سَنجر، وأُسر] معه جماعة من الأمراء، [فأمّا الأمراء] فضربوا أعناقهم، وأمّا السلطان سَنجر، فإنّ أمراء الغُزّ اجتمعوا، وقبّلوا الأرض بين يديه، وقالوا: نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك، فقد علمنا أنّك لم ترد قتالنا، وإنّما حُملتَ عليه، فأنت السلطان ونحن العبيد. فمضى على ذلك شهران، أو ثلاثة، ودخلوا معه إلى مرو وهي كرسي مُلك خراسان، وطلبها منه بختيار إقطاعاً، فقال السلطان هذه دار الملك ولا يجوز أن تكون إقطاعاً لأحد. فضحكوا منه وحبق له بختيار بفمه، فلمّا رأى ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خانكاه مَروْ وتاب عن الملك.

واستولى الغُزّ على البلاد، وظهر منهم من الجور ما لم يُسمع

بمثله، وولّوا على نَيسابور والياً، فقسط على النّاس كثيراً وعسفهم وضربهم، وعلق في الأسواق ثلاث غرائر، وقال: أريد ملء هذه ذهباً، فثار عليه العامّة فقتلوه ومَن معه، فركب الغُزّ ودخلوا نَيسابور ونهبوها نهباً مجحفاً، وجعلوها قاعاً (١٧٨/١١) صفصفاً، وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها، وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد كلّها، فممّن [قُتل] الحسين بن محمّد الأرسابَنديّ، والقاضي عليّ بن مسعود، والشيخ محمّد بن يحيَى، وأكثر الشعراء في مراثي محمّد بن يحيَى فممّن قال فيه عليُّ بن إبراهيم الكاتب :

مضَى الذي كانَ يُجْنَى الدُّرُ من فيه ... يَسيلُ بالفَضْلِ والإفضَالِ واديهِ
مضى ابن يحيَى الذي قد كانَ صوب حيا ... لأبسر شَهْرٍ وَمِصْباحاً لِدَاجِيهِ
خَلا خُراسانُ من عِلْمٍ وَمن وَرَعٍ ... لَمّا نَعَاهُ إلى الآفاقِ ناعِيهِ
لَمّا أماتُوهُ ماتَ الدّينُ وا أسَفا ... مَنْ ذا الذي بعد محيي الدّينِ يُحيِيهِ

ويتعذّر وصف ما جرى منهم على تلك البلاد جميعها، ولم يسلم من خراسان شيء لم تنهبه الغُزّ غير هَراة وبِهسْتان لأنّها كانت حصينة فامتنعت.

وقد ذكر بعض مؤرّخي خُراسان من أخبارهم ما فيه زيادة وضوح وقال: إنّ هؤلاء الغزّ قوم انتقلوا من نواحي الثغر من أقاصي الترك إلى ما وراء النهر في أيّام المهدي، وأسلموا، واستنصر بهم المقنّع صاحب المخاريق والشعبذة، حتى تمّ أمره، فلمّا سارت العساكر إليه خذله هؤلاء الغزّ وأسلموه، وهذه عادتهم في كلّ دولة كانوا فيها، وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الخاقانيّة، إلاّ أن الأتراك القارغليّة قمعوهم، وطردوهم عن أوطانهم، فدعاهم الأمير زنكي بن خليفة الشيباني المستولي على حدود طَخارستان إليه، وأنزلهم بلاده، وكانت بينه وبين الأمير قَماج عداوة أحكمتها الأيّام للمجاورة التي بينهما، وكلّ منهما يريد أن يعلو على الآخر ويحكم عليه، (١٧٩/١١) فتقوّى بهم زنكي، وساروا معه إلى بَلخ لمحاربة قماج، فكاتبهم قماج، فمالوا إليه، وخذلوا زنكي عند الحرب، فأخذ زنكي وابنه أسيرين، فقتل قماجُ ابنَ زنكي، وجعل يطعم أباه لحمه، ثمّ قتل الأب أيضاً، وأقطع قماج الغزّ مواضع، وأباحهم مراعي بلاده.

فلمّا قام الحسين بن الحسين الغوريّ بغزنة وقصد بلخ خرج إليه قماج وعساكره ومعه الغزّ، ففارقه الغزّ وانضمّوا إلى الغوريّ حتى ملك مدينة بلخ، فسار السلطان سَنجَر إلى بَلخ، ففارقها الغوريّ بعد قتال انهزم منه، ثمّ دخل على السلطان سَنجَر لعجزه عن مقاومته، فردّه إلى غزنة.

وبقي الغزّ بنواحي طَخارستان وفي نفس قماج منهم الغيظ العظيم لما فعلوه معه، فأراد صرفهم عن بلاده، فتجمّعوا، وانضمّ إليهم طوائف من الترك، وقدّموا عليهم أرسلان بُوقا التركي، فجمع قماج عسكره ولقيهم فاقتتلوا يوماً كاملاً إلى اللّيل، فانهزم قماج وعسكره، وأُسر هو وابنه أبو بكر، فقتلوهما، واستولوا على نواحي بلخ، وعاثوا فيها وأفسدوا بالنهب والقتل والسلب.

وبلغ السلطانَ سَنجَر الخبرُ، فجمع عساكره وسار إليهم، فراسلوه يتعذرون ويتنصّلون، فلم يقبل عذرهم، ووصل إليهم مقدّمة السلطان، وفيها محمّد بن أبي بكر بن قماج المقتول، والمؤيّد أي أبه في المحرّم من سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، ووصل بعدهم السلطان سَنجَر، فالتقاه الغزّ بعد أن أرسلوا يعتذرون ويبذلون الأموال والطاعة والانقياد إلى كلّ ما يؤمرون به، فلم يقبل سنجر ذلك منهم، وسار إليهم، فلقوه وقاتلوه وصبروا له، ودام قتالهم، فانهزم عسكر سنجر وهو معهم، فتوجّهوا إلى بَلخ على أقبح (١٨٠/١١) صورة، وتبعهم الغزّ، واقتتلوا مرّة ثانية، فانهزم السلطان سنجر أيضاً، ومضى منهزماً إلى مَرْوَ في صفر من السنة، فقصد الغزّ إليها، فلمّا سمع العسكر الخُراساني بقربهم منهم أجفلوا من بين أيديهم هاربين لما دخل قلوبهم من خوفهم والرعب منهم، فلمّا فارقها السلطان والعسكر دخلها الغزّ ونهبوها أفحش نهب وأقبحه، وذلك في جمادى الأولى من السنة، وقُتل بها كثير من أهلها وأعيانها، منهم قاضي القضاة الحسن بن محمّد الأرسابَنديّ، والقاضي عليُّ بن مسعود وغيرهما من الأئمّة العلماء.

ولما خرج سنجر من مرو قصد اندرابة وأخذه الغزّ أسيراً، وأجلسوه على تخت السلطنة على عادته، وقاموا بين يديه، وبذلوا له الطاعة، ثمّ عاودوا الغارة على مرو في رجب من السنة، فمنعهم أهلها، وقاتلوهم قتالاً بذلوا فيه جهدهم وطاقتهم، ثمّ إنّهم عجزوا، فاستسلموا إليهم، فنهبوها أقبح من النّهب الأوّل ولم يتركوا بها شيئاً.

وكان قد فارق سنجر جميع أمراء خراسان ووزيره طاهر بن فخر المُلك ابن نظام المُلك، ولم يبقَ عنده غير نفر يسير من خواصّه وخدمه، فلمّا وصلوا إلى نَيسابور أحضروا الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد، فوصل إلى نَيسابور تاسع عشر جمادى الآخرة من السنة، فاجتمعوا عليه، وخطبوا له بالسلطنة، وسار في هذا الشهر جماعة من العسكر السلطانيّ إلى طائفة كثيرة من الغزّ، فأوقعوا بهم، وقتلوا منهم كثيراً، وانهزم الباقون إلى أمرائهم الغُزّيّة فاجتمعوا معهم.

ولما اجتمعت العساكر على الملك سليمان شاه ساروا إلى مرو يطلبون الغزّ، فبرز الغزّ إليهم، فساعة رآهم العسكر الخراسانيّ انهزموا وولّوا على (١٨١/١١) أدبارهم، وقصدوا نَيسابور، وتبعهم الغزّ، فمرّوا بطُوس، وهي معدن العلماء والزهّاد، فنهبوها، وسبوا نساءها، وقتلوا رجالها، وخرّبوا مساجدها ومساكن أهلها، ولم يسلم من جميع ولاية طُوس إلاّ البلدُ الذي فيه مشهد عليّ بن

موسى الرضى، ومواضع أُخر يسيرة لها أسوار.

وممّن قُتل من أعيان أهلها إمامها محمّد المارشكيّ، ونقيب العلويّين بها عليّ المُوسوي، وخطيبها إسماعيل بن المُحسن، وشيخ شيوخها محمّد بن محمّد، وأفنوا من بها من الشيوخ الصالحين، وساروا منها إلى نَيسابور، فوصلوا إليها في شوّال سنة تسع وأربعين [وخمسمائة]، ولم يجدوا دونها مانعاً ولا مدافعاً، فنهبوها نهباً ذريعاً، وقتلوا أهلها، فأكثروا حتى ظنّوا أنّهم لم يُبقوا بها أحداً، حتى إنّه أُحصي في محلّتين خمسة عشر ألف قتيل من الرجال دون النساء والصبيان، وسبوا نساءها وأطفالها، وأخذوا أموالهم، وبقي القتلى في الدروب كالتلال بعضهم فوق بعض، واجتمع أكثر أهلها بالجامع المنيعي وتحصّنوا به، فحصرهم الغزّ فعجز أهل نَيسابور عن منعهم، فدخل الغزّ إليهم فقتلوهم عن آخرهم، وكانوا يطلبون من الرجال المال، فإذا أعطاهم الرجل ماله قتلوه وقتلوا كثيراً من أئمّة العلماء والصالحين، منهم محمّد بن يحيَى الفقيه الشافعيّ الذي لم يكن في زمانه مثله، كان رحلة النّاس من أقصى الغرب والشرق إليه، ورثاه جماعة من العلماء، منهم أبو الحسن عليُّ بن أبي القاسم البَيْهَقيّ فقال :

يا سافِكاً دَمَ عالِمٍ مُتَبَحِّرٍ ... قد طارَ في أقصى الممالكِ صيتُهُ
باللّه قُلْ لي يا ظَلومُ ولا تخفْ ... مَن كانَ يُحيي الدّين كيفَ تميتُهُ

ومنهم الزاهد عبد الرحمن بن عبد الصمد الأكّاف، وأحمد بن الحسين (١٨٢/١١) الكاتب سبط القُشَيريّ، وأبو البركات الفُراويّ، والإمام عليّ الصبّاغ المتكلّم، وأحمد بن محمّد بن حامد، وعبد الوهّاب الملقاباذيّ، والقاضي صاعد بن عبد الملك بن صاعد، والحسن بن عبد الحميد الرازيّ وخلق كثير من الأئمّة والزهّاد والصالحين، وأحرقوا ما بها من خزائن الكتب ولم يسلم إلاّ بعضها.

وحصروا شارستان، وهي منيعة، فأحاطوا بها، وقاتلهم أهلها من فَوق سورها، وقصدوا جُوَيْن فنهبوها، وقاتلهم أهل بحراباذ من أعمال جُوَيْن، وبذلو نفوسهم لله تعالى، وحموا بيضتهم والباقي أتَى النّهب والقتل عليه، ثمّ قصدوا أسفرايين فنهبوها وخرّبوها، وقتلوا في أهلها فأكثروا.

وممّن قُتل عبد الرشيد الأشعثيّ، وكان من أعيان دولة السلطان، فتركها وأقبل على الاشتغال بالعلم وطلب الآخرة. وأبو الحسن الفَنْدَروجيّ، وكان من ذوي الفضائل لا سيّما في علم الأدب.

ولما فرغ الغُزّ من جُوَين وأسفرايين عاودوا نيسابور، فنهبوا ما بقي فيها بعد النهب الأوّل، وكان قد لحق بشَهْرَستان كثير من أهلها، فحصرهم الغزّ واستولوا عليها، ونهبوا ما كان فيها لأهلها ولأهل نيسابور، ونهبوا الحُرَم والأطفال، وفعلوا ما لم يفعله الكفّار مع المسلمين، وكان العيّارون أيضاً ينهبون نيسابور أشدّ من نهب الغزّ ويفعلون أقبح من فعلهم.

ثم إنّ أمر الملك سليمان شاه ضعف، وكان قبيح السيرة سَيِّئ التدبير، وإنّ وزيره طاهر بن فخر المُلك بن نظام المُلك تَوَقّى في شوّال سنة ثمان وأربعين [وخمسمائة] فضعف أمره، واستوزر سليمان شاه بعده ابنه نظام المُلك أبا (١٨٣/١١) عليّ الحسن بن طاهر وانحلّ أمر دولته بالكلّيّة، ففارق خُراسان في صفر سنة تسع وأربعين [وخمسمائة] وعاد إلى جُرجان، فاجتمع الأمراء وراسلوا الخان محمود بن محمّد بن بُغراخان، وهو ابن أخت السلطان سَنجَر وخطبوا له على منابر خراسان، واستدعوه إليهم، فملّكوه أمورهم، وانقادوا له في شوّال سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وساروا معه إلى الغزّ وهم يحاصرون هَراة، وجرت بينهم حروبٌ كان الظفر في أكثرها للغزّ، ورحلوا في جمادى الأولى من سنة خمسين وخمسمائة عن على هراة إلى مرو، وعاودوا المصادرة لأهلها.

وسار خاقان محمود بن محمّد إلى نيسابور وقد غلب عليها المؤيّد، على ما نذكره، وراسل الغزّ في الصلح، فاصطلحوا في رجب من سنة خمسين وخمسمائة، هدنةً على دخَن، وسيرد باقي أخبارهم سنة اثنتين وخمسين.

ذكر مُلك المؤيّد نَيسابور وغيرها

كان للسلطان سَنجَر مملوك اسمه أي أبه، ولقبه المؤيّد، فلمّا كانت هذه الفتنة تقدّم، وعلا شأنه، وأطاعه كثير من الأمراء، واستولى على نَيسابور وطُوس ونَسَا وأبيوَرْدَ وشَهْرستانَ والدّامغان، وأزاح الغُزّ عن الجميع، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأحسن السيرة، وعدل في الرعيّة، واستمال النّاس، ووفّر الخراج على أهله، وبالغ في مراعاة أرباب البيوت، فاستقرّت البلاد له، ودانت له الرعيّة لحسن سيرته، وعظم شأنه، وكثرت جموعُه، فراسله خاقان محمود بن محمّد في تسليم البلاد والحضور عنده، فامتنع، وتردّدت (١٨٤/١١) الرسل بينهم حتى استقرّ على المؤيّد مال يحمله إلى الملك محمود، فكفّ عنه محمود، وأقام المؤيّد بالبلاد هو والملك محمود.

ذكر ملك إينانج الرّيّ

كان إينانج أحد مماليك السلطان سَنجَر، فلمّا كان من فتنة الغُزّ ما ذكرناه هرب من خراسان، ووصل إلى الرّيّ، فاستولى عليها وأقام بها، فأرسل إلى السلطان محمّد شاه بن محمود صاحب همذان، وأصفهان، وغيرهما، خدمه وهدايا فأرضاه بها، وأظهر له الطاعة، وبقي بها إلى أن مات الملك محمود، فاستولى عليها

وعلى عدّة بلاد تجاور الريّ، فملكها، فعظم أمره وعلا شأنه وصارت عساكره عشرة آلاف فارس.

فلمّا ملك سليمان شاه هَمَذان، على ما نذكره، حضر عنده، وأطاعه لأنسه به. كان أيّام مقام سليمان شاه بخُراسان، فتقوّى أمره بذلك.

ذكر قتل ابن السلاّر وزير الظافر ووزارة عبّاس

في هذه السنة، في المحرّم، قُتل العادل بن السلاّر وزير الظافر باللّه؛ قتله ربيبه عبّاس بن أبي الفتوح بن يحيَى الصنّهاجيّ، وأشار عليه بذلك الأمير أُسامة بن مُنقِذ، ووافق عليه الخليفة الظافرُ باللّه، فأمر ولده نصراً، فدخل على العادل وهو عند جدّته أمّ عبّاس، فقتله ووليَ الوزارة بعده ربيبُه عبّاس. (١٨٥/١١)

وكان عبّاس قد قدم من المغرب، كما ذكرناه، إلى مصر، وتعلّم الخياطة، وكان خيّاطاً حسناً، فلمّا تزوّج ابن السلاّر بأمّه أحبّه، وأحسن تربيته، فجازاه بأن قتله ووليَ بعده.

وكانت الوزارة في مصر لمن غلب، والخلفاء من وراء الحجاب، والوزراء كالمتملّكين، وقلّ أن وليها أحدٌ بعد الأفضل إلاّ بحرب وقتْل وما شاكل ذلك، فلذلك ذكرناهم في تراجم مفردة، واللّه أعلم.

ذكر الحرب بين العرب وعساكر عبدالمؤمن

في هذه السنة، في صفر، كانت الحرب بين عسكر عبد المؤمن والعرب عند مدينة سَطيف.

وسبب ذلك أنّ العرب، وهم بنو هلال والأبتح وعَديّ ورياح وزُغْب، وغيرهم من العرب، لما ملك عبد المؤمن بلاد بني حمّاد اجتمعوا من أرض طرابُلُس إلى أقصى المغرب، وقالوا: إن جاورنا عبد المؤمن أجلانا من المغرب، وليس الرأي إلاّ إلقاء الجدّ معه، وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكّن.

وتحالفوا على التعاون والتضافر، وأن لا يخون بعضهم بعضاً، وعزموا على لقائه بالرجال والأهل والمال ليقاتلوا قتال الحريم.

واتّصل الخبر بالملك رُجّار الفرنجيّ، صاحب صقلّية، فأرسل إلى أمراء العرب، وهم مُحرز بن زياد، وجُبارة بن كامل، وحسن بن ثعلب، وعيسى (١٨٦/١١) ابن حسن وغيرهم، يحثّهم على لقاء عبد المؤمن ويعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم على شرط أن يرسلوا إليه الرهائن، فشكروه وقالوا: ما بنا حاجة إلى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين.

وساروا في عدد لا يُحصى، وكان عبد المؤمن قد رحل من بجاية إلى بلاد المغرب، فلمّا بلغه خبرهم جهّز جيشاً من الموحّدين يزيد على ثلاثين ألف فارس، واستعمل عليهم عبد اللّه بن عُمر الهَنتاتي، وسعد اللّه بن يحيَى، وكان العرب أضعافهم، فاستجرّهم الموحّدون وتبعهم العرب إلى أن وصلوا إلى أرض سَطيف، بين جبال، فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن فجاءه والعرب على غير أهبة، والتقى الجمعان، واقتتلوا أشدّ قتال وأعظمه، فانجلت المعركة عن انهزام العرب ونصرة الموحّدين.

وترك العرب جميع ما لهم من أهل ومال وأثاث ونَعَم، فأخذ الموحّدون جميع ذلك، وعاد الجيش إلى عبد المؤمن بجميعه، فقسم جميع الأموال على عسكره، وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط، ووكّل بهم من الخدم الخصيان مَن يخدمهم ويقوم بحوائجهم، وأمر بصيانتهم. فلمّا وصلوا معه إلى مَرّاكُش أنزلهم في المساكن الفسيحة، وأجرى لهم النفقات الواسعة، وأمر عبد المؤمن ابنه محمّداً أن يكاتب أمراء العرب ويُعلمهم أنّ نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة، وآمرهم أن يحضروا ليسلّم إليهم أبوه ذلك جميعه، وأنّه قد بذل لهم الأمان والكرامة.

فلمّا وصل كتاب محمّد إلى العرب سارعوا إلى المسير إلى مَرّاكُش، فلمّا وصلوا إليها أعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن إليهم وأعطاهم أموالاً جزيلةً، فاسترقّ قلوبهم بذلك، وأقاموا عنده، وكان بهم حفيّاً، واستعان بهم على ولاية ابنه محمّد للعَهد، على ما نذكره سنة إحدى وخمسين [وخمسمائة]. (١٨٧/١١)

ذكر مُلك الفرنج مدينة بُونَة وموت رجّار ومُلك ابنه غُليالم

في هذه السنة سار أسطول رجّار ملك الفرنج بصقلّية إلى مدينة بُونة، وكان المقدّم عليهم فتاه فيلب المَهدَويّ فحصرها واستعان بالعرب عليها، فأخذها في رجب، وسبَى أهلها، وملك ما فيها، غير أنّه أغضى عن جماعة من العلماء والصالحين، حتى خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى، فأقام بها عشرة أيّام، وعاد إلى المهديّة وبعض الأسرى معه، وعاد إلى صقلّية فقبض رجّار عليه لما اعتمده من الرفق بالمسلمين في بُونَة.

وكان فيلب، يقال إنّه وجميع فتيانه مسلمون، يكتمونه ذلك، وشهدوا عليه أنّه لا يصوم مع الملك، وأنّه مسلم، فجمع رجّار الأساقفة والقسوس والفرسان، فحكموا بأن يُحرق، فأُحرق في رمضان، وهذا أوّل وَهْن دخل على المسلمين بصقلّية. ولم يمهل اللّه رجّار بعده إلاّ يسيراً حتى [مات] في العشر الأول من ذي الحجّة من السنة، وكان مرضه الخوانيق، وكان عمره قريب ثمانين سنة، وكان مُلكُه نحو ستّين سنة، ولما مات ملك بعده ابنه غُليالم، وكان فاسد التدبير سيّء التصوير، فاستوزر مايو البِرصانيّ، فأساء التدبير، فاختلفت عليه حصون من جزيرة صقلية، وبلاد قلّورية، وتعدّى الأمر إلى إفريقية على ما نذكره. (١٨٨/١١)

ذكر وفاة بَهرام شاه صاحب غزنة

في هذه السنة، في رجب، توفّي السلطان بَهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنةَ بها، وقام بالملك بعده ولد نظام الدين خُسروشاه، وكانت ولاية بهرام شاه ستّاً وثلاثين سنة، وكان عادلاً، حسن السيرة، جميل الطريقة، محباً للعلماء، مُكرماً لهم، باذلاً لهم الأموال الكثيرة، جامعاً للكتب تُقْرأ بين يديه، ويفهم مضمونها. ولما مات ملك ولده خُسروشاه.

ذكر مُلك الفرنج مدينة عَسقَلان

في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عَسقَلان، وكانت من جملة مملكة الظافر باللّه العلويّ المصريّ، وكان الفرنج كلّ سنة يقصدونها ويحصرونها، فلا يجدون إلى مُلكها سبيلاً، وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد، والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته، وكان الوزراء كلّ سنة يرسلون إليها من الذخائر والأسلحة والأموال والرجال مَن يقوم بحفظها. فلمّا كان في هذه السنة قُتل ابن السلاّر الوزير، على ما ذكرناه، واختلفت الأهواء في مصر، وولي عبّاس الوزارة، وإلى أن استقرّت قاعدةٌ، اغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان، فاجتمعوا وحصروها، فصبر أهلها، وقاتلوهم قتالاً شديداً، حتى إنهّم بعض الأيّام قاتلوا خارج السور، وردّوا الفرنج إلى خيامهم مقهورين، وتبعهم أهل البلد إليها فأيِس حينئذٍ الفرنج من مُلكه.

فبينما هم على عزم الرحيل إذ قد أتاهم الخبر أنّ الخُلَف قد وقع بين (١٨٩/١١) أهله، وقُتل بينهم قتلى، فصبروا، وكان سبب هذا الاختلاف أنّهم لما عادوا عن قتال الفرنج قاهرين منصورين، ادّعى كلّ طائفة منهم أنّ النصرة من جهتهم كانت، وأنّهم هم الذين ردّوا الفرنج خاسرين، فعظم الخصام بينهم إلى أن قُتل من إحدى الطائفتين قتيل، واشتدّ الخطب حينئذٍ، وتفاقم الشرّ، ووقعت الحرب بينهم، فقُتل بينهم قتلى، فطمع الفرنج، وزحفوا إليه وقاتلوا عليه، فلم يجدوا من يمنعهم فملكوه.

ذكر حصر عسكر الخليفة تَكْريت وعودهم عنها

في هذه السنة سيّر الخليفة المقتفي لأمر اللّه عسكراً إلى تَكْريتَ ليحصروها، وأرسل معهم مقدّماً عليهم أبا البدر ابن الوزير عون الدين بن هُبَيرة وتُرشَك، وهو من خواصّ الخليفة، وغيرهما، فجرى بين أبي البدر وترشك منافرة أوجبت أن كتب ابن الوزير يشكو من ترشك، فأمر الخليفة بالقبض على ترشك، فعرف ذلك، فأرسل إلى مسعود بلال، صاحب تَكريت، وصالحه وقبض على ابن الوزير ومَن معه من المتقدّمين، وسلّمهم إلى مسعود بلال، [فانهزم العسكر وغرق منه كثير وسار مسعود بلال] وترشك من تَكْريت إلى طريق خُراسان فنهبا وأفسدوا، فسار المقتفي عن بغداد لدفعهما، فهربا من بين يديه، فقصد تكريت، فحصرها أيّاماً وجرى له مع أهلها حروبٌ من وراء السور، فقُتل من العسكر جماعةٌ بالنشّاب، فعاد الخليفة عنها، ولم يملكها. (١٩٠/١١)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وصلت مراكب من صِقِلية، فيها جمع من الفرنج، فنهبوا مدينة تِنّيسَ بالديار المصريّة.

وفيها كان بين الكُرخ بأرمينية وبين صليق، صاحب أرْزَن الروم، مصافّ وحربٌ شديدة، وانهزم صليق وأسره الكُرج ثمّ أطلقوه.

وفيها توفّي أبو العبّاس أحمد بن أبي غالب الورّاق المعروف بابن الطلابة الزاهد البغداديّ بها، وكان من الصالحين، وله حديث ورواية.

وتوفّي عبد الملك بن عبد اللّه بن أبي سهل أبو الفتح بن أبي القاسم الكَرُوخيّ الهَرَويّ، راوي جامع الترمذيّ، ومولده سنة اثنتين وستّين وأربعمائة، وتوفّي ببغداد في ذي الحجّة. (١٩١/١١)

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

ذكر قتل الظافر وخلافة ابنه الفائز

في هذه السنة، في المحرّم، قُتل الظافر باللّه أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين اللّه عبد المجيد العلويّ، صاحب مصر.

وكان سبب [قتله] أنّ وزيره عبّاساً كان له ولدٌ اسمه نصر، فأحبّه الظافر، وجعله من ندمائه وأحبابه الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة، فاتّفق أن قدم من الشام مؤيد الدولة الأمير أُسامة من مُنقذ الكِنانيّ في وزارة ابن السلاّر، واتّصل بعبّاس، فحسّن له قتل العادل بن السلاّر زوج أُمّه، فقتله، وولاّه الظافر الوزارة، فاستبدّ بالأمر، وتمّ له ذلك.

وعلم الأمراء والأجناد أنّ ذلك من فعل ابن مُنقذ، فعزموا على قتله، فخلا بعبّاس وقال له: كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول؟ قال: وما ذلك؟ قال: النّاس يزعمون أنّ الظافر يفعل بابنك نصر، وكان نصر خصيصاً بالظافر، وكان ملازماً له ليله ونهاره، وكان من أجمل النّاس صورة، وكان الظافر يُتّهم به، فانزعج لذلك وعظم عليه، وقال: كيف الحيلة؟ قال: تقتله فيذهب عنك العار؛ فذكر الحال لولده نصر، فاتّفقا على قتله.

وقيل إنّ الظافر أقطع نصر بن عبّاس قرية قَلْيوب، وهي من أعظم قرى (١٩٢/١١) مصر، فدخل إليه مؤيدّ الدولة بن مُنقذ، وهو عند أبيه عبّاس. قال له نصر: قد أقطعني مولانا قرية قليوب.

فقال له مؤيّد الدولة: ما هي في مَهرك بكثير؛ فعظم عليه وعلى أبيه، وأنف من هذه الحال، وشرع في قتل الظافر بأمر أبيه، فحضر نصر عند الظافر وقال له: أشتهي أن تجيء إلى داري لدعوة صنعتُها، ولا تُكثر من الجمع؛ فمشى معه في نفر يسير من الخدم ليلاً، فلمّا دخل الدار قتلَه وقتل مَن معه، وأفلت خادم صغير اختبّأ فلم يروه، ودفن القتلى في داره.

وأخبر أخاه عبّاساً الخبر، فبكّر إلى القصر، وطلب من الخدم الخصيصين بخدمة الظافر أن يطلبوا له إذناً في الدخول عليه لأمر يريد أن يأخذ رأيه فيه. فقالوا: إنّه ليس في القصر. فقال: لا بُدّ منه. وكان غرضه أن ينفي التهمة عنه بقتله، وأن يقتل مَن بالقصر ممّن يخاف أن ينازعه فيمن يقيمه في الخلافة، فلمّا ألحّ عليهم عجزوا عن إحضاره.

فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لا يدرون ما الخبر إذ وصل إليهم الخادم الصغير الذي شاهد قتله، وقد هرب من دار عبّاس عند غفلتهم عنه، وأخبرهم بقتل الظافر، فخرجوا إلى عبّاس، وقالوا له: سل ولدك عنه فإنّه يعرف أين هو لأنّهما خرجا جميعاً. فلمّا سمع ذلك منهم قال: أريد أن أعتبر القصر لئلاّ يكون قد اغتاله أحدٌ من أهله ; فاستعرض القصر، فقتل أخوَين للظافر، وهما يوسف وجبريل، وأجلس الفائز بنصر اللّه أبا القاسم عيسى ابن الظافر بأمر اللّه إسماعيل ثاني يوم قُتل أبوه، وله من العمر خمس سنين، فحمله عبّاس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له النّاس، وأخذ عبّاس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد، ولم يترك فيه إلاّ ما لا خير فيه. (١٩٣/١١)

ذكر وزارة الصالح طلائع بن رُزّيك

كان السبب في وزارة الصالح طلائع بن رُزّيك أنّ عباساً، لما قتل الظافر وأقام الفائز، ظنّ أنّ الأمر يتمّ له على ما يريده، فكان الحال خلاف ما اعتقده، فإنّ الكلمة اختلفت عليه، وثار به الجند والسودان، وصار إذا أمر بالأمر لا يُلتفت إليه ولا يُسمع قوله، فأرسل مَن بالقصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بن رُزّيك يستغيثون به، وأرسلوا شعورهم طيَّ الكتب. وكان في مُنية بني خَصيب والياً عليها وعلى أعمالها، وليست من الأعمال الجليلة، وإنّما كانت أقرب الأعمال إليهم، وكان فيه شهامة، فجمع ليقصد عبّاساً، وسار إليه فلمّا سمع عبّاس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الأموال التي لا تحصى كثرة، والتُحف والأشياء التي لا توجد إلاّ عنده ممّا كان أخذه من القصر، فلمّا سار وقع به الفرنج فقتلوه وأخذوا جميع ما معه فنقلوه به.

وسار الصالح فدخل القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزناً على الظافر، والشعور التي أرسلت إليه من القصر على رؤوس الرماح، وكان هذا من الفأل العجيب، فإنّ الأعلام السود العبّاسيّة دخلتها وأزالت الأعلام العلويّة بعد خمس عشرة سنة.

ولما دخل الصالح القاهرة خلع عليه خِلَع الوزارة، واستقرّ في الأمر، وأحضر الخادم الذي شاهد قتل الظافر، فأراه موضع دفنه، فأخرجه ونقله إلى مقابرهم بالقصر.

ولما قتل الفرنج عبّاساً أسروا ابنه، فأرسل الصالح إلى الفرنج وبذل لهم مالاً وأخذه منهم، فسار من الشام مع أصحاب الصالح، فلم يكلّم أحداً منهم كلمة إلى أن رأى القاهرة فأنشد: (١٩٤/١١)

بلَى نحنُ كنّا أهلَها فأبادَنا ... صُروفُ اللّيالي والجدودُ العواثرُ

وأُدخل القصر، فكان آخر العهد به، فإنّه قتل، وصُلب على باب زُويلة، واستقصى الصالح بيوت الكبار والأعيان بالديار المصريّة فأهلك أهلها وأبعدهم عن ديارهم، وأخذ أموالهم، فمنهم مَن هلك، ومنهم مَن تفرّق في بلاد الحجاز واليمن وغيرهما؛ فعل ذلك خوفاً منهم أن يثوروا عليه وينازعوه في الوزارة؛ وكان ابن مُنقذ قد هرب مع عبّاس، فلمّا قُتل هرب إلى الشام.

ذكر حصر تكريت ووقعة بكَمزا

في هذه السنة أرسل الخليفة المقتفي لأمر اللّه رسولاً إلى والي تكريت بسبب مَن عندهم من المأسورين، وهم ابن الوزير وغيره، فقبضوا على الرسول، فسيّر الخليفة عسكراً إليهم، فخرج أهل تكريت، فقاتلوا العسكر ومنعوه من الدخول إلى البلد؛ فسار الخليفة بنفسه مستهلّ صفر فنزل على البلد، فهرب أهله، فدخل العسكر فشعثوا ونهبوا بعضه، ونصب على القلعة ثلاثة عشر منجنيقاً، فسقط من أسوارها برج وبقي الحصر كذلك إلى الخامس والعشرين من ربيع الأوّل.

وأمر الخليفة بالقتال والزحف، فاشتدّ القتال، وكثر القتلى، ولم يبلغ منها غرضاً، فرحل عائداً إلى بغداد، فدخلها آخر الشهر، ثمّ أمر الوزير عون (١٩٥/١١) الدين بن هُبَيرة بالعود إلى محاصرتها، والاستعداد، والاستكثار من الآلات للحصار، فسار إليها سابع ربيع الآخر، ونازلها وضيّق عليها، فوصل الخبر بأنّ مسعود بلال وصل إلى شهرابان ومعه البَقش كُون خر وترشك في عسكر كثير ونهبوا البلاد، فعاد الوزير إلى بغداد.

وكان سبب وصول هذا العسكر أنهم جتوا الملك محمّداً ابن السلطان محمود على قصد العراق، فلم يتهيّأ له ذلك، فسيّر هذا العسكر، وانضاف إليهم خلق كثير من التركمان، فخرج الخليفة إليهم، فأرسل مسعود بلال إلى تكريت، وأخرج منها الملك أرسلان ابن السلطان طُغرُل بن محمّد، وكان محبوساً بتكريت، وقال: هذا السلطان نقاتل بين يديه بإذن الخليفة به ... ما